

VO



DATE DUE

Jafet Library

24 MAR 1995

[REDACTED]

وافي ه علي عبد الباقي .

فقه اللغة

[REDACTED]

20 DEC 1960

4 NOV 1976

4 APR 1961

JUN 62

JAFET LIB.

5 APR 1961

OC 1 '58

6 AUG 1962

7 AUG 1962

1 JUN 1972

JUN 67

NOV 22 '59

30 MAR 1960

9 NOV 1960

JAFET LIB.

OCT 1 '62

JUN 70
15 JUN 67

1 FEB 1974

5 NOV 1960

Jafet Library

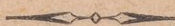
20 JUN 67

30 NOV 1960

9 MAR 1995 - Feb 70

فكر اللغة

دراسة اجتماعية تاريخية لغوية لفصيلة اللغات السامية
وخاصة اللغة العربية



تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي

دكتور في الآداب من جامعة باريس

أستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول



الطبعة الثانية — مزيده ومنقحة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

67436

١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي بالقاهرة

بعض كتب أخرى للمؤلف

Contribution à une Théorie Sociologique de l'Esclavage — ١

Distinction entre la Femme et l'Homme dans l'Esclavage — ٢

حصل بهما على شهادة الدكتوراه بدرجة الشرف الممتازة من جامعة السربون

٣ — في التربية (قررت وزارة المعارف تدريسه بدار العلوم)

٤ — علم اللغة (يدرس بكلية الآداب ودار العلوم)

٥ — الاقتصاد السياسي (يدرس بكلية الآداب)

٦ — البطالة (نال جائزة و المباراة الأدبية «)

٧ — مواد الدراسة (يدرس بدار العلوم)

٨ — لمحة في تاريخ الأدب اليوناني (تحت الطبع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن
تبعهم بإحسان .

وبعد ، فقد عرضنا في كتابنا « علم اللغة » لدراسة النواميس العامة التي تدير عليها
اللغات الإنسانية في نشأتها ، وانتقالها من السلف إلى الخلف ، وتكوّن مجموعات
وفصائلها ، وصراعها بعضها مع بعض ، وانشعاب الأصل الواحد منها إلى شعب وفروع ،
وتطورها من مختلف الوجوه .

وسندرس في هذا الكتاب — على ضوء الحقائق العامة التي كشفنا عنها في كتابنا
السابق — فصيلة خاصة من فصائل اللغات الإنسانية ، وهي فصيلة « اللغات السامية » ،
مفصلين بعض التفصيل في لغة منها ، وهي اللغة العربية ، ومجملين القول فيما عداها .
فمؤلفنا هذا في منزلة الجزء الثاني من كتابنا « علم اللغة » ، غير أننا آثرنا أن نطلق
عليه اسماً خاصاً شاع استعماله في الموضوعات التي يعرض لها ، وخاصة ما يتعلق منها
باللغة العربية .

والله نسأل أن يوفقنا إلى الخير والسداد ، ويهيئ لنا من أمرنا رشداً ؟

على عبد الواهر والفي

تقديم

في الشعوب السامية وانحائها

١ - الشعوب السامية:

يطلق الآن لقب الساميين على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية - الآشورية وما انحدر من هذه الشعوب .

وأول من استخدم هذا الوصف في إطلاقه على الشعوب السابقة العالم الألماني شلوتزر Schlözer في أواخر القرن الثامن عشر . وقد اقتبسه مما ورد في سفر التكوين بصدد أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافت ، والشعوب التي انحدرت من كل ولد منهم . فقد ذكر هذا السفر أن أولاد سام هم عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام ، وأنه قد ولد لأرفكشاد شيلاش واشيلاش عابر أبو العبريين . . . الخ .

غير أنه يلاحظ أن سفر التكوين قد اعتمد في تقسيمه هذا على الروابط السياسية والثقافية والجغرافية أكثر من اعتماده على صلات القرابة والروابط الشعبية . ولذلك عد الليدين Lydiens والعيلاميين Elyméens من الساميين ، لشدة امتزاجهم بالآشوريين وخضوعهم لسلطانهم السياسي ، مع أنهما من الناحية الشعبية أجنبيان عن الشعوب السامية وأجنبيان أحدهما عن الآخر . فالعيلاميون يغلب على الظن أنهم من جنس إيراني ، والليديون غير معروف في الأصل ، ولكن من المقطوع به أنهم غير ساميين وأنه لا يجمعهم بالعيلاميين أصل قريب . وعلى هذا الأساس أيضاً اعتبر السفر السابق الفينيقيين من الشعوب الحامية لتعدد الصلات السياسية والثقافية التي كانت تربطهم بالشعوب الحامية المصرية والبربرية ، ولما كان بينهم وبين العبريين من عداة وحروب ، ولاختلافهم عنهم في النظم الاجتماعية وشؤون السياسة والدين ، مع أنهم من أخلص الساميين نسباً وأقربهم رحماً إلى العبريين أنفسهم .

ومع ذلك لم يجد العلماء غصاضة في اقتباس كلمة الساميين عن هذا السفر ، ولكنهم

لم يجاروه في استخدامها بل أخرجوا من نطاقها القديم جميع الشعوب التي ظهر لهم أنها أجنبية عن الساميين ، وأضافوا إليه الشعوب السامية التي سكنت عنها أو عدها من فصائل أخرى ، حتى استقر مدلولها في عرفهم على الوجه الذي أشرنا إليه في صدر هذه الفقرة .

٢ — اللغات الساميّة :

ويطلقون اسم اللغات الساميّة على لغات هذه الأمم وما تفرع منها وعلى بعض لغات أخرى ظهر لهم انتمائها إلى نفس الفصيلة التي تنتمي إليها هذه اللغات . فمدلولها يشمل اللغات الأكادية (الآشورية — البابلية) والآرامية والسكنانية (الفينيقية والعبرية) والعربية والينية القديمة والحديثة (١) .

وأول من استخدم هذا الوصف في إطلاقه على هذه اللغات العالمان الألمانيان شلوتزر Schlötzer وايكهورن Eichhorn في أواخر القرن الثامن عشر (٢) .

ولوضوح الشبه بين أفراد هذه الفصيلة فطن الباحثون منذ عصور سحيقة إلى صلات القرابة التي تربطها بعضها ببعض . فتشابه اللغتين العبرية والآرامية قد بلغ درجة لا تخفى معها قرابتهما حتى على أقل الناس إلماماً بهذه الشؤون . ولذلك فطن كثير من قدامى الباحثين إلى انتمائهما إلى فصيلة واحدة . وتشابه اللغتين العبرية والعربية ، وإن لم يصل إلى الدرجة السابقة ، قد ظهر للباحثين منذ القرن العاشر الميلادي . ففي هذا القرن أدرك كثير من علماء اليهود وجوه القرابة بين هاتين اللغتين . وفي القرن السابع عشر اهتدى العلماء ، على ضوء دراساتهم للغة الكنيسة بالحشة *Langue liturgique des Abyssins* ، إلى قرابة هذه اللغة باللغة العربية . ولذلك يمكن القول إنه لم ينتصف القرن السابع عشر حتى تكونت لدى المستشرقين فكرة واضحة عن صلات القرابة بين معظم أفراد الفصيلة السامية ، وذلك سابق كثيراً للعصر الذي اهتدى فيه بوب Bopp إلى صلات القرابة التي تربط اللغات الأوروبية بعضها ببعض والتي تربطها باللغات الهندية — الإيرانية (٣) . وقد كملت هذه الفكرة وازدادت وضوحاً في القرن التاسع عشر . ففي هذا القرن كشف العلماء الخط المسماري *Cunéiforme* وحلّسوا الآثار

(١) انظر الفقرة الثالثة من الفصل الثالث من كتابنا « علم اللغة » .

Renan : Histoire Générale des Langues Sémitiques p. 43; Brockelmann : (٢)

Précis de Linguistique Sémitique (Traduction Française par Marçais et Cohen) p. 7.

(٣) انظر الفقرة العاشرة من مقدمة كتابنا « علم اللغة » .

الأشورية المدونة به ، كما كشفوا كثيراً من الوثائق المدونة باللغتين الفينيقية واليبانية القديمة . وعلى ضوء هذه الآثار ظهرت صلات القرابة الوثيقة بين هذه اللغات (١) وبقية اللغات السامية . وبذلك كملت مجموعة اللغات السامية وحل كثير من المشاكل العلمية المتعلقة بنشأتها وتطورها وانشعابها بعضها من بعض ، وتكونت مادة غزيرة للبحث والموازنة . وفي هذا القرن عكف بعض العلماء على دراسة اللهجات العامية المتفرعة عن هذه اللغات ، فكان لدراساتهم هذه أجل أثر في نهضة هذه البحوث .

٣ — دراسة اللغات السامية :

وقد انقسمت دراسة اللغات السامية إلى وجهتين : إحداهما دراسة عامة في تاريخ هذه اللغات ونشأتها وحياتها وتطورها . . . وما إلى ذلك ، وثانيتهما دراسة خاصة في أصواتها وقواعدها ومفرداتها . . . وموازنتها من هذه النواحي بعضها ببعض .

✕ . وقد كتب في كلتا الوجهتين عدد كبير من أعلام الباحثين . فمن أشهر من كتب في الوجهة الأولى العلامة الفرنسي رينان Renan ، فقد ألف في منتصف القرن التاسع عشر في «التاريخ العام للغات السامية» كتاباً جليلاً ، لولا ما فيه من تحامل على الساميين ومن آراء دلت البحوث والاكتشافات الحديثة على خطئها (٢) ، والعلامة الألماني نولدكه Nöldeke الذي تدارك في كتابه (٣) كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها رينان . — ومن أشهر من كتب في الوجهة الثانية الأستاذة ريت Wright (٤) وزيميرن Zimmern (٥) . ومن أشهر من كتب في الوجهتين معاً العلامة الألماني بروكلمان Brockelmann (٦) .

٤ — انحدار الأمم الناطقة باللغات السامية من أصل واحد :

هذا ، وإن رجوع هذه اللغات جميعها إلى فصيلة واحدة ليحمل على الظن أن الأمم (١) لم تصلنا هذه اللغات الثلاث إلا عن طريق الوثائق المكتوبة ، لأنها كانت قد انقرضت من المحادثة في الوقت الذي عكف فيه العلماء على دراسة هذا الموضوع .

(٢) قصد العلامة رينان إلى دراسة الوجهتين معاً ولذلك جعل عنوان كتابه : «التاريخ العام والقواعد المقارنة للغات السامية Histoire générale et système comparé des Langues sémitiques» ولكن لم يظهر من كتابه هذا إلا الجزء الأول الذي وقفه على التاريخ العام .

(٣) Th. Nöldeke : Die Semitischen Sprachen.

(٤) Wright : Lectures on the comparative Grammar of the Semitic Languages, 1890.

(٥) Zimmern : Vergleichende Grammatik der semitischen Sprachen, 1898.

(٦) Brockelmann : Grundriss der vergleichenden Grammatik der Semitischen.

Sprachen, 1908 ; Kurzgefasste vergleichende Grammatik, 1903 ; Semitisch Sprachwissenschaft 1906.

الناطق بها ترجع كذلك إلى أصل واحد . وأنها قبل تفرقها كانت تؤلف وحدة شعبية . ولكن يحول دون قبول هذا الفرض أن اللغة لا تنتقل من السلف إلى الخلف فحسب ، بل تنتقل أحياناً إلى شعب أجنبي عن شعبها إذا اشتبكت في صراع مع لغته وكتب لها النصر ، كما كان شأن اللغة اللاتينية في الشعوب السلتية واللغة السلافية في شعوب البلغار (١) . فمن المحتمل إذن أن يكون أحد هذه الشعوب أو بعضها غير سامي الأصل ، وانتقل إليه اللسان السامي عن هذا الطريق . وقد دلت البحوث الحديثة على صحة هذا الاحتمال فيما يتعلق ببعض هذه الشعوب . فمن المقطوع به الآن أن معظم الجماعات الحبشية الناطقة بلهجات سامية منحدرة من أصول غير سامية ؛ وأن اللسان السامي قد انتقل إليها مع من نزح إلى بلادها من الساميين على أثر صراع انتصر فيه هذا اللسان على لغاتها القديمة . ومن المرجح أن كثيراً ممن كانوا يتكلمون الأكادية والعبرية والآرامية منحدرون كذلك من أصول غير سامية ، وأن اللسان السامي قد انتقل إليهم على أثر امتزاجهم بالساميين وخضوعهم لنفوذهم السياسي .

٥ - الموطن الأول للشعب السامي :

ولكن بما لا شك فيه أن الأمم السامية الأصلية التي انتشرت في هذه المناطق ونشرت بها لغاتها ، كان لها في الأصل موطن واحد . وقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً في تعيين هذا الموطن ، وذهبوا فيه مذاهب شتى ، ولم يصلوا بعد بشأنه إلى رأى يقيني . ويرجع أهم ما قيل بهذا الصدد إلى ستة آراء :

١ - فبعضهم يذهب إلى أن الساميين قد نشئوا ببلاد الحبشة ، ومنها نزحوا إلى القسم الجنوبي ببلاد العرب عن طريق باب المندب ، ومن هذا القسم انتشروا في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية .

٢ - وبعضهم يذهب إلى أن الموطن الأول للساميين كان شمال أفريقيا ، ومنه نزحوا إلى آسيا عن طريق برزخ السويس .

٣ - وبعضهم يذهب إلى أن المهد الأول للساميين كان بلاد أرمينية بالقرب من حدود كردستان . وفريق من هؤلاء يرى أن هذا الموطن كان المهد الأول للشعبيين السامي والآري معاً .

(١) انظر الفصل الرابع (صراع اللغات) في كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

وهذه الآراء الثلاثة هي أضعف ما قيل بهذا الصدد ، إذ لم يكد أحد من أصحابها يقدم بين يدي مذهبه دليلاً يعتد به .

٤ - ويذهب الأستاذ جويدي Guidi ومن تابعه إلى أن المهد الأصلي للأمم السامية كان جنوب العراق^(١) . ويستدل على رأيه ببعض كلمات مشتركة في جميع اللغات السامية تتعلق بال عمران والحيوان والنبات . فقد ظهر له من طبيعة هذه الكلمات وأصواتها ومدلولاتها ومن شواهد أخرى كثيرة أنها نشأت بجنوب العراق . ويتخذ من اشتراكها في جميع اللغات السامية دليلاً على أن هذه المنطقة كانت المهد الأول للساميين .

٥ - ويرى بعضهم أن الموطن الأصلي للساميين كان بلاد كنعان ، ويستدل على ذلك بأن الساميين كانوا منتشرين في البلاد السورية القديمة في أزمنة سحيقة في القدم ، وأن مدينتهم في هذه البلاد لا يعرف مبدأ نشأتها ، ولا تعرف قبلها مدينة أخرى . على حين أن بلاد العراق مثلاً التي يرى أصحاب المذهب الرابع أنها المهد الأول للساميين ، كان يسكنها من قبلهم الشعب السومري ، وكانت له فيها مدينة زاهرة قبل مدينتهم ، وقد نزحوا إليها في عصر كانت فيه بلاد سوريا القديمة آهلة بأمم سامية ذات مدينة عريقة .

٦ - ويرجح بعضهم أن المهد الأول للساميين كان القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز ونجد واليمن وما إلى ذلك) . وقد مال إلى هذا الرأي عدد كبير من قدامى المستشرقين ومحدثيهم ، وعلى رأسهم الأستاذ رينان الفرنسي وبروكلمان الألماني . وهذا هو أصح الآراء وأقواها سنداً وأكثرها اتفاقاً مع آثار هذه الأمم وحقائق التاريخ . ويرجح الأخذ به أدلة كثيرة :

فمن ذلك أن الهجرة في هذه البلاد كانت تتجه دائماً ، في العصور السابقة للتاريخ وفي العصور التاريخية ، من القسم الجنوبي الغربي (بلاد نجد والحجاز واليمن وما إليها) إلى الشمال والشرق (سوريا والعراق وما إليهما) .

فمن هذا القسم نزح الساميون إلى جنوب العراق وغزوا بلاد السومريين وغلبوهم على أمرهم وأنشؤوا بهذه المنطقة مملكة عظيمة ومدينة زاهرة (مملكة بابل)^(٢) . ومن هذا القسم كذلك نزح الساميون إلى الشمال ، فتكونت من سلالاتهم الشعوب

(١) يتفق هذا الرأي مع مذهب إليه التوراة من أن أقدم ناحية عمرها أولاد نوح هي أرض بابل .

(٢) يظن أن هذه الهجرة كانت حوالى القرن السادس والثلاثين ق م .

التي عرفت باسم الشعوب الكنعانية^(١). ويظهر أنه قد تخلف منهم شمال الحجاز تلك القبائل التي عرفت عند العرب باسم قبائل ثمود، والتي تركت في هذه المنطقة نقوشاً كان لها شأن كبير في الوقوف على ناحية من تاريخ اللغات السامية عامة واللغة العربية على وجه الخصوص.

ومن هذا القسم كذلك حدثت هجرة ثانية إلى العراق كان من آثارها أن قبض الساميون على زمام الحكم في معظم بلاد العراق وأسسوا بها الدولة السكلمدية الخامسة التي كان من ملوكها حمورابي^(٢).

ومن هذا القسم كذلك نزح بعض قبائل الاسماعيليين (نسل اسماعيل عليه السلام وكان موطنهم الأصلي بلاد الحجاز) إلى الشمال^(٣). ومن أشهر هذه القبائل بنو قيدار وبنو نابت. أما بنو قيدار فقد انتقلوا من الحجاز إلى يثرب ومنها إلى مدائن صالح حيث تركوا بعض نقوش وفق العلماء حديثاً إلى كشفها وحل رموزها، ومن مدائن صالح تابعوا هجرتهم شمالاً إلى خليج العقبة، ومنه إلى وادي موسى حيث ألقوا عصا الترحال. وأما بنو نابت (المعروفون بالنبط أو النبطيين)^(٤) فقد نزحوا مع بني قيدار من الحجاز إلى الشمال واستقروا في منطقة خليج العقبة حيث كونوا مملكة عظيمة وتركوا آثاراً كثيرة، وفيهم ظهر الخط المعروف بالخط النبطي الذي اشتق منه الخط العربي^(٥).

ومن هذا القسم كذلك نزح في أوائل التاريخ الميلادي بعض القبائل المعدية (التي كان موطنها الحجاز) إلى الشام، وبعض القبائل القحطانية (التي كان موطنها اليمن) إلى الشمال والشرق فنزلت منها خزاعة بمكة، والأوس والخزرج بيثرب، وغسان بالشام، ولخم بالعراق^(٦).

فإذا أضيف إلى ما تقدم أن معظم الباحثين يقررون أن أول هجرة سامية إلى الحبشة كانت من بلاد اليمن، تبين رجحان الرأي الذي نحن بصددده وهو أن المهد

(١) يظن أن هذه الهجرة كانت حوالي القرن السادس والعشرين ق م.

(٢) يظن أن هذه الهجرة كانت حوالي القرن السادس عشر ق م.

(٣) يظن أن هذه الهجرة كانت حوالي القرن السادس ق م.

(٤) وهم غير أنباط العراق.

(٥) أنظر الفقرة الرابعة من الفصل السادس بكتاب علم اللغة للمؤلف.

(٦) أنظر في هذه الهجرات جميعها كتاب « اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب » للاستاذ

محب الدين الخطيب مدير المكتبة السلفية.

الأول لجميع الشعوب السامية كان القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة (بلاد نجد والحجاز واليمن وما إليها).

ويؤيد هذا الرأي كذلك ، ما ذهب إليه الأمير كيتاني دوتيانو Caetani de Teano من أن هذا القسم كان في العصور السابقة للتاريخ كشيء السكان ، خصب الأرض ، موفور الخيرات ، تخترقه ثلاثة أنهر كبيرة على الأقل ، وأنه على أثر بعض الظواهر البحرية وانحسار جبال الثلج الكبيرة إلى الشمال ، فقد خصبه ، وبغت أنهاره ، فزح معظم سكانه إلى جهات أخرى . وقد اعتمد في نظريته هذه على أدلة مستمدة من البحوث الجيولوجية التي أجريت بهذه المنطقة (١).

ويزيد هذا الرأي تأييداً أن العقلية السامية القديمة عقلية أساسها المحس المشاهد لا المعنوي المتخيل . فهي ضحلة التخيل ، قليلة العمق في المعقولات المحضة ، لا تكاد تلبس ما وراء الطبيعة إلا برق وسذاجة وفي نطاق محدود . ولا أدل على ذلك من أن معظم الكلمات السامية الدالة على الحقائق الكلية والأمور المعنوية والظواهر النفسية ترجع أصولها إلى أمور مادية تتصل بعالم الحس . فجميع الكلمات والجل التي يعبر بها في العبرية عن الغضب مثلاً تدل في الأصل على أمور حسية : فأحياناً يعبر عنه بكلمة تدل في الأصل على التنفس السريع القوي الذي يصحب الغضب عادة ، وأحياناً بكلمة تدل على الرعدة أو ارتفاع الحرارة أو الغليان . والخوف يعبر عنه في هذه اللغة بكلمة تدل في الأصل على ارتجاء الكليتين ، والتكبر بكلمة تدل في الأصل على الشموخ بالرأس أو استطالة القامة واعتدالها ، واليأس بكلمة تدل في الأصل على تقطع نياط القلب ، والصبر بكلمة تدل في الأصل على طول التنفس ، والرغبة بكلمة تدل في الأصل على الظمأ ، والعفو بكلمة تدل في الأصل على المحو (٢) . وهلم جرا . حقاً أنه توجد كلمات كثيرة من هذا القبيل في اللغات الهندية - الأوروبية . غير أن معظم هذه الكلمات قد فقدت في هذه اللغات معناها الأصلي المحس ، وأصبح لا يفهم منها إلا مدلولها المعنوي . على حين أنه في اللغات السامية لا تزال هذه الكلمات تدل على معانيها الأصلية ويشتم منها رائحة المادة (٣) .

(١) V. Brockelmann: Précis de Linguistique Sémtique (Trad. Fr.) p. 10 ، وقد نشر

بهذا الصدد المستر توينبي Toynbee بعدد ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٥ من جريدة منشستر جارديان مقالا ضمنه رأيا قريبا من هذا الرأي .

(٢) وكذلك اللغة العربية . ففقا وغفر معناها الأصلي المحو .

(٣) V. Renan, op. cit. pp. 22—25

ومن الواضح أن عقلية هذا شأنها لا تنشأ إلا في مواطن صحراوية قليلة المظاهر الطبيعية، غير متنوعة الأجواء . لأن المناطق المتنوعة الأجواء ، الغنية بمظاهر الطبيعة ، تنمي قوة الخيال وتؤدي إلى تنوع التفكير . ففي هذا دليل على أن الجماعة السامية الأولى التي ورثت هذه الأمم عقليتها وخيالها ولغتها قد نشأت في الأصل في مناطق صحراوية ، وتيرية المناخ ، فقيرة في مظاهر الطبيعة . وهذه الأوصاف متوافرة في الحجاز ونجد وما إليهما .

٦ - أقدم لغة سامية :

كما اختلف العلماء في الموطن الأول للأمم السامية ، اختلفوا كذلك في اللغة الأولى التي كان يتكلم بها الشعب السامي أيام أن كان أبناؤه مجتمعين في موطن واحد . فكان أحرار اليهود في العصور القديمة يعتقدون أن العبرية هي أقدم لغة إنسانية ، وانتشر هذا الرأي عند كثير من الباحثين حتى أن بعض العرب أنفسهم قد ذهب إليه . وذهب بعضهم إلى أن الآشورية البابلية هي أقدم اللغات السامية . ولم يقدم أصحاب هذه النظرية دليلاً يعتد به . هذا إلى أن ما وصلنا من الآشورية لا يعدو ألفاظاً قليلة يتعذر على ضوءها الحكم على مبلغ أقدمية هذه اللغة . وفضلاً عن هذا كله ، فمن المقرر أن هذه الألفاظ القليلة ليست سامية خالصة ، بل اختلطت فيها المفردات السامية القديمة ببعض مفردات سومرية اقتبست من لغات السكان الأصليين لهذه البلاد لدرجة لا يمكن معها تمييز هذه عن تلك .

وذهبت طائفة من المحدثين وعلى رأسها العلامة أولسهاوزن Olshausen (في مقدمة كتابه عن العبرية) إلى أن اللغة العربية هي أقرب اللغات السامية إلى اللغة السامية الأولى .

وجميع هذه الآراء قائمة على أساس فاسد . وذلك أن جميع اللغات السامية قد اجتازت مراحل كثيرة في التطور قبل أن تصل إلى الحالة التي أتيح للعلماء معرفتها ، فبعدت بذلك كل لغة منها عن النقطة الأولى التي ابتدأ منها تطورها . فمن الخطأ إذن النظر إلى واحدة منها على أنها أول لغة تكلم بها الشعب السامي . هذا إلى أنه من المستحيل أن تحتفظ لغة بوحدها متى تعددت مناطقها وتعددت طوائف المتكلمين بها ، بل لا مناص حينئذ من انشعابها إلى لهجات ولغات ، على النحو الذي شرحناه بتفصيل

في كتاب « علم اللغة »^(١) . ولا يعقل أن يكون الشعب السامي الأول قد ظل محتفظاً بوحدة الاجتماعية أو ظل حبيساً في منطقة واحدة من الأرض أمداً طويلاً . ولذلك يمكن القطع بأنه لم توجد أبداً أو لم تسكد توجد لغة سامية واحدة ، بل وجد من مبدأ النشأة عدد كبير من اللغات السامية .

هذا ، وقد عمد بعض العلماء إلى الأمور المشتركة بين اللغات السامية في المفردات والقواعد ، فاتخذ منها صورة للغة السامية الأولى ، واعتبر أقرب اللغات السامية إلى هذه الصورة أقدمها نشأة وأولها وجوداً . وهذا المذهب لا يقل فساداً عن المذاهب السابقة ، لأن هذه الأمور المشتركة لا تمثل أكثر من وجوه الشبه بين اللغات السامية في أقدم حالة أتيح للعلماء معرفتها . وقد تقدم أن هذه اللغات قد اجتازت مراحل كثيرة في التطور قبل أن تصل إلى هذه الحالة ، فبعدت بذلك كل لغة منها عن الأصل القديم . فهذه الأمور المشتركة لا تمثل إذن تمثيلاً صادقاً أقدم لسان تكلم به الساميون .

غير أنه من المسلم به الآن لدى معظم المحدثين من علماء الاستشراق أن اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة في مفرداتها وقواعدها ، وأنه لا تكاد تعدلها في ذلك أية لغة سامية أخرى . ويرجع السبب في هذا إلى نشأتها في أقدم موطن للساميين ، وبقائها في منطقة مستقلة منعزلة ، فقلت بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى ، ولم تذلل لها سبل كثيرة للبعد عن أصلها القديم .

٧ - خصائص اللغات السامية وصفاتها المشتركة :

من أهم خصائص اللغات السامية ما يلي :

١ - يتألف الأصل السامي في الغالب من ثلاثة أصوات ساكنة (غير لينية) مختلفة (ق ت ل ، ض ر ب ، ج ع ... الخ) . غير أن لكل وجه من هذه الوجوه شواذ كثيرة :

(١) فبعض الأصول السامية يتألف من صوتين فقط . ويصدق هذا على بعض الحروف (عن ، قد ، بل ...) والضمائر (هو ، هم ...) وأسماء الشرط والموصول والاشارة (من ، ذا ...) وبعض أسماء الذوات (يد ، دم ...) . وثمت أفعال لا يبقى منها إلا حرفان في معظم وجوه تصرفها (قلت ، نلت ، عمت ، رمت ...) . وهذا يدل

(١) انظر الفصل الخامس من كتاب « علم اللغة » للمؤلف ، (تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات

على أن المعنى العام يتوقف في هذه الأفعال على صوتين فقط . على أن الأفعال الأخرى نفسها ليست جميع أصواتها بدرجة واحدة من الأهمية في تأدية المعنى ، بل تزيد فيها غالباً أهمية صوتين على أهمية الصوت الثالث . فالمعنى العام يتعلق فيها بصوتين فقط ؛ أما الصوت الثالث فيحدد هذا المعنى العام ويوجهه وجهات خاصة . فالمعنى العام للتفرقة مثلاً يؤدي في العربية بصوتَي ف ر ، ويضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع التفرقة والمادة التي حدثت فيها (فرى ، فرم ، فرض ^(١) ، فرص ^(٢) ، فرث ^(٣) ، فرج ، فرق ، فرز ... الخ) . والمعنى العام للقطع يؤدي بصوتَي ق ط (أو صوت شبيهه بالطاء كالـدال) ، ويضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع القطع والمادة التي حدثت فيها (قطع ، قطف ، قطم ^(٤) ، قط ^(٥) ، قد ... الخ) . والصوتان اللذان تزيد أهميتهما في الفعل على أهمية الصوت الثالث يمثلان في الغالب صوت الفعل أى ما يحدثه الفعل نفسه من صوت عند وقوعه ، فهما يمثلان الأصل الأول الذى أخذت منه الكلمة . وفي هذه الناحية يظهر وجه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية الأوروبية ^(٦) .

(ب) وبعض الأصوات السامية يتألف من صوتين ساكنين وصوت لين أو نصف لين (قال ، وعد ...) .

(ج) وبعضها يتألف من صوتين ساكنين مضعف ثانيهما (تم ، رد ...) .
أما الكلمات التي تبدو رباعية الأصول في العربية والعبرية فهي متفرعة في الحقيقة عن أصول ثلاثية (دحرج مثلاً متفرعة عن درج) على الرغم من أن علماء الصرف يعتبرون جميع أصواتها أصيلة .

وأصول الكلمات لا توجد مستقلة في اللغات السامية . فالأصل الدال على معنى القتل في اللغة العربية مثلاً وهو ق ت ل لا يوجد مستقلاً في هذه اللغة ، بل لا يمكن النطق به .

والأصوات التي يتألف منها أصل ما توجد مرتبة ، حسب ترتيبها في هذا الأصل ،

(١) فرضت الحشبة فرضاً من باب ضرب حزرتها اه المصباح .

(٢) الفرص القطع والمفراص الذى يقطع به القضة اه مختار الصحاح .

(٣) أفرث الكرش شقها وألقى ما فيها اه مختار الصحاح .

(٤) قطمه قطاً من باب ضرب عضه وذاقه أو قطعه اه المصباح .

(٥) قططت القلم قطاً من باب قتل قطعت رأسه عرضاً في بريه اه المصباح .

(٦) V. Renan, op. cit. 96, 97

في جميع الكلمات المشتملة على معناه العام . فالأصوات الثلاثة ق ت ل التي يتألف منها الأصل الدال على معنى القتل ، توجد مرتبة بالشكل السابق في جميع الكلمات المشتملة على هذا المعنى : قتل ، قاتل ، قتال ، قتييل ... الخ .

واشتمال الكلمة على أصوات أصل ما لا يدل على أكثر من تضمنها للمعنى العام لهذا الأصل .

أما ما عدا هذا المعنى العام فيشار إليه بأصوات مدطوية (ألف ، ياء ، واو ... الخ) أو قصيرة (فتحة ، كسرة ، ضمة) تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . فنوع الكلمة (كونها اسما أو فعلا أو حرفا ، اسم فاعل أو اسم مفعول ، متعدية أو لازمة ، مفردة أو مشئ أو جمعا ... الخ) وزمنها (حدث معناها في الماضي أو يحدث في الحال أو في المستقبل) ووظيفتها في الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه أو حالا أو تمييزا ... الخ) كل ذلك وما إليه تدل عليه في اللغات السامية أصوات مدطوية أو قصيرة تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . وأصوات المد الطويلة هي التي يرمز إليها في الكتابة العربية بحروف اللين الثلاثة (الألف والياء والواو) ، والقصيرة هي التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة . فبضم القاف وكسر التاء وفتح اللام في « قَتِيلَ المجرم » مثلا ، تدل الكلمة على فعل قتل حدث في زمن مضى ومستند للمفعول . وبمد القاف بالألف وكسر التاء وإبقاء اللام ساكنة في « قَاتِلُ الذي يقاتلك » ، تدل الكلمة على أمر المخاطب بإجراء القتل في صورة متبادلة مع غيره . وبفتح القاف ومد التاء بالياء وكسر اللام في « هذا دم القتييل » ، تدل الكلمة على شخص وقع عليه القتل ومنسوب إليه (مضاف إليه) شيء آخر . وبفتح القاف وإبقاء التاء ساكنة ومد اللام بالألف في « هؤلاء قتلى الحرب » تدل الكلمة على عدة أفراد وقع عليهم القتل ... وهلم جرا .

وقد يصحب هذا أحيانا أصوات جديدة تسبق أصوات الأصل الثلاثة أو تتخللها أو تلحقها للدلالة على معاني خاصة في الكلمة . فزيادة ميم محركة بالفتح قبل أصوات الأصل ونون ساكنة في نهاية الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وفتح التاء واللام في « أصاب مقتلا (مَقْتَلَانِ) » تدل الكلمة على عضو نكرة تؤدي إصابته إلى القتل وقد وقع عليه الفعل المعبر عنه في الجملة . وبزيادة ياء مفتوحة قبل أصوات الأصل وتاء مفتوحة بعد القاف ونون مفتوحة في آخر الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وكسر التاء ومد اللام بالواو في « القوم يقتتلون » تدل الكلمة على فعل يحدث في الحال أو في

الاستقبال في صورة متبادلة بين طائفتين من الذكور الآدميين (١).

٢ — لا تكاد توجد في اللغات السامية كلمات تشتمل على أكثر من أصل واحد ، على حين أن هذا النوع يكثر في اللغات الهندية — الأوروبية وخاصة الحديث منها . وكل كلمة من هذا القبيل تدل على معنى مركب من معاني الأصول التي تشتمل عليها (٢) .

٣ — للأصوات الساكنة (ونعني بها ما عدا الأصوات اللينة) في اللغات السامية أهمية تزيد كثيراً على أهمية أصوات اللين ؛ ويبدو هذا في ثلاثة وجوه : في الدلالة والنطق والرسم .

(١) فالمعنى الأساسي للكلمة — كما تقدم الكلام على ذلك في الخاصة الأولى — يشار إليه غالباً بالأصوات الساكنة . أما الأصوات اللينة فلا تعدو وظيفتها في الغالب تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة (ق ت ل يدل على المعنى العام للقتل ؛ ق ت ل يدل على وقوع القتل في زمن مضى من واحد غائب ، ق ت ل يدل على قتل حدث في زمن مضى ومسند للمفعول ... وهلم جرا) .

(ب) والأصوات الساكنة تنال أكبر قسط من عناية المتكلم ، وهي لذلك أوضح في الجرس من الأصوات اللينة ، وأظهر منها في السمع .

(ج) وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة في الدلالة والنطق إلى الرسم نفسه . فأم ما يعنى الرسم السامى بإظهاره هو الأصوات الساكنة ، أما الأصوات اللينة فيغفل بعضها إغفالاً تاماً ، ويشير إلى بعضها بالشكل ، ويرسم بعضها رسماً مضطرباً غير دقيق . وهذا في الرسم الحديث ؛ أما الأشكال القديمة للرسم السامى فكانت تغفل جميع أصوات اللين (٣) .

٤ — ليس للفعل في معظم اللغات السامية إلا زمانان : فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (مضارع الحال أو المستقبل وأمر) (٤) .

(١) انظر الفرق بين اللغات السامية واللغات الهندية — الأوروبية بصدد هذه الخاصة في كتابنا علم اللغة (الفقرة الخامسة من الفصل الثالث) .

(٢) توجد هذه الظاهرة في اللغات السامية في بعض كلمات قليلة حديثة النشأة وأظهر ما يكون ذلك في الكلمات المنحوتة (انظر الفقرة ٢٢ من الفصل السادس من هذا الكتاب) .

(٣) V. Brockelmann, op. cit, p. 19 . وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام على الرسم السامى بصفحة ٢٧ وتوابعها (انظر الفرق بين اللغات السامية واللغات الهندية — الأوروبية بصدد هذه ص ٢٣ الخاصة في الفقرة الخامسة من الفصل الثالث من كتابنا « علم اللغة ») .

(٤) يستثنى من ذلك اللغات الأكادية فإن للفعل فيها ثلاثة أزمنة كما سيأتى بيان ذلك في الفصل الأول (انظر الفرق بين اللغات السامية واللغات الهندية — الأوروبية بصدد هذه الخاصة في الفقرة الخامسة من الفصل الثالث من كتابنا « علم اللغة ») .

٥ - يحدث في الغالب تأنيث الاسم والصفة في اللغات السامية والحامية باضافة تاء إلى المذكر (١).

٦ - تتشابه اللغات السامية كذلك في كثير من المفردات، وخاصة المفردات الدالة على أعضاء الجسم، والضمائر، وصلة القرابة، والعدد، وبعض الأفعال، ومرافق الحياة الشائعة في الأمم السامية. وإليك بعض أمثلة من ذلك (٢):

(عربي)	(أشوري-بابلي)	(عبري)	(آرامي)	(جنوب الجزيرة والحبشه)
أب ^١	أبو	أب	أبا	أب
ابن ^٢	بنو	بن	بنرا	بن
أخ ^٣	أخو	أح	إحا	إحو
أخذ	إخوز	أحز	أحد	أخز
أحد ^٤	إدو	إحاد	حد	أحد
أذن ^٥	مزنو	مزن	أودنا	إزن
اثنان	شنا	شسنايم	ترين	سنيت
أربع	أربعو	أربع	أربع	أربع
أم ^٦	أمو	إم	إما	أم
أنا	أناكو	أنو هي «أني»	إنا «إن»	أنا
بشر ^٧	بورو	بور	برا	بش
برق	برقو	باراق	برقا	مبرق
بعل ^٨	بلو	بعل	بعلا	بعل
تسع ^٩	تشو	تشع	تشع	تشع
ثلاث	شلاشو	شلوش	ثلاث	شلاس
ثمان	شمانو	شمو نه	ثمانا	سماني
ثور	شورو	شور	تورا	سور
جمل	جملو	جمل	جمللا	جمل

(١) انظر الفرق بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوروبية بصدد هذه الخاصة في الفقرة الخامسة من الفصل الثالث من كتابنا «علم اللغة».

(٢) ذيل الدكتور لإسرائيل ولغسن كتابه «تاريخ اللغات السامية» بمعجم لبعض الكلمات المشتركة في اللغات السامية، ذكر فيه أكثر من مائة كلمة. وقد نقلنا عنه هذه الأمثلة.

(عربي)	(أشوري-بابل)	(عبري)	(آرامي)	(جنوب الجزيرة والحبشه)
حفر	حفر	حفر	حَفَر	حفر
رأس	رَشُو	رِوش	رِيشا	راس
عين	إِنُو	عَيْن	عَيْنَا	عين
يد	إِدُو	يَد	يَدَا	أذ

٨ - وجوه الخلاف بين اللغات السامية :

ومع قوة القرابة بين أفراد هذه الفصيلة ، فإن بينها كثيراً من وجوه الخلاف في القواعد والأصوات والمفردات .

فمن وجوه الاختلاف في القواعد أداة التعريف . فهي في العربية أل في أول الكلمة وفي العبرية ، وفي بعض اللهجات العربية البائدة حرف هـ في أول الكلمة ، وكانت في السبئية حرف نون في آخر الكلمة ، وفي السريانية حرف « آ » في نهاية الكلمة . أما الآشورية - البابلية والحبشية فلا أداة للتعريف فيهما مطلقاً . ومن ذلك أيضاً علامة الجمع : فهي في العبرية حرف ف « يَم » للمذكر والواو والتاء للمؤنث ، وفي الآرامية حرفا « ين » ، في حين أنه في العربية يستخدم للدلالة على جمع المذكر الواو والنون في الرفع والياء والنون في النصب والجر في آخر الكلمة والدلالة على جمع المؤنث الألف والتاء في آخر الكلمة ، وللدلالة عليهما معاً صيغ جمع التكسير .

ومن وجوه الاختلاف بين الأصوات أن الأصوات العربية : ذغ ظ ض لا وجود لها في العبرية ، والصوتين العبريين « پ » P و « ف » V لا وجود لهما في العربية ، ولا وجود للعين والقاف والسين في البابلية ، وأغلب ما يأتي في العبرية بالسين يأتي في العربية والحبشية بالشين والعكس بالعكس .

أما الاختلاف في المفردات فيبدو حتى في بعض الأسماء التي كانت مدلولاتها شائعة عند جميع الشعوب السامية (صبي ، شيخ ، جبل ، خيمة ...) .

٩ - صلة اللغات السامية باللغات الحامية :

تنظم اللغات الحامية ثلاث طوائف : اللغات المصرية (المصرية القديمة والقبطية) ؛ واللغات البربرية (اللغات القديمة لسكان شمال أفريقيا : طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها) ؛ واللغات الكوشية (لغات السكان الأصليين للقسم الشرقي من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر ، ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية وما عدا المناطق السودانية الناطقة بلهجات سامية أو سودانية ، فيدخل تحت اسم الكوشية اللغات الصومالية ولغات

الجالا والبджа ودنقلة والأجاو والأفار أو الساهو والسيداما ... الخ). ولا يوجد بين هذه الطوائف الثلاث من وجوه الشبه أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها ومجموعة اللغات السامية. فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق في شيء مع حقائق الأمور. أما وجوه الشبه بينها وبين اللغات السامية فيظهر في نواحي كثيرة من أهمها ما يلي :

١ — تشبه اللغة المصرية القديمة اللغات السامية في الضمائر (التاء للمخاطب المفرد والنون لجمع المتكلمين ... الخ) وأسماء العدد وكثير من أسماء الذوات وخاصة الأسماء المؤلفة من صوتين (يهم ، فم ، ماء ...) وفي كثير من قواعد الصرف والتنظيم (ومن ذلك تأنيث الاسم والصفة بالتاء ، وتكوين المضارع بوضع الضمير في أول الفعل) ؛ وتشترك معها كذلك في أن أهمية الأصوات الساكنة تزيد كثيراً على أهمية أصوات اللين في دلالة مفرداتها ونطقها .

ولذلك ذهب كثير من العلماء إلى اعتبار اللغة المصرية واللغات السامية مجموعتين من فصيلة واحدة ، وقد سرنّا على هذا الرأي في الطبعة الأولى من كتاب « علم اللغة » (١) . وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فاعتبر المصرية القديمة لغة سامية . ومن هؤلاء العلامة إرمان Erman الذي يعد حجة في الدراسات المصرية القديمة . فقد رأى أن اللغة المصرية القديمة التي وصلتنا هي لغة الغزاة من الساميين الذين أخضعوا السكان الأصليين وتغلبت لغتهم على لغاتهم . غير أن تأثر لغتهم بهذه اللغات في أثناء صراعها معها ، والازدهار السريع للحضارة المصرية ، وما أحاط بالمصريين من ظروف خاصة تختلف عن ظروف بقية الساميين في النواحي المادية والجغرافية والاجتماعية ... كل ذلك وما إليه قد عمل على توسيع مسافة الخلف بين المصرية القديمة من جهة وبقية اللغات السامية من جهة أخرى . ومثل هذه العوامل قد أحاطت باللغة الانجليزية (الاحتلال الروماني واحتلال النورماندين لبلاد الانجليز) فأبعدتها كثيراً عن أخواتها الجرمانية ، ولكن هذا لم يحل دون عدها من شعبة اللغات الجرمانية ، بل إن مثل هذه العوامل قد أحاط ببعض اللغات التي أجمع العلماء على ساميتها ، كاللغة الامهرية بالحبيشة ، فأبعدتها كثيراً عن فصيلتها .

٢ — وقد ظهر للباحثين وجوه شبه كثيرة بين اللغات السامية من جهة وكل من مجموعتي اللغات البربرية والكوشية من جهة أخرى ، وخاصة في النواحي المتعلقة

(١) أنظر الفقرة الثالثة من الفصل الثالث من كتابنا « علم اللغة » (الطبعة الأولى) .

بالصرف والاشتقاق . غير أن وجوه شبههما باللغات السامية أقل كثيراً من وجوه شبه بين السامية والمصرية القديمة . — وقد اختلف العلماء في تعليل ذلك :

فبعضهم يرى أن اللغات السامية والمصرية والبربرية والكوشية هي أربع مجموعات لفصيلة واحدة ، غير أن انفصال البربرية والكوشية عن السامية قد حدث قبل انفصال المصرية عن السامية بزمن طويل ، ولذلك كانت مسافة بعدهما عن السامية أكبر من مسافة بعد المصرية عنها . وقد سرننا على هذا الرأي في الطبعة الأولى من كتابنا « علم اللغة » .

ويذهب بعضهم إلى أن الكوشية والبربرية لا تربطهما صلة قرابة بالسامية وأن اتفاق هذه اللغات في بعض المفردات والقواعد يرجع إلى تأثيرها بعضها ببعض واقتباس بعضها من بعض .

ويرى الأستاذ بروكلمان أنه لا يمكن القطع بقرابة أو عدم قرابة بين السامية من جهة والكوشية والبربرية من جهة أخرى ، وذلك لأن اللغتين الأخيرتين لم تصلانا إلا في أشكالهما الحديثة المستخدمة الآن بين بعض العشائر في المغرب والسودان والحبشة والصومال ... وما إلى ذلك ، ولم يعثر على آثار مدونة بهما تدلنا على حالتها القديمة ، ويظهر أنه لم تتكون منهما مطلقاً لغة أدب أو كتابة ، هذا إلى أن العلماء لم يصلوا بعد بصدد دراسة قواعدهما وتاريخهما إلى نتائج يقينية يطمأن إليهما . فالأدنى إلى القصد أن يرجأ موضوع الموازنة بينهما وبين اللغات السامية إلى أن تتم دراستهما وتتكون فكرة واضحة عن كليتهما .

*
**

وخلاصة ذلك أنه يغلب على الظن قرابة اللغة المصرية من اللغات السامية ، أما صلة الكوشية والبربرية إحداهما بالأخرى وصلة كل منهما بالمصرية وباللغات السامية فلا يمكن الآن القطع في هذا كله برأى (١) .

*
**

هذا ، وسنلقى فيما يلي نظرة على كل لغة من اللغات السامية ، مفصلين بعض التفصيل في اللغة العربية ، ومجملين القول فيما عداها .

(١) أنظر في هذا الموضوع كذلك الفقرة الثالثة من الفصل الثالث من كتابنا « علم اللغة » .

الفصل الأول

اللغات الأكادية أو البابلية - الآشورية

١ - نشأتها وانتشارها: *

أخذ الساميون يتسدفقون إلى العراق في هجرات متوالية منذ عصور سحيقة في القدم . وأقدم هجرة سامية إلى هذه المناطق حدثت حوالى القرن السادس والثلاثين ق . م . وقد اتجهت شطر القسم الجنوبي من بلاد العراق ، حيث منطقة ميزوبوتاميا التى تنحدر من الحوض الأوسط لدجلة والفرات حتى خليج فارس .

وكان يسكن هذه المنطقة ، قبل أن يهاجر إليها الساميون ، شعب يسمى الشعب السومرى ، وهو شعب مجهول الأصل ، ولكن من المقطوع به أنه غير سامى ولا آرى . وقد كان له بهذه البلاد حضارة زاهرة ، ولغة راقية ذات آداب (١) ، وأسلوب خاص فى الرسم اشتهر عند العرب باسم الخط المسامرى ، وعند الفرنجة باسم الرسم ذى الزوايا *Ecriture cunéiforme* (du latin "cuneus", coin, et de forme) وعند العبريين باسم رسم الأوتاد (٢) .

وقد تغلب المهاجرون من الساميين على هذا الشعب ، وأخضعوه لسلطانهم ، وأقاموا على أنقاض مملكته مملكة سامية كان لها شأن كبير فى التاريخ . وكانت قواعد مملكتهم هذه فى مبدأ نشأتها فى القسم الأعلى (الشمالى) من هذه المنطقة ، حيث بلاد « أكاد » Akkad كما كان يسميها السومريون ، أو إقليم « كدة » كما كان يسميه الساميون . ثم انتقلت الى القسم الأدنى (الجنوبى) حيث المنطقة التى كان يسميها السومريون بمنطقة سومر Sumer . ثم عادت ثانية إلى القسم (الشمالى) حيث مدينة « بابلونيا » التى اتخذت منذ ذلك العهد عاصمة لهذه المملكة السامية ، وكان لها شأن كبير فى التاريخ القديم . ولأهمية مدينة بابلونيا نسب إليها هؤلاء الساميون ، فاشتهروا باسم البابليين ، ونسبت إليها مملكتهم ، فاشتهرت باسم مملكة بابل .

(١) أنظر كلمة عن هذه اللغة بالفقرة الرابعة من الفصل الثالث من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) سمي بهذا الاسم لأن أجزاءه تشبه المسامير والأوتاد .

وتلت هذه الهجرة هجرات سامية أخرى من أهمها هجرة حدثت حوالى القرن الخامس والعشرين ق. م ، واتجهت شطر القسم الشمالى من بلاد العراق ، حيث الحوض الأعلى لنهر دجلة . وكان يسكن هذه المنطقة كذلك قبل هجرة الساميين إليها شعوب غير سامية ، أخضعها الساميون لسلطانهم ، وأنشئوا على أنقاض دولتهم وحضارتهم دولة وحضارة ساميتين كان لهما شأن كبير فى التاريخ القديم . وقد اتخذ هؤلاء الساميون فى المبدأ مدينة آشور Assur قاعدة لمملكتهم هذه ، ثم استبدلوا بها فيما بعد مدينة نينوى ، واشتهر هؤلاء الساميون فى التاريخ باسم الآشوريين واشتهرت مملكتهم باسم مملكة آشور .

وقد اشتبكت لغات الساميين فى الجنوب والشمال مع لغات السكان الأصليين فى صراع عنيف انتهى بانتصار اللغات السامية ، وفقاً لقوانين الصراع اللغوى التى تكلمنا عنها بتفصيل فى كتاب « علم اللغة »^(١) فأصبح جميع السكان يتكلمون السنة سامية ، سواء فى ذلك السكان الأصليون والغزاة الساميون .

وعلى هذه الألسنة يطلق المحدثون من علماء اللغة اسم « اللغات الأكادية » نسبة إلى منطقة أكاد السابق ذكرها^(٢) ، أو « اللغات البابلية — الآشورية » نسبة إلى منطقتى بابل وآشور . ويفضل كثير منهم التسمية الأخيرة ، مع أنها مركبة من كلمتين ، لاستيعابها جميع المناطق التى انتشرت فيها هذه اللهجات . ولأن التسمية الأولى ، مع سهولتها وعدم تركيبها ، توقع فى شئ من اللبس . ومنشأ ذلك أن كلمة ، « الأكادية » كان يطلقها بعض القدامى على لغة « السومريين » وهم السكان الأصليون للقسم الجنوبى . ويحاذى بعض العلماء اللبس الذى توحى به كلمة « الأكادية » والصعوبة التى تؤدى إليها كلمتا « البابلية — الآشورية » ويأجأ فى تسميته إلى طريقة الاختصار وتغليب بعض المناطق على بعض ، فيطلق على هذه المجموعة اسم « البابلية » فقط لأن بابل كانت أقدم منطقة لهذه الألسنة ، أو اسم « الآشورية » فقط لأن أول ما كشف من الآثار المدونة بهذه اللهجات كان فى منطقة آشور . ولكن معظم المحدثين من علماء اللغة لا يطلقون كلمة « البابلية » وحدها إلا على الشعبة الجنوبية من هذه اللهجات ، أو على المجموعة كلها فى العصر الذى كانت السيادة فيه لمناطق الجنوب ، ولا يطلقون كلمة « الآشورية » وحدها إلا على الشعبة الشمالية من هذه اللهجات ، أو على المجموعة كلها فى العصر الذى كانت السيادة فيه لمناطق الشمال .

(١) أنظر الفصل الرابع من كتابنا « علم اللغة » وخاصة الفقرة الثانية .

(٢) أول من استخدم هذه التسمية هو العلامة أوبير Oppert .

هذا ، ولم يقتصر استخدام هذه اللغات على مملكتي بابل وآشور ، بل امتد نفوذها في العصور الذهبية لهاتين المملكتين إلى كثير من الممالك المجاورة لهما . فقد عثر في تل العمارنة (عاصمة مصر في عهد أخناتون) على رسائل مدونة باللغة الأكادية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر ق . م (١٤١١ - ١٣٥٨ ق . م) . وتشتمل هذه الرسائل على مخابرات دارت بين ملوك مصر في ذلك العهد (امنوفيس الثالث وامنوفيس الرابع وخناتون) وبعض الأمراء الشرقيين وبخاصة الأمراء الكنعانيون ^(١) . وعثر كذلك في آسيا الصغرى على آثار مدونة باللغة الأكادية ، وهذا يدل على أنها كانت مستخدمة في صورة ما في هذه المناطق .

٢ - خصائصها ومدى تأثيرها بلغات السكان الأصليين :

قضت هذه الألسنة السامية في صراعها مع لغات السكان الأصليين أمداً طويلاً ، وقد تم تغلبها عليها في صورة تدريجية بطيئة . وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهاد غنيف لا يخرج المنتصر من معاركه على نفس الحالة التي كان عليها من قبل . فاللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع ، بل إن طول احتكاكها

٥٠ مقريسا

(١) عدد هذه الوثائق أربعمائة وثيقة يوجد من أصولها المنقوشة بالخط المساري على لوحات من الصلصال ١٩٤ وثيقة في متحف برلين و ٨٢ في المتحف البريطاني و ٥٠ في متحف القاهرة ، وبقية الوثائق مبعثرة في متاحف خاصة وعامة في حواضر مختلفة ، ومن بينها وثيقتان في نيويورك . وأول العهد بكشف هذه الوثائق كان سنة ١٨٨٧ ، إذ كانت فلاحه مصرية من سكان قرية قرب هذا التل تجمع سماداً فعثرت على قطع منها .

ولهذه الوثائق فضلاً عن أهميتها اللغوية أهمية تاريخية ذات بال . وذلك أنها تلقي بعض الضوء على أخبار بني إسرائيل ورحلتهم لأرض كنعان ، وتحديد التواريخ لبعض الأخبار التي تضمنها العهد القديم ، وتقفنا على ظرف من المنازعات التي كانت بين بابل وآشور ، ومبلغ نفوذ هاتين المملكتين ، وتدخل مصر أحياناً فيما كان ينشب بينهما من نزاع ، وما كان لمصر في ذلك العهد من نفوذ وسيادة في كثير من الممالك وخاصة في آسيا الغربية .

* ولهذه الوثائق كذلك أهمية اجتماعية . فهي تتضمن أوصافاً دقيقة لبعض المراسيم الدينية وتقاليد الزواج وعادات الملوك في تبادل الهدايا ... وهلم جرا .

وبعض هذه الرسائل متبادل بين ملوك مصر وأمراء بابل وآشور ؛ وكثير منها متبادل بينهم وبين أمراء الكنعانيين بسوريا وفلسطين . وأكثر هذه الرسائل مبعوث به إلى ملوك مصر ، وأقلها مبعوث به من مصر . أنظر ترجمة الدكتور مرسيه لهذه الوثائق تحت عنوان « بريد الفراعنة » (في مجلدين) وانظر كذلك ما كتبه عنها مستر ألبرت فيلد جليمور في عدد ١١/٢١/٤٠ من جريدة الاجيشان جازيت ، وانظر تلخيصاً لهذا المقال في كلمة للاستاذ عبد اللطيف النشار في عدد ٢٣/١٢/١٩٤٠ من مجلة الرسالة .

باللغات المغلوبة يترك بها أثراً كبيراً من هذه اللغات (١) « وهذا هو ما حدث لهذه الألسنة السامية . فقد تأثرت تأثراً كبيراً بلغات السكان الأصليين ، وعلى الأخص باللغة السومرية . وظهر هذا التأثير بصورة واضحة في المفردات . فقد اقتبس الساميون عن السومريين طائفة كبيرة من مفردات لغتهم ، وخاصة الألفاظ الدالة على أمور تمتاز بها الحضارة السومرية وكان يجهلها الساميون في بيئاتهم الأولى . هذا إلى أن الألفاظ الأصلية للسان السامي قد نالها كثير من التحريف في ألسنة المحدثين من الناطقين بها . وهم السكان الأصليون لهذه البلاد . فأنحرفت أصواتها عن مواضعها وتشكلت بالصورة التي تتفق مع التكوين الطبيعي لأعضاء صوتهم وعاداتهم اللفظية وأساليبهم في النطق . ومن أجل ذلك استبدلت بعض الأصوات السامية القديمة بأصوات أخرى ، وتغيرت مخارج بعضها وانحرف النطق بها ، وسقط بعضها في مواطن خاصة أو في جميع المواطن . ومن ذلك مثلاً الياء والواو الواقعتان في أول الكلمة ، فقد سقطتا في اللغات الأكادية في جميع المفردات (٢) .

وقد كان لانعزال اللغات الأكادية عن أخواتها السامية وتطرفها في الشرق ، وما أحاط بها من شؤون اجتماعية خاصة ، وطبيعة المنطقة التي انتشرت فيها ، وما أتيح لها من اجتماع بلغات السكان الأصليين ، وما ورثته عنهم من حضارة وثقافة ، كان لهذا كله وما إليه أثر كبير في تمييزها عن بقية اللغات السامية بكثير من المميزات . وتبدو هذه المميزات في جميع مظاهرها حتى في مظهر القواعد نفسها . فمن ذلك مثلاً أن للفعل فيها ثلاثة أزمنة أصيلة : زمنان يشار إليهما بأصوات تلحق أول الفعل وهما الزمن الماضي التام (« يغزودو » ikšudu مثلاً بمعنى انتهوا من الغزو) ، والزمن المضارع للاستقبال (« يغازادو » ikasadu مثلاً بمعنى يغزون أو سيغزون) ، وزمن ثالث يشار إليه بملحق في آخر الفعل وهو الزمن المعبر عن الاستمرار (« غازادو » kasadu مثلاً بمعنى كانوا يغزون أو هم في حالة الغزو أو سيأخذون في الغزو في صورة ممتدة) (٣) . على حين أن اللغات السامية الأخرى ليس للفعل فيها إلا زمنان أصيلان : فعل انتهى زمنه وفعل لم ينته بعد (٤) .

(١) انظر تفصيل هذا القانون وآثاره وأمثله في الفقرة الثانية من الفصل الرابع من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) V. Brockelmanni, op cit p. 16

(٣) V. Langues du Monde p. 92

(٤) يوجد في بعضها زمن ثالث غير أصيل ، لأنه يتألف بإضافة فعل مساعد إلى الفعل الذي يراد التعبير عنه كما هو الحال في الفينية والعربية (كان يضرب ...) .

٣ - رسم اللغات الأكادية

أخذ الساميون عن السومريين الخط المسماري واستخدموه في تدوين لغاتهم الأكادية. وكان هذا الرسم في أقدم مراحل رسمه معنوياً بحتاً *idéographique* (١) أى تشير رموزه إلى معانى لا إلى أصوات. فكان يرمز فيه مثلاً بصورة النجم إلى الكلمة الدالة على السماء (وهى «أنا» *ana* فى السومرية) أو الكلمة الدالة على الإله (وهى «دينجير» *dinjir* فى السومرية). ثم دخلت فيه طريقة الرسم الصوتى المقطعى *syllabique*، فأصبحت بعض علاماته ترمز أحياناً لمقاطع صوتية مجردة من الدلالة يتألف كل مقطع منها من صوتين أو أكثر. فصورة النجم مثلاً كانت ترمز أحياناً فى هذه المرحلة إلى مقطع «أن» *an*.

وقد استخدم الساميون رموزه المعنوية نفسها، وأطلقوها على نفس المعانى التى كانت ترمز إليها فى السومرية؛ ولكنهم كانوا يقرءونها بمفردات لغتهم. فصورة النجم مثلاً كانت ترمز عندهم إلى نفس المعنيين اللذين كانت ترمز إليهما فى السومرية، وهما السماء والإله؛ ولكنهم كانوا يقرءونها «سمو» *samu* (ومعناها سماء فى لغتهم) أو «إلو» *ilu* (ومعناها إله فى لغتهم).

واستخدم الساميون كذلك الرموز المقطعية لهذا الرسم؛ ولكنهم لم يبقوها جميعاً على ما كانت عليه؛ بل أدخلوا على دلالة بعضها تعديلات مستمدة من مفردات لغتهم. فصورة النجم مثلاً كانت ترمز لديهم أحياناً إلى نفس المقطع الذى كانت ترمز إليه فى السومرية وهو مقطع «أن»، على حين أن صورة اليد مثلاً، التى كانت ترمز فى السومرية إلى مقطع «سو» وهو أول مقطع من الكلمة التى تدل على يد فى السومرية، استخدمها الساميون للرمز إلى مقطع «كت» *kat* وهو أول مقطع من كلمة «كتو» *qatu* التى تدل على معنى يد بالأكادية (٢).

* والخط المسمارى الأكادى كان متفرق الحروف، وكان يقرأ غالباً مستعرضاً من الشمال إلى اليمين، وقديماً كان يقرأ عمودياً من أعلى إلى أسفل (٣).

(١) انظر تفصيل الكلام فى الرسم وأنواعه وتاريخه فى الفقرة الرابعة رقم ١ من الفصل السادس من كتابنا «علم اللغة».

(٢) وأحياناً كانوا يستخدمونها رمزا معنوياً فكانت تقرأ «كتو» *qatu* أى يد.

(٣) انظر فى موضوع الرسم المسمارى - الأكادى، ما كتبه عنه الأستاذ مرسل كوهين فى كتاب

٤ - اللهجات الأكادية :

هذا ، والآثار التي وصلتنا مدونة بهذا الرسم لا تظهر فيها وجوه خلاف ذات بال بين اللهجات الأكادية . فالآثار البابلية مثلاً (المنطقة الجنوبية) لا تكاد لغتها تختلف في شيء عن الآثار الآشورية (المنطقة الشمالية) . غير أن الذي وصلنا عن طريق هذه الآثار هو اللغة الأدبية أو لغة الكتابة ، وليس غريباً أن تتحد لغة الكتابة في مناطق تضمها مملكة واحدة ، وترجع لهجاتها إلى أصل واحد قريب ، وإنما الغريب أن تختلف فيها . بل قد تتحد لغة الكتابة في ممالك متعددة إذا كانت لهجاتها منشعبة عن لغة واحدة كما هو شأن لغة الكتابة بمصر والمغرب والعراق والشام واليمن والحجاز . . .

أما لهجات المحادثة في هذه المناطق فلم تصلنا عنها إلا آثار ضئيلة وردت في ثنانيا بعض النقوش . وهذه الآثار لا تدلنا بصدد اختلاف اللهجات في هذه البلاد على شيء يعتد به . ولكن تدلنا القوانين التي تخضع لها اللغات في حياتها وتطورها أنه متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة وتكلم بها جماعات متعددة وطوائف مختلفة من الناس ، فإنه يستحيل عليها الاحتفاظ بوحدها الأولى أمداً طويلاً . بل لا تلبث ، تحت تأثير ما يوجد بين مناطقها من خلاف في الخواص الطبيعية والجغرافية ، وما يوجد بين الجماعات الناطقة بها من خلاف في شئونهم السياسية والاجتماعية ، وفي خواصهم الجسمية والنفسية وفي درجة ثقافتهم وما يحيط بهم من ظروف . . . لا تلبث تحت تأثير هذا كله وما إليه أن تنشعب إلى لهجات مختلفة تسلك كل منها في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها (١) . ولما كانت اللغة الأكادية قد انتشرت في مساحة واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف متعددة من الناس وعاشت أمداً طويلاً ، فلا بد إذن أن تكون قد خضعت لهذا القانون ، وأن يكون قد أصابها ما أصاب غيرها في مثل هذه الظروف ، أي لا بد أن تكون قد انشعبت إلى لهجات محادثة يختلف بعضها عن بعض وتختلف في مجموعها عن لغة الكتابة التي وصلت إلينا . ولما كان وجوه الخلاف الجغرافية والاجتماعية السابق ذكرها أوضح ما يكون بين المناطق الشمالية (آشور) والمناطق الجنوبية (بابل) وبين سكان هذه وسكان تلك ، فلا بد إذن أن لهجات الشمال كانت تختلف في مجموعها اختلافاً غير يسير عن لهجات الجنوب .

(١) انظر تفصيل هذا القانون وآثاره وأمثله في الفصل الخامس من كتابنا « علم اللغة » .

٥ - مراحل اللغات الأكادية :

ولا بد كذلك ، وفقاً للقانون السابق ذكره أن تكون اللغة الأكادية ، قد اختلفت باختلاف العصور متأثرة في اختلافها هذا بعوامل كثيرة من أهمها الشؤون السياسية وتنازع السلطان بين بابل وآشور . ويمكن تقسيمها من هذه الناحية إلى المراحل الآتية :

١ - العصر السابق للقرن العشرين ق . م . وفي هذا العصر كانت السيطرة السياسية لمملكة بابل . وقد وصلت إلينا اللغة في هذا الدور عن طريق نقوش على التماثيل وبعض كتب ورسائل محفورة على الخزف .

٢ - العصر الممتد من القرن العشرين إلى أواخر السابع أو أوائل السادس ق . م . وفي هذا العصر انتاب بابل عوامل الضعف والهرم ، فطمع فيها كثير من الأمم ، وسقطت أكثر من مرة في أيدي المغيرين من الأجانب ، ثم انتهى بها الأمر إلى الخضوع لمملكة آشور التي كانت قد بلغت في هذا الدور أقصى ما أتيح لها أن تبلغه من قوة ومنعة . وعاشت هذه الإمبراطورية الآشورية حتى سنة ٦٠٦ ق . م ، ثم دالت دولتها ، وكان هذا نهاية العهد بها في التاريخ القديم . — وقد وصلت إلينا اللغة في هذا الدور عن طريق آثار كثيرة عثر عليها في المناطق الآشورية .

٣ - العصر الممتد من أواخر القرن السابع إلى أواخر القرن السادس ق . م . وفي هذا الدور بعثت الإمبراطورية البابلية مرة أخرى ، وكان ذلك سنة ٦٢٦ ق . م ، ولكنها لم تعمر طويلاً هذه المرة ، فقد سقطت في قبضة الفرس سنة ٥٣٩ ق . م . وتسمى هذه الدولة بالدولة البابلية الجديدة . وقد وصلت إلينا اللغة في هذه المرحلة عن طريق آثار كثيرة تبدو فيها دلائل التطور اللغوي . ولذلك جرت عادة الباحثين بتسمية اللغة في هذا الدور البابلية الحديثة Néo-babylonien .

٤ - العصر الممتد من أواخر السادس حتى أوائل الرابع ق . م أو أواخره . وفي هذه المرحلة أخذت غارات القبائل الآرامية على العراق تشتد وطأتها وتستفحل آثارها وأخذت اللغة الآرامية تقتحم على الأكادية معاقها وتنزعها معقلاً معقلاً ، فلم ينتصف القرن الرابع ق . م حتى كانت الآرامية قد طغت على جميع الألسنة في هذه المناطق ، وكانت الأكادية من عداد اللغات الميتة في المحادثة . ولكنها بقيت بعد ذلك عدة قرون مستخدمة في بعض الأوساط لغة كتابة وأدب ودين . وتدلنا بعض الآثار على أنها قد ظلت مستخدمة في هذه الشؤون حتى قبيل الميلاد المسيحي .

الفصل الثاني

اللغات الكنعانية

(١) الشعوب الكنعانية

نزلت الشعوب الكنعانية على الراجح من القسم الجنوبي الغربي من بلاد العرب ، كما سبقنا الإشارة إلى ذلك ^(١) . وقد استقرت ببلاد فلسطين وسوريا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأت بهذه المناطق ، قبل أن ينزح إليها الآراميون بأكثر من ألف سنة ، حضارات زاهرة وممالك قوية كان لها شأن كبير في التاريخ القديم . وامتد نفوذ هذه الممالك في عصورها الذهبية إلى كثير من الأمم المجاورة ، وامتد استعمارها إلى سواحل أوروبا الجنوبية وشمال أفريقيا . وكان لها بشمال أفريقيا مستعمرة قوية نازعت روما سلطانها حيناً من الدهر ، ونشبت بينهما حروب استغرقت نحو مائة وعشرين عاماً (٢٦٤ - ١٤٦ ق م) : تلك هي مدينة قرطاجنة . وأشهر الشعوب الكنعانية شعبان : الشعب الفينيقي والشعب العبري .

(٢) اختراع الكنعانيين الرسم السامي

الراجح عند الباحثين أن الرسم السامي قد ظهر لأول مرة في بلاد الكنعانيين . ويمتاز هذا الرسم عن جميع أنواع الرسم المتداولة قبل ذلك بأنه رسم هجائي بحت alphabétique أى يرمز كل حرف فيه إلى صوت مفرد .

حقاً أن الهيروغليفي عند قدماء المصريين والمسماري عند الأكاديين كانا يرمزان أحياناً إلى الأصوات ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ^(٢) ، وكما تكلمنا عنه بتفصيل في كتاب « علم اللغة » ^(٣) . ولكن هذا الأسلوب كان ممزوجاً في هذين الخطين بأسلوب الرسم المعنوي idéographique ، فكان كثير من رموزهما ، بل معظم رموزهما ، تشير إلى معاني لا إلى أصوات . على أن رموزهما الصوتية نفسها لم تكن رموزاً هجائية ترمز إلى أصوات مفردة كما هو شأن الرسم السامي ، بل كانت رموزاً

(٢) انظر صفحة ٢٤ .

(١) انظر صفحتي ٩٠٨ .

(٣) انظر الفقرة الرابعة رقم ١ من الفصل السادس من كتابنا « علم اللغة » .

مقطعية يرمز كل منها إلى صوتين فأكثر . ولا يستثنى من ذلك إلا بعض علامات في الهيروغليفي كانت ترمز إلى أصوات مفردة (صورة الشفتين مثلاً ، فقد كانت ترمز أحياناً في هذا الخط إلى صوت الراء المجردة ، كما يرمز لذلك حرف الراء في العربية^(١)) . ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من اخترع الرسم السامي واستخدمه . وقد اضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجاري وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف الشعوب . فقد كانت هذه الشؤون تقتضيهم في جميع أعمالهم السرعة في الحركة والاقتصاد في المجهود وتحري وجوه الدقة . والأسلوب الهجائي هو أسرع الأساليب وأدناها إلى الكمال . وليس من شك في أنهم قد حاكوا في أسلوبهم هذا بعض ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفي من صور هجائية . بل أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا الخط ثلاثة عشر حرفاً من حروفهم البالغة اثنين وعشرين حرفاً .

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية في معظم أنحاء العالم القديم ، واستخدمها كثير من شعوبه . ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التي استخدمت فيما بعد في مختلف اللغات الإنسانية .

فمن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة ، ومن هذه الحروف اشتق الرسم العبرى الحديث الذى اشتهرت تسميته بالعبرى المربع hébreu carré وهو الذى استخدم بعد رجوع بنى إسرائيل من نفى بابل ، وظل مستخدماً إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال .

ومن الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريباً الشبه بالرسم العبرى الحديث (العبرى المربع) : أحدهما الرسم التدمرى^(٢) أو البالميرينى Palmyrenien^(٣) ، والآخر الخط النبطى Nabatéen . ومن التدمرى اشتقت الحروف السريانية التي أخذت منها الخطوط المغولية والمنشورية . ومن الخطين النبطى والسريانى اشتقت حروف الهجاء العربية .

(١) يشتمل الرسم الهيروغليفي على ٢٤ رمزاً من هذا النوع ، ترمز إلى جميع ما تشتمل عليه لغتهم من أصوات ساكنة (غير لينة) . فقد كان في استطاعتهم إذن أن يتركوا أسلوب الرسم المعنوى وينشئوا رسماً هجائياً بحثاً يعتمد على هذه الرموز الأربع والعشرين ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

(٢) نسبة إلى تدمر وهي مملكة قديمة كانت تشمل جزءاً كبيراً من سوريا الحالية ومعنى تدمر في العبرية بلاد النخيل .

(٣) نسبة إلى البالميرين Palmyrène وهو اسم أفرنجى لبلاد تدمر ومعناه هو نفس معنى تدمر في العبرية أى بلاد النخيل .

ومن الرسم الفينيقي اشتق كذلك الرسم الآرامى . بل إن الآرامى فى أقدم أشكاله لا يكاد يختلف عن الرسم الفينيقي . وعن الآرامى أخذت الحروف الهندية — الباكترانية Indo-bacteriens ^(١) التى كانت مستخدمة فى شمال الهند ، ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن فى مختلف لغات الهند وسيام وكامبوجو وماليزيا .

ومن الرسم الفينيقي اشتق كذلك الرسم السبئى أو الينى أو خط المسند ، ومن هذا الخط اشتقت جميع الخطوط الحبشية السامية .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الإغريقى ^(٢) ، ومن الرسم الإغريقى أخذت الحروف اللاتينية ، ومن الرسمين الإغريقى واللاتينى تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة فى مختلف اللغات الأوروبية فى العصر الحاضر ^(٣) .

هذا ، ولا نعلم على وجه اليقين متى نشأ الخط السامى . وقد ظل العلماء حتى نهاية القرن التاسع عشر يعتقدون أن هذا الخط لم ينتشر قبل القرن العاشر ق . م وذلك لأن أقدم ما عثر عليه حتى نهاية القرن التاسع عشر من النقوش المدونة بالخط السامى هو نقش الملك ميسع Mésa ملك المؤابيين ^(٤) الذى سجل فيه حروبه وانتصاراته على ملك إسرائيل . وتاريخ هذا النقش لا يكاد يتجاوز سنة ٩٠٠ ق . م ^(٥) . وقد زادهم تمسكا بهذا رأى أن رسائل العمارنة السابق ذكرها ^(٦) والتى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق . م مدونة بالرسم المسمارى الأكادى لا بالرسم السامى مع أن بعضها كان صادراً من بلاد كنعان التى هى مهد الخط السامى : فكان هذا فى نظرهم أقطع دليل على أن الرسم السامى لم يكن قد ظهر فى هذا العهد ، أو على الأقل لم يكن قد انتشر استعماله بعد .

ولكن فى بداءة القرن العشرين عثر المنقبون فى شبه جزيرة سينا على آثار مدونة

(١) نسبة إلى باكتران Bactriane وهى منطقة قديمة كان يسكنها الإيرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وفارس .

(٢) أدخل الأغريق على الرسم السامى القديم إصلاحات كثيرة ، من أهمها زيادة حروف ترمز إلى جميع أصوات المد (لأن الرسم السامى القديم كان مجرداً من هذه الحروف كما سيأتى بيان ذلك) .

(٣) انظر تفصيل الكلام عن الرسم وتاريخه وما يتصل به بالفقرة الرابعة رقم ١ من الفصل السادس من كتابنا « علم اللغة » .

(٤) تقع بلاد مؤاب فى الجنوب الشرقى من البحر الميت .

(٥) عثر على هذا النقش سنة ١٨٦٨ وهو الآن بمتحف اللوفر بباريس .

(٦) انظر صفحة ٢٢ ، ، وتعليقها .

برسم هجائي بحث قريب من الرسم الفينيقي يرجع تاريخها إلى المرحلة المحصورة بين أوائل القرن العشرين وأواخر القرن الخامس عشر ق. م^(١). وفي سنة ١٩٢٣ كشف العالم الأثري بيير مونتيه P. Montet عن لوحة منقوشة برسم هجائي سامي بحث يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر ق. م ، وتتعلق بقبر أحيرام Ahiram ملك جُبَيْل (من أشهر مدن الفينيقيين وهي ما يسميها الفرنجة ببيلوس)^(٢). ومنذ هذه الكشف عدل العلماء عن رأيهم القديم بهذا الصدد ، وأصبح من المقرر أن الرسم السامي كان منتشر الاستعمال قبل القرن العاشر ق. م ببضعة قرون.

ولا يرمز الرسم السامي القديم إلا للأصوات الساكنة (المقابلة لأصوات المد). وهذا هو أظهر وجه من وجوه نقصه. ولكنه ليس نقصاً ذا بال في كثير من اللغات السامية. وذلك أن أهمية الأصوات الساكنة في الدلالة تزيد كثيراً في هذه اللغات على أهمية أصوات المد ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك^(٣). فرسم الأصوات الساكنة في الكلمة يكفي إذن مع مساعدة السياق لإرشاد القارئ إلى النطق الصحيح.

ومع ذلك فقد شعر الساميون أنفسهم بهذا النقص ، وسبب لهم بعض الاضطراب ، وخاصة في قراءة بعضهم للغات بعض أو في قراءة نصوص للغة سامية ممتدة ، أو لأساليب قديمة من لغة حية. ومن أجل ذلك لجأ بعضهم إلى استخدام بعض الحروف الساكنة للإشارة إلى أصوات المد الطويلة (التي يرمز إليها في العربية بالآلف والياء والواو) واخترع بعضهم علامات جديدة للدلالة على ذلك. ثم استخدم في بعض الخطوط السامية أسلوب الشكل للرمز إلى أصوات المد القصيرة (التي يرمز إليها في العربية بالفتحة والكسرة والضمة). وسار الرسم الحبشي بعيداً في هذا السبيل فحرص على الرمز إلى جميع أصوات المد بتغييرات تلحق صورة ما يسبقها من الحروف الساكنة ، كما سيأتي بيان ذلك في الفصل الخامس.

والاتجاه الغالب للرسم السامي هو الاتجاه الأفقي من اليمين إلى الشمال.

(١) V. Langues du Monde 96, 97.

(٢) لم يستخدم في هذا النقش إلا عشرون حرفاً من مجموعة الحروف الفينيقية البالغ عددها ٢٢ حرفاً V. Larousse du 20ème siècle, mots : alphabet, écriture.

(٣) أنظر صفحة ١٥.

(٣) اللغة الكنعانية الأولى وما تفرع منها

لم نقف على اللغة الكنعانية في عهودها القديمة ، أى قبل أن تنشعب إلى الفينيقية والعبرية وما إليهما ، إلا عن طريق أثريين : أحدهما ناقص كل النقص ، وثانيهما مشكوك في مبلغ تمثيله لهذا الدور . أما أولهما فمجموعة كلمات وعبارات كنعانية وردت مدونة بالخط المسماري في ثنايا رسائل تل العمارنة التي سبقت الإشارة إليها (القرن الرابع عشر ق . م ^(١)) . ولقلة هذه الكلمات والعبارات وتشتتها في ثنايا الرسائل السابقة لم نقف منها على شيء يعتد به بصدد اللغة الكنعانية الأولى . ومع هذا فقد كشف العلماء عن وجوه شبه كثيرة بينها وبين اللغة العبرية . وأما ثانيهما فنقش ميشع Mésa ملك مؤاب الذي سبقت الإشارة إليه كذلك ^(٢) . وقد ألفت عبارات هذا النقش بلسان كنعاني خالص ودون برسم سامي بحت . وكشف العلماء كذلك عن وجوه شبه كبيرة بين اللهجة التي دون بها واللغتين الفينيقية والعبرية . ولا يظهر هذا الشبه في أصول المفردات فحسب ، بل يظهر كذلك في الأساليب وقواعد الاشتقاق والتنظيم . غير أن هذا النقش مشكوك في مبلغ تمثيله للغة الكنعانية الأولى . وذلك أن تاريخه يرجع إلى القرن التاسع ق . م ، أى إلى عهد حديث كان فيه اللغتان الفينيقية والعبرية تامتي التكوين . ولذلك يرى كثير من العلماء أنه لا يمثل الأصل الأول الذي انشعبت عنه هاتان اللغتان ، بل يمثل أختالهما أى لهجة متفرعة من نفس الأصل الذي تفرعتا عنه ، وهى اللهجة المؤابية أو لهجة المؤابيين أو أهل مؤاب ^(٣) .

ومهما يكن من شيء في أمر اللغة الكنعانية الأولى ، فإن من المقطوع به أن اللهجات التي انشعبت عنها ومن أهمها الفينيقية والعبرية اللتين سنقف على دراستهما القسم الباقي من هذا الفصل ، تربطها صلة قرابة وثيقة ببقية اللغات السامية . غير أنها إلى اللغات الأكادية والآرامية أقرب رحماً منها إلى المجموعة الجنوبية (العربية واليمنية والحبشية) . ومن أجل ذلك يقسم كثير من المحدثين اللغات السامية إلى شعبتين يجمع بين أفراد كل شعبة منهما من أواصر القرابة اللغوية ووجوه الشبه أكثر مما يجمع بينها وبين أفراد

(١) انظر صفحة ٢٢ وتعليقها .

(٢) انظر ص ٢٩ وتعليقها الرابع والخامس .

(٣) ورد في العهد القديم أن المؤابيين من نسل لوط ابن أخى إبراهيم الخليل ، فهم يرجعون لأذن إلى

نفس الأصل الذى يرجع إليه بنو إسرائيل .

الشعبة الأخرى : إحداهما يسميها الشعبة الشمالية وتشمل الأكادية والكنعانية والآرامية ، والأخرى تسمى الشعبة الجنوبية وتشمل العربية والفينيقية القديمة والحديثة .

(٤) اللغة الفينيقية واللهجة البونية

١ - اللغة الفينيقية الأصلية :

وصلت إلينا اللغة الفينيقية الأصلية عن طريق نقوش قديمة عثر على بعضها في المواطن الأولى للفينيقيين (صور ، صيدا جُبَيْل Byblos ... الخ) ، وعلى بعضها في مستعمراتهم ومواطن نفوذهم وخاصة في جزر البحر الأبيض المتوسط (قبرص Chypre وغيرها) . وأقدم هذه النقوش يرجع تاريخه إلى القرنين التاسع والعاشر ق م ، ولكن معظمها يرجع تاريخه إلى القرن الخامس ق . م والقرون التالية له .

ووجوه الشبه بين اللغة التي دونت بها هذه النقوش واللغة العبرية قوية جداً فيما يتعلق بأصول الكلمات ، أى الأصوات الساكنة التي تتألف منها أصول المفردات ؛ وهذه الأصوات وحدها هي التي وقفنا عليها عن طريق هذه النقوش ؛ لأن الرسم الفينيقي ما كان يرمز في عهده الأولى إلا للأصوات الساكنة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ^(١) .

أما أصواتها اللينة (أصوات المد) فلم نقف عليها إلا عن طريق الرسم اليوناني لبعض الأعلام والكلمات الفينيقية . ومع ضآلة المعلومات التي يقدمها إلينا الرسم اليوناني بهذا الصدد ، فقد استنبط العلماء على ضوءه أن مسافة الخلف بين الفينيقية والعبرية في أصوات المد كانت أوسع كثيراً من مسافة الخلف بينهما في الأصوات الساكنة .

وكذلك الشأن فيما يتعلق بالقواعد ، وخاصة قواعد التنظيم (السنتكس Syntaxe أى قواعد تركيب الجمل ووظائف المفردات ... وما إلى ذلك) ^(٢) . فمع الإيجاز المستخدم في عبارات النقوش التي وصلت إلينا عن هذه اللغة ، فإنه يظهر منها أن الفينيقية تختلف عن العبرية في هذه الناحية اختلافاً غير يسير . فمن ذلك مثلاً أنها تستخدم فعلاً مساعداً قبل الفعل المتحدث عنه لتحديد زمنه وبيان استمراره ، كما هو الشأن في اللغة العربية (كان يضرب ، كنا نضرب ... الخ) ، وهذا الأسلوب لا نظير له في اللغة العبرية .

(١) انظر صفحة ٣٠ .

(٢) انظر في شرح السنتكس الفقرة الأولى من مقدمة كتابنا « علم اللغة » .

٢ — اللهجة البونية :

وبفضل مستعمرات الفينيقيين انتشرت لغتهم في كثير من البلاد الواقعة على سواحل البحر الأبيض وفي كثير من جزره . غير أنه لم تتوطد لها أسباب القوة والبقاء إلا في مستعمرتهم الإفريقية الشهيرة ، ونعني بها مدينة قرطاجنة والبلاد المتاخمة لها . ولتتميز اللهجة القرطاجنية عن اللغة الفينيقية الأصلية اصطلاح العلماء على تسميتها « باللهجة البونية » Punique^(١) .

وقد وصلت إلينا اللهجة البونية عن طريق نقوش عثر عليها في منطقة قرطاجنة يرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الرابع ق . م . ومع كثرة عددها فإن معظمها موزع كل الإيجاز ، وكثير منها مضطرب الحقائق مبهم الدلالة . وطريقة رسمها تختلف بعض الاختلاف عن طريقة الرسم الفينيقي الأصلي . ولكنها تتفق معها في الشكل العام للحروف وفي أنها تقتصر على الرمز إلى الأصوات الساكنة . ولذلك لم نقف عن طريقها إلا على أصول المفردات .

أما أصواتها اللينة (أصوات المد) فلم نقف عليها إلا عن طريق قطعة تمثيلية هزلية ألفها الشاعر الروماني بلوت Plaute في أواخر القرن الثالث ق . م ، تحت عنوان « القرطاجنيين » Poemulus . فقد ورد في هذه القطعة على لسان أحد أبطالها بعض أبيات باللغة القرطاجنية . ولتدوين هذه الأبيات في القصة بحروف لاتينية ، روعى فيها طريقة الرسم اللاتيني التي لا تقتصر على الرمز إلى الأصوات الساكنة في الكلمة بل ترمز كذلك إلى أصواتها اللينة (أصوات المد الطويلة والقصيرة) . وغنى عن البيان أن أبياتاً هذا شأنها وشأن مؤلفها والقطعة التي وردت فيها ومناسبة تأليفها ... لا تمثل النطق القرطاجني إلا في صورة محرفة ناقصة . ولكن يستخلص منها على كل حال أن اللهجة البونية كانت تختلف في بعض مظاهر الصوت عن اللغة الفينيقية الأصلية .

٣ — نهاية اللغة الفينيقية واللهجة البونية :

ويظهر أن الفينيقية بأسيا كانت أطول عمراً من أختها العبرية . ولكن من المقطوع به أنها أخذت تتأثر بالآرامية منذ عهد بعيد قبل الميلاد المسيحي ، كما تدل على ذلك آثارها المتأخرة ، وأنه لم يأت القرن الأول قبل الميلاد حتى كانت الآرامية قد قضت

(١) هذه الكلمة مأخوذة من كلمة لاتينية معناها « فينيقي » . وهكذا كان يسمى الرومان أهل قرطاجنة وجميع ما ينسب إليهم .

عليها كما قضت على أختها العبرية من قبل (أواخر القرن الرابع ق. م^(١)) وكما قضت من قبلهما على الأكادية (أوائل القرن الرابع ق. م^(٢)).

أما اللهجة البونية ، فقد عمرت أمداً طويلاً على الرغم من انعزالها عن مناطق اللغات السامية وشدة الكفاح بينها وبين اللغات السائدة إذ ذاك في شمال أفريقيا ، وهي اللهجات البربرية (لهجات السكان الأصليين) واللغة اللاتينية (التي كان لأهلها نفوذ استعماري واسع وجاليات كبيرة في هذه الجهات) . ولعل اختلاف فصيلتها عن الفصائل التي تنتمي إليها هذه اللغات^(٣) هو الذي أتاح لها طول البقاء وجعل سبل التغلب عليها وعرة عسيرة كما تنص على ذلك قوانين الصراع اللغوي^(٤).

ويظهر أنها ظلت حية بهذه المناطق أمداً طويلاً بعد سقوط قرطاجنة في أيدي الرومان (١٤٦ ق. م) . فلدينا من الأدلة ما يحمل على الظن أنها بقيت لغة حديث بين السكان حتى القرن الخامس الميلادي أي بعد الاحتلال الروماني بأكثر من ستة قرون ؛ بل لدينا من الأدلة ما يحمل على الظن أنها بقيت في بعض هذه المناطق حتى الفتح العربي لشمال أفريقيا (القرن السابع الميلادي) ثم صرعتها اللغة العربية مع ما صرعته من اللهجات في هذه البلاد . غير أن ما وصل إلينا من آثارها في مرحلتها الأخيرة التي تبدأ من سقوط قرطاجنة بأيدي الرومان في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، يدلنا على أنها قد اجتازت في أصواتها ومفرداتها ودلالاتها مراحل كثيرة في سبيل التطور ، فبعدت بذلك عن أصلها القديم . ولذلك جرت العادة بتسميتها في هذه المرحلة بالبنونية الحديثة .

• néo-punIQUE

(٥) اللغة العبرية

١ — أهميتها والمتكلمون بها وصلاتها باللغات الكنعانية الأخرى :

تعد اللغة العبرية أهم اللهجات الكنعانية على الإطلاق ، وأوسعها انتشاراً ، وأكثرها إنتاجاً في مختلف فنون القول : في الدين والآداب والتاريخ والفلسفة والعلوم .. وهلم جرا . بل أنها لتعد من أغنى لغات العالم قاطبة في هذه الشؤون . وحسبها ثروة وشرفاً

(١) انظر الفقرة التالية ص ٣٩ .

(٢) أنظر ص ٢٦ .

(٣) البربرية من الفصيصة الحامية ، واللاتينية من الفصيصة الهندية — الأوروبية .

(٤) أنظر الفصل الرابع من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

أنه قد دون بها جميع أسفار العهد القديم ^(١) وكتب المشناه . وقد اكتسبت بفضل ذلك أهمية دينية كبيرة في البلاد المسيحية ، فأصبحت مكانتها في هذه البلاد تشبه من بعض الوجوه مكانة لغة القرآن في البلاد الإسلامية الناطقة بغير اللسان العربي .

وعلى الرغم من تسميتها اللغة العبرية ، فهي ليست لغة جميع العبريين ، بل لغة فرع واحد من فروعهم وهو فرع بني اسرائيل ^(٢) . وقد نزح بنو اسرائيل من شبه جزيرة سيناء ^(٣) وأغاروا على بلاد كنعان ، ففتحوا قسماً كبيراً منها ودانت لسلطانهم واستقروا بفلسطين حوالى القرن الثالث عشر ق . م . ومع أنهم دخلاء على هذه البلاد ، فإن لغتهم تتفق مع لغاتها في معظم مظاهر الصوت والقواعد وأصول المفردات ، وتؤلف معها شعبة لغوية واحدة . وقد اختلف العلماء في تعليل هذه الظاهرة :

فبعضهم يرى أن سبب هذه المشابهة يرجع إلى أن لغتهم قد انتقل اليها من لغات السكان الأصليين كثير من المفردات ومظاهر الصوت والدلالة وقواعد الصرف والاشتقاق ... وما إلى ذلك . وهذا هو أضعف الآراء بهذا الصدد لأن المشابهة بين العبرية وبقية اللغات السكنعانية ليست من النوع السطحي الذى يمكن أن يرجع سببه إلى الاقتباس . على أن الاقتباس لا يكاد يجرى إلا فى المفردات ، أما القواعد فليست من الأمور التى تنتقل من لغة إلى أخرى ^(٤) .

وبعضهم يرى أن سبب اتفاق لغتهم مع بقية اللغات السكنعانية يرجع إلى أن بني اسرائيل كانوا فى الأصل من هذه البلاد ، ثم هاجروا منها ، ثم عادوا اليها ثانية عن طريق سيناء ، وظلوا فى أثناء المدة الطويلة التى قضوها فى مهجرهم محتفظين بلسانهم القديم ، ولم يتأثروا إلا قليلاً بألسنة الأمم التى أقاموا بين أهلها ، ويجد هذا رأى بعض التأييد فيما ورد فى الكتاب المقدس بصدد تاريخ بني اسرائيل .

(١) ما عدا بعض أجزاء من سفرى عزرا ودانيال وآية من سفر أرمياء دونت باللغة الآرامية مباشرة كما سيأتى بيان ذلك .

(٢) تتألف الأمم العبرية من بني اسرائيل وجملة شعوب أخرى كما ل أدوم وأهل مؤاب وعمون ... الخ ، ولكن لا يطلق اسم اللغة العبرية إلا على لغة بني اسرائيل وحدهم .

(٣) تذكر الكتب المقدسة أنهم قد نزحوا إلى شبه جزيرة سيناء من مصر .

(٤) إذا انتقلت القواعد من لغة إلى أخرى كان انتقالها إيداناً بزوال اللغة التى انتقلت اليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منها . أنظر شرح هذا الموضوع فى الفصل الرابع من كتابنا « علم اللغة » .

وبعضهم يرى أن السبب في هذا يرجع الى أن اللغة الأصلية لبني إسرائيل قد اشتبكت مع اللسان الكنعاني في صراع انتهى بتغلبه عليها وفقاً لنواميس الصراع اللغوي (١)، فانقرضت لغتهم الأولى شيئاً فشيئاً وانتقلت اليهم لغة السكان الأصليين . غير أنه قد نال هذه اللغة في ألسنتهم كثير من التحريف في أصواتها ومفرداتها وبعض مظاهر قواعدها ، فنشأ من جراء ذلك لهجة متميزة عن اللهجات الكنعانية الأخرى .

ولا تسمح لنا معلوماتنا التاريخية في الوقت الحاضر أن نقطع برأى من هذين الرأيين الأخيرين أو نرجح صحته ، وإن كان المتداول المشهور بين معظم المحدثين من الباحثين اعتبار بني إسرائيل من الشعوب الكنعانية كما تقدم بيان ذلك (٢) .

٢ - المراجع التي وصلت إلينا اللغة العبرية عن طريقها :

وصلت إلينا اللغة العبرية عن طريق ثلاثة مراجع : أحدها الكتب التي دونت بها ، وهي أسفار العهد القديم والمشناة وملحقاتها وعدد كبير من المؤلفات القانونية والفلسفية والعلمية والأدبية التي دونها بهذه اللغة علماء اليهود في مختلف العصور . وثانيها بعض نقوش أثرية على لوحات من الصخر والمعدن . وثالثها استخدام اليهود لها في تلاوة بعض الأوراد الدينية وآيات التوراة . . وما إلى ذلك .

ومن الواضح أنه لم يصل إلينا عن هذه الطرق إلا لغة الكتابة كما هو شأن الأكادية والفينيقية . أما اللهجات التي كانت مستخدمة في التخاطب طوال المدة التي كانت العبرية في أثنائها لسان محادثة بين بني إسرائيل فلم يصل إلينا عنها شيء يعتد به . ولكن يفهم مما ورد في الإصحاح الثاني عشر من سفر القضاة أن النطق ببعض الكلمات كان يختلف باختلاف المناطق ، وأن بعض المناطق كان يصعب على أهلها النطق بكلمات منتشرة في مناطق أخرى (٣) .

ويضاف إلى هذا النقص في معلوماتنا عن اللغة العبرية نقص آخر ، وهو أننا لم نقف

(١) تقرر هذه النواميس أنه في مثل الحالة التي نحن بصدد الكلام عنها تتغلب لغة الشعب الذي يزيد عدد أفرادها عن عدد أفراد الشعب الآخر زيادة كبيرة . ولا شك أن عدد الكنعانيين كان يزيد كثيراً عن عدد الغزاه من بني إسرائيل . أنظر تفصيل ذلك وأمشاته في الفقرة الثانية من الفصل الرابع من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) أنظر ص ٢٧ .

(٣) أنظر الإصحاح الثاني عشر من سفر القضاة ، وخاصة الآية السادسة منه ، فقد ورد فيها أن بعض الفارين من الجيش في حرب أهلية قبض عليه خصومه فأُنكر أنه من الفريق الآخر ، فطلب إليه أن ينطق بكلمة عبرية فلم يستطع النطق بها صحيحة لأن لهجته لم تواته ، فافتضح بذلك أمره .

بشكل يقيني على كيفية النطق بأصواتها ومفرداتها . وذلك أنه ليس من بين المراجع الثلاثة السابقة التي وصلت إلينا هذه اللغة عن طريقها ما يقفنا بشكل يقيني على كيفية النطق . أما المراجع المدونة في الكتب أو المنقوشة على اللوحات الصخرية أو النقود فلا تمثل النطق العبري إلا في صورة ناقصة مبتورة . وذلك لأن الرسم العبري - كسائر أنواع الرسم السامي - كان يقتصر في مراحله الأولى على الرمز إلى الأصوات الساكنة في الكلمة . هذا إلى أن الأصوات الساكنة نفسها ليست ممثلة فيه تمثيلاً كاملاً . فهو لا يضع لكل صوت عام أكثر من حرف هجائي واحد ، مع أن الصوت العام كثيراً ما يندرج تحته أصوات مختلفة في مخرجها ونبرتها وقوتها ومدة النطق بها وما إلى ذلك (١) .

وأما المرجع الثالث الذي وصلت إلينا هذه اللغة عن طريقه وهو تلاوة اليهود لبعض الأوراد الدينية وآيات التوراة ... فلا يقفنا كذلك بشكل يقيني على النطق العبري الصحيح . وذلك أن العلماء لم يغنوا بملاحظة هذه التلاوة إلا منذ القرن السابع الميلادي ، أي بعد أن انقرضت اللغة العبرية بأكثر من عشرة قرون (٢) . وغنى عن البيان أن عبارات يتناقلها الخلف عن السلف في أثناء مدة طويلة كهذه لا بد أن ينال أصواتها الأولى كثير من التحريف تحت تأثير التطور الطبيعي لأعضاء النطق (٣) . وتفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض ، وتأثرها بالأصوات الحديثة ، والأخطاء السمعية التي تحدث في أثناء تناقلها ... وما إلى ذلك من عوامل التطور الصوتي التي تكلمنا عنها بتفصيل في كتاب « علم اللغة » (٤) . ويؤيد ذلك أنه قد ورد في أقدم ترجمة للعهد القديم (الترجمة السبعينية Version de Septante) ، وهي التي تمت في أوائل القرن الثالث ق . م (سنة ٢٨٢ أو ٢٨٣ ق . م) في عهد بطليموس فيلادلفيا على يد اثنين

(١) ليس هذا مقصوراً على الرسم العبري ، بل هو نقص يشترك فيه جميع أنواع الرسم الحديث (انظر « علم اللغة » للمؤلف الفقرة الرابعة من الفصل السادس) .

(٢) انقرضت اللغة العبرية من التخاطب في أواخر القرن الرابع ق . م كما سيأتي بيان ذلك .

(٣) من المقرر أن أعضاء النطق في الإنسان في تطور طبيعي مطرد في تكوينها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها . فحاجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، بل إنها تختلف في ذلك عما هي عليه عند آبائنا الآخرين . وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث في أعضاء البطق أو في استعدادها يتبعه تطور في أصوات الكلمة ، فتتحرف هذه الأصوات عن الصورة التي كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملائمة مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق (انظر الفقرة الثانية من الفصل السابع من كتاب علم اللغة للمؤلف) .

(٤) انظر الفصل السابع من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

وسبعين حبراً من يهود مصر ، بعض كلمات وجمل عبرية مدونة برسم يوناني ، وأنه بالموازنة بين نطق هذه الكلمات والجل حسب رسمها اليوناني والنطق الذي وصل إلينا عن طريق تلاوة اليهود للأوراد الدينية وآيات التوراة يظهر فرق كبير بين النطقين .

٣ - مراحل اللغة العبرية :

هذا وقد اجتازت اللغة العبرية مراحل كثيرة تأثرت في كل مرحلة منها بعدة مؤثرات من أهمها الشؤون السياسية وما طرأ على وحدة بني إسرائيل واستقلالهم وعلاقتهم بالشعوب الأخرى . وترجع هذه المراحل إلى عصرين رئيسيين : العصر الأول من نشأة هذه اللغة (حوالى القرن الثالث عشر ق . م) إلى أواخر القرن الرابع ق . م ، أى طوال المدة التى كانت العبرية فى أثنائها لغة حية يتكلم بها بنو إسرائيل ، ويسمى علماء اللغة فى هذا العصر بالعبرية القديمة Hébreu ancien أو عبرية « العهد القديم » ، وذلك لأن أهم ما وصل إلينا من آثارها فى هذا العصر هى أسفار العهد القديم ، - والعصر الثانى يبدأ من العهد الذى انقرضت فيه العبرية من التخاطب واقتصر استخدامها على الكتابة وتلاوة بعض الأوراد والآيات ، أى من أواخر القرن الرابع ق . م إلى العصر الحاضر . ويسمونها فى هذا العصر بالعبرية اللاحقة للعهد القديم ، أو عبرية ما بعد « العهد القديم » hébreu post-biblique . وستتكمّل عن كل عصر من هذين العصرين على حدة :

(العصر الأول) يبدأ هذا العصر كما قلنا من نشأة اللغة العبرية (حوالى القرن الثالث عشر ق . م) إلى أواخر القرن الرابع ق . م ، فيستغرق المدة التى كانت العبرية فى أثنائها لغة حية فى التخاطب . وينقسم هذا العصر نفسه إلى مرحلتين : المرحلة الأولى تنتهى بنفى بابل سنة ٥٨٧ ق م ^(١) ؛ فتستغرق المدة التى تمتع فى أثنائها بنو إسرائيل باستقلالهم السياسى الكامل وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة الذهبية للغة العبرية âge d'or . وذلك أنه فى هذه المرحلة بلغت اللغة العبرية عنفوان مجدها ووصلت الى أقصى ما أتيح لها أن تصل إليه من الرقى والتهديب واتساع النفوذ وقوة السلطان ؛ وكانت فى أثنائها فصيحة خالصة من الشوائب . وفى القرون الثلاثة الأخيرة

(١) فى سنة ٥٨٧ ق . م أغار بختنصر ملك بابل على فلسطين فأزال ملك بني إسرائيل وأسر منهم عدداً كبيراً أجلاهم إلى بابل (ولذلك اشتهر ذلك فى التاريخ باسم نفي بابل) حيث ظلوا فى الأسر حتى تغلب كورش ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٩ ق . م فأطلق سراح اليهود ، ورجع كثير منهم إلى فلسطين .

من هذه المرحلة (من النصف الأخير من القرن التاسع حتى أوائل القرن السادس ق. م) دون أهم أسفار العهد القديم (أسفار التكوين والخروج والثنائية ويوشع والقضاة وصموئيل والملوك والأمثال ونشيد الأناشيد وقسم كبير من الأنبياء... الخ). وأقدم ما وصل إلينا من آثار هذه المرحلة قصيدة حماسية دينية وردت في الإصحاح الخامس من سفر القضاة منسوبة إلى حكيمة من حكيّات بني إسرائيل تدعى «دبورا» chant de Debora يظن أنها عاشت حوالى القرن الثانى عشر ق. م. فتاريخ هذه القصيدة يرجع إذن إلى مبدأ العهد الذى استقر فيه بنو إسرائيل ببلاد فلسطين. وقد وصل إلينا كذلك من آثار هذه المرحلة غير الكتب المدونة، نقش تاريخى هام، وهو اللوحة التذكارية لنبع عين السلوان Siloé التى عثر عليها سنة ١٨٨٠ فى نفس النفق الذى انبجست منه هذه العين فى قرية السلوان بالقرب من مدينة بيت المقدس. ويرجع تاريخ هذا النقش إلى السنين الأخيرة من القرن الثامن ق. م.

وأما المرحلة الثانية من هذا العصر فتبدأ من نفي بابل سنة ٥٨٧ ق. م وتنتهى بانقراض اللغة العبرية من التخاطب فى أواخر القرن الرابع ق. م وحلول الآرامية محلها، وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة الفضية للغة العبرية âge d'argent. وقد أخذت عوامل الفناء منذ بداية هذه المرحلة، تدب شيئاً فشيئاً إلى اللغة العبرية، وأخذت الآرامية تقتحم عليها معاقبها وتنتقص من مناطقها قليلاً قليلاً حتى قضت عليها كما قضت على الأكادية من قبل. حقاً أن اليهود الذين أجلاهم بختنصر إلى بابل قد حرصوا على لغتهم كل الحرص طوال مدة نفيهم وبعد عودتهم إلى بلادهم، وأن اليهود الذين لم يشملهم هذا النفي فبقوا بفلسطين لم يقلوا عن إخوانهم رغبة فى الإبقاء على لسانهم، وأن أجبار اليهود ورؤسائهم لم يألوا جهداً فى محاربة الآرامية وبث كرهها فى نفوس بني إسرائيل. ولكن هذا كله لم يستطع سيلاً إلى وقف تيار الآرامية، ولم يقو على تعويق قوانين الصراع اللغوى. فلم يكفد ينتهى القرن الرابع ق. م حتى كانت العبرية فى عداد اللغات الميتة فى التخاطب. وقد ذل للآرامية سبيل التغلب على العبرية انتمأؤهما إلى شعبة لغوية واحدة، وقوة أواصر القرابة التى تربط كليهما بالأخرى^(١) وتفككت بني إسرائيل فى هذا العصر وانحلال سلطاتهم السياسى.

(١) من المقرر أنه كلما قربت اللغتان المتصارعتان إحداها من الأخرى سهل على أفواهما التغلب، أنظر الفصل الرابع من كتاب علم اللغة للمؤلف.

وأهم ما وصل إلينا من آثار هذه المرحلة بعض أسفار العهد القديم (يونس ، زكريا ، قسم من دانيال .. الخ) وبعض آثار أدبية تعد من أرقى ما وصل إلينا من هذه اللغة . ويبدو في مخلفات هذه المرحلة بوادر التأثير باللغة الآرامية .

(العصر الثاني) يبدأ من العهد الذي انقرضت فيه اللغة العبرية من التخاطب واقتصر استخدامها على الكتابة وبعض الشؤون الدينية ، أى من أواخر القرن الرابع ق . م إلى العصر الحاضر ، وتسمى اللغة العبرية في هذا العصر بعبرية ما بعد العهد القديم . hébreu post - biblique .

وينقسم هذا العصر كذلك إلى مرحلتين تمتاز كل منهما بميزات لغوية خاصة : المرحلة الأولى تنتهى بفاتحة العصور الوسطى . وتسمى اللغة العبرية في هذه المرحلة بالعبرية الربانية أو التلمودية ، وذلك لأن أهم ما وصل إلينا من آثارها في هذه المرحلة هو بحوث الربانيين في التلمود . فقد تألف من بحوثهم في شئون الدين والقانون والتاريخ المقدس ... وما إلى ذلك ثلاثة وستون كتاباً باللغة العبرية أطلق عليها اسم المشناة ثم شرحت هذه المشناة فيما بعد باللغة الآرامية وأطلق على هذا الشرح اسم الجمارا ، وتألف من المشناة والجمارا ما أطلق عليه اسم التلمود . - ووصل إلينا كذلك من آثار هذه المرحلة غير كتب المشناة ، مؤلفات كثيرة في مختلف فروع الآداب والعلوم والفلسفة والدين .

وتختلف آثار هذه المرحلة في فصاحة لغتها وصحتها تبعاً لاختلاف المؤلفين في مبلغ تمكنهم من هذه اللغة وإلمامهم بآدابها القديمة . ولكنها تمتاز على العموم بشدة تأثرها باللغة الآرامية . ويظهر فيها كذلك شيء غير يسير من مظاهر التأثير ببعض اللغات الهندية - الأوروبية التي احتك اليهود بأهلها احتكاكاً سياسياً أو ثقافياً ، وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية . واليك مثلاً المشناة نفسها : فمع أنها قد دونت باللغة العبرية ، فإن كثيراً من المفردات التي استخدمت فيها مقتبس من اللغة الآرامية ، وتشتمل كذلك على عدد غير يسير من الكلمات الإغريقية واللاتينية والفارسية . ولكن هذا لا ينقص شيئاً من قيمتها اللغوية والتاريخية ، وذلك أن ما بها من كلمات أجنبية لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب ما استخدمته من المفردات العبرية والكنعانية التي لا يوجد بعضها في « العهد القديم » نفسه .

وأما المرحلة الثانية من هذا العصر ، فتبدأ من فاتحة العصور الوسطى حتى العصر الحاضر . وتسمى اللغة العبرية في هذه المرحلة بالعبرية الحديثة Néo-hébreu . وقد كتب

بها في هذه المرحلة عدد كبير من علماء اليهود المتمين إلى مختلف الشعوب والناطقين بشتى اللغات: فمنهم الألمان ومنهم الانجليز ومنهم الفرنسيون ومنهم العرب وهلم جرا . وتمتاز العبرية في هذه المرحلة بشدة تأثرها باللغة العربية وباللغات الأوروبية الحديثة . ويرجع الفضل في تأثرها باللغة العربية إلى شدة احتكاكهما من الناحية الثقافية في هذه المرحلة وإلى المؤلفات العربية التي نقلها علماء اليهود إلى العبرية فزادوا بذلك ثروة لغتهم في الطب والعلوم والفلسفة والآداب . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تجاوزوه الى ميدان الشعر نفسه ؛ فقد اقتبس اليهود في هذه المرحلة بحور الشعر العربي وأسايبه ونظموا على غرارها باللغة العبرية كثيراً من القصائد والمقطوعات .

وتختلف آثار هذه المرحلة في فصاحة لغتها وصحتها تبعاً لاختلاف المؤلفين في مبلغ تمكنهم من العبرية وإلمامهم بأدائها القديمة: فشأن كل منهم كشأن أحدنا إذ يؤلف مثلاً باللغة الفرنسية أو الانجليزية .

وفي أواخر القرن التاسع عشر قوى اتجاه اليهود في مختلف أنحاء العالم إلى إحياء اللغة العبرية ، فوسعوا نطاق استعمالها في الشؤون الدينية والأدبية وفي ميادين الترجمة والتأليف . وقد قوى هذا الاتجاه بوجه خاص في أوروبا الشرقية وفلسطين ؛ فقد حرص اليهود المهاجرون إلى هذه البلاد التي يعدونها « وطنهم القومي » على إحياء قوميتهم ولغتهم ، فبعثت العبرية بفضل هذه العناية خلقاً جديداً في ميادين الكتابة والآداب ، بل أخذ بعضهم يستخدمها في التخاطب العادى . غير أن استخداماً في هذا الميدان لا يزال ضعيفاً محدوداً .

٤ - رسم اللغة العبرية :

اشتق الرسم العبرى ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، من الرسم الفينيقي ، وتتألف حروف هجائه من اثنين وعشرين حرفاً ترمز إلى اثنين وعشرين صوتاً ساكناً ؛ ويكتب من اليمين إلى الشمال متفرق الحروف ما عدا الألف واللام فترسمان متصلتين . وقد اجتاز في سبيل تطوره أربع مراحل :

١ - ففي المرحلة الأولى كانت أشكال حروفه لا تختلف كثيراً عن الحروف الفينيقية القديمة . ويعرف في هذه المرحلة باسم العبرى القديم .

٢ - وفي المرحلة الثانية ظهر تأثره بالرسم الآرامى . تبعاً لتأثر اللغة العبرية باللغة

الآرامية . ومن ثم نشأ نوع جديد من الرسم اشتهرت تسميته بالرسم العبرى الحديث أو العبرى المربع hébreu carré . وقد اقتصر في المبدأ استخدام هذا الرسم الجديد على الشئون الدينية ، أما فيما عداها فقد ظل اليهود يستخدمون الرسم القديم أمداً طويلاً .
٣ - وحوالى القرن السادس الميلادى أدخل على هذا الرسم إصلاح جديد ؛ إذ استخدمت الألف والهاء والواو والياء للرمز إلى أصوات المد الطويلة ، فساعد ذلك على ضبط النطق وحفظ الكلمات من التحريف .

٤ - وفى العبرية الحديثة أدخل إصلاح آخر إذ اخترع نظام الحركات للإشارة إلى أصوات المد القصيرة . وقد اتخذت ثلاث طرق لرسم هذه الحركات :
إحداها تعرف بالطريقة الطبرية système tiberien نسبة إلى مدرسة من العلماء تسمى مدرسة طبرية لنشأتها بمدينة طبرية بفلسطين . وهذه الطريقة ترمز إلى أصوات المد القصيرة بعلامات تحت الحروف . وهى أشهر الطرق الثلاث ، ولا يكاد يستخدم غيرها فى العصر الحاضر . وقد اشتهر فى النطق بالكلمات المدونة بهذه الطريقة أسلوبان يختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً يسيراً : أحدهما يسمى أسلوب اليهود الغربيين أو الأسلوب الألمانى rite allemand ؛ والآخر يسمى أسلوب اليهود الشرقيين أو الأسلوب البرتغالى rite portugais .

وثانيتهما تعرف بالطريقة العراقية أو البابلية système babylonien ، لأن الفضل فى اختراعها يرجع إلى مدارس أحبار اليهود بالعراق . وهذه الطريقة ترمز إلى أصوات المد القصيرة بعلامات توضع فوق الحروف . وقد انقرضت هذه الطريقة بانقراض المدارس البابلية التى أنشأتها (حوالى القرن التاسع الميلادى) .

والطريقة الثالثة تعرف بالطريقة الفلسطينية ، وهى تشير إلى هذه الأصوات بعلامات فوق الحروف كما تفعل الطريقة العراقية ، ولكنها تختلف عنها فى صورة هذه العلامات ودلالاتها .

هذا ، وقد استخدم أحياناً فى تدوين العبرية بعض رسوم أجنبية وبخاصة الرسمان العربى واليونانى .

الفصل الثالث

اللغات الآرامية

١ - نشأة الآرامية وانتشارها :

يؤخذ من بعض الآثار الآشورية - البابلية أن القبائل الآرامية كانت تنتقل، منذ القرن الخامس عشر ق م، في الصحراء المتاخمة لمنطقة ميزوبوتاميا، وأنها كانت مصدر قلق وإزعاج لسكان هذه المنطقة وما إليها من البابليين والآشوريين، فكانت لا تفتأ تشن عليهم الغارات، وتقطع الطرق، وتشر الرعب على حدود هذه البلاد. وقد نزحت بعض قبائلهم من هذه الصحراء إلى بلاد سوريا وفلسطين وما إليها حوالي القرن الخامس عشر ق م، واستقروا في منطقة مجاورة لمناطق الكنعانيين الذين سبقوهم في الهجرة إلى هذا القسم بنحو عشرة قرون^(١). وكان يسكن المنطقة التي استقر بها الآراميون شعوب غير سامية كانت في درجة راقية من الحضارة.

وبذلك انقسمت مواطن الآراميين قسمين : قسم في الشمال الغربي على تخوم البلاد الكنعانية، وقسم في الشرق في صحراء ميزوبوتاميا على حدود بابل وآشور. أما في الشمال الغربي فقد أخضعوا لسلطانهم السكان الأصليين للمنطقة التي استقروا فيها، وأنشئوا بها بضعة دويلات آرامية مستقلة بعضها عن بعض. واشتبكت لغتهم في صراع مع لغات السكان الأصليين وكتب لها النصر عليها وفقاً لقوانين الصراع اللغوي^(٢). ولكنهم مع ذلك انتفعوا أيما انتفاع بحضارة هؤلاء السكان وثقافتهم وآدابهم وصناعاتهم وما كان لهم من نشاط في مختلف مظاهر الحياة. وانتفعوا كذلك انتفاعاً كبيراً بحضارة جيرانهم الكنعانيين، وعندهم أخذوا حروف الهجاء الآرامية وكثيراً من أساليب الرسم.

وأما في الشرق فلم يستقر سلطانهم في بلاد العراق إلا بعد استقراره في الشمال

(١) كانت هجرة الكنعانيين إلى هذه البلاد في نحو القرن الخامس والعشرين أو السادس والعشرين

ق م كما تقدم ذلك بصفحة ٩ تعليق رقم ١.

(٢) أنظر تفصيل هذه القوانين بالفصل الرابع من كتابنا « علم اللغة ».

الغربي بأمد طويل . ومع ذلك ، فقد أخذ نفوذهم يتغلغل في هذه البلاد منذ عصر سحيق في القدم ، وأخذت لغتهم تقتحم على الأكادية معاقبها وتنتزعها معقلا معقلا ؛ فلم ينتصف القرن الرابع ق . م حتى كانت الآرامية قد طغت على جميع الألسنة في هذه المناطق ، وكانت الأكادية من عداد اللغات الميتة في المحادثة كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١) .

ثم اشتبكت الآرامية في صراع مع لغات الكنعانيين جيران الآراميين في الشمال الغربي ، وكتب لها النصر كذلك في هذا الصراع ، فقصت على العبرية في أواخر القرن الرابع ق . م ، وعلى الفينيقية في القرن الأول ق . م ، كما سبق القول في الفصل الثاني من هذا الكتاب (٢) .

وبذلك ورثت الآرامية أخواتها الشرقية والشمالية جميعاً ، وأصبحت اللغة السائدة في التخاطب في جميع بلاد العراق من جهة وفي سوريا وفلسطين وما إليهما من جهة أخرى . وقد بلغت غفوان مجدها ووصلت منطقتها إلى أقصى درجات اتساعها في المرحلة المحصورة بين سنتي ٣٠٠ ق م و ٦٥٠ بعد الميلاد . فقد بلغت في هذه المرحلة مساحة البلاد الناطقة بالآرامية نحو ٦٠٠ ألف كيلو متر مربع .

وكان لها فوق ذلك منزلة اللغة الدولية في كثير من المناطق المجاورة لبلادها ، وخاصة في عهد الحكم الفارسي لهذه المناطق . وامتد نفوذها إلى آسيا الصغرى نفسها ، على الرغم من أنه لم يهاجر إليها إلا عدد قليل من الآراميين . فقد عثر بآسيا الصغرى على نقود صدرت في عهد بعض ولاة الفرس تحمل رموزاً وكلمات آرامية . وهذا يدل على أن الآرامية كانت اللغة الرسمية لهذه البلاد . بل يظهر أنها كانت تستخدم فيها أحياناً لتدوين بعض المنتجات العلمية والأدبية ، كما يدل على ذلك نقش عثر عليه حديثاً في كبادوس Cappadoce (من أعمال آسيا الصغرى) (٣) . وامتد نفوذ الآرامية إلى بلاد تدمر والنبط وشبه جزيرة سينا كما يظهر ذلك من الآثار التي عثر عليها في هذه المناطق والتي سنتكلم عنها في الفقرة الثالثة من هذا الفصل . وكان للآرامية في مصر نفسها في العهد الفارسي منزلة لا تقل عن منزلتها في البلاد السابق ذكرها ، بل امتد نفوذها في مصر إلى ما بعد العهد الفارسي بزمان طويل ، كما تدل على ذلك الوثائق التي عثر عليها

(١) أنظر آخر ص ٢٦ .

(٢) أنظر نهاية ص ٣٣ وأول ٣٤ وصفحة ٣٩ .

(٣) هذا النقش مؤلف باللغة الآرامية ومدون بالرسم الآرامي .

بجزيرة فيلة (أنس الوجود) والتي سنتكلم عنها في الفقرة الثالثة من هذا الفصل (١) . ولم يقف نفوذها عند هذا الحد ، بل جاوزه إلى مناطق اللغة العربية نفسها . فكانت الآرامية تستخدم لغة كتابة في بعض المناطق العربية اللغة ، وخاصة في بلاط النبط كما سيأتى الكلام على ذلك في الفقرة الثالثة من هذا الفصل ، وتركت ، فضلاً عن هذا ، آثاراً ظاهرة في اللهجات العربية البائدة ، وهى لهجات عربية كانت مستخدمة في بعض مناطق واقعة شمال الحجاز في داخل الحدود الآرامية وعلى تخومها ، وخاصة في واجات تيماء والحجر (مدائن صالح) والعلا كما سيأتى الكلام على ذلك في الفصل السادس .

٢ - اللهجات الآرامية :

نجم عن اتساع مناطق اللغة الآرامية وتعدد طوائف الناطقين بها إلى الحد الذى وصفناه أن انشعبت إلى عدة لهجات . وترجع لهجاتها هذه إلى مجموعتين رئيسيتين يفصلهما الفرات وصحراء الشام : إحداهما مجموعة اللهجات الآرامية الشرقية وتشمل اللهجات الآرامية ببلاد العراق في منطقتيها الجنوبية والشمالية ، وثانيتهما مجموعة اللهجات الآرامية الغربية ، وتشمل اللهجات الآرامية بسوريا وفلسطين وشبه جزيرة سيناء . . . وما إلى ذلك (٢) . وتختلف هاتان المجموعتان إحداهما عن الأخرى في كثير من مظاهر الصوت والدلالة ، بل وصل الخلاف بينهما إلى نطاق القواعد نفسها . فمن ذلك مثلاً أن اللهجات الغربية تستخدم الياء في أول المضارع علامة على إسناده للمفرد الغائب ، كما هو الشأن في معظم اللغات السامية ، على حين أن اللهجات الشرقية تستبدل النون بهذه الياء . ومن ذلك أيضاً أن علامة التعريف الآرامية الملاحقة بآخر الاسم (آ) ، قد فقدت في اللهجات الشرقية وظيفتها وأصبحت جزءاً من الكلمة لا تدل على التعريف .

١ - وتنقسم المجموعة الشرقية إلى لهجات كثيرة أهمها أربع لهجات :

إحداهما اللهجة الجنوبية التى شرح بها يهود مدرسة بابل كتاب المشناه (ويسمى هذا الشرح الجمارا ، ويتألف منه مع المشناة ما يعرف بتلمود بابل) .

وثانيتهما اللهجة المندائية أو المندعية Mendéen التى كان يتكلم بها طائفة المندائيين أو المندعيين ، وهى طائفة تقطن كذلك جنوب العراق .

(١) يرجع تاريخ هذه انوثائق إلى القرنين السادس والخامس ق . م أى إلى عصر لاحق للعصر الفارسى .

(٢) كان القدامى من علماء اللغة يقسمونها إلى الكلدانية . والسريانية ، ويسمون الأولى الآرامية الشرقية والثانية الآرامية الغربية . وهذا في الحقيقة تقسيم لآرامية العراق وحدها التى نسميها نحن الآن بالآرامية الشرقية

وثالثها اللهجة الحرائية التي تنسب إلى مدينة حران في شمال العراق . وقد كانت هذه المدينة مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الآرامية ، وزاد من شأنها شدة احتكاكها بالفلسفة اليونانية . وقد انتفع العرب أيما انتفاع بالثقافة الحرائية ، واستخدم الخلفاء العباسيون كثيراً من النابهين من علماء حران لترجمة بعض الكتب الفلسفية من الآرامية واليونانية إلى اللغة العربية .

ورابعها اللهجة السريانية ، وهي لهجة مدينة إدسا ، Edessa كما كان يسميها اليونان ، أو أرهي Orhai كما كان يسميها السريان أنفسهم ، أو الرها كما كان يسميها العرب ^(١) (وهي واقعة في شمال حران) . والسريانية هي أهم اللهجات الآرامية على الإطلاق وأغناها في الإنتاج الأدبي والعلمي والفلسفي . فقد كانت الرها ، منذ اعتنق أهلها المسيحية في القرن الثاني الميلادي ، أهم مركز للثقافة في الشرق المسيحي ، وكانت لغتها أهم لغة للأدب المسيحية بوجه خاص . بل يغلب على الظن أن لهجتها كانت مستخدمة لغة أدب وكتابة في منطقة كبيرة من شمال العراق من قبل العصر المسيحي . وقد أتاحت لها فرص كثيرة للاحتكاك باليونانية فاقبست كثيراً من مفرداتها ، وتأثرت بأساليبها وانتفعت بمنهج التفكير اليوناني ، فغزت بذلك مادتها ، واتسع نطاقها ، وقويت على التعبير عن مختلف حقائق الدين والفلسفة والعلوم . وظلت هذه اللهجة محتفظة بوحدتها طوال المدة التي كانت الكنيسة السريانية محتفظة بوحدتها في أثنائها ، أي من نشأة هذه الكنيسة إلى القرن الخامس الميلادي . ثم حدث الخلاف المشهور بين علماء السريان بصدد ازدواج طبيعة المسيح ووحدتها ، فانقسمت الكنيسة السريانية إلى فريقين : السريان الغربيون الخاضعون للإمبراطورية اليونانية الذين اعتنقوا مذهب يعقوب بارادوس Jacob Barados القائل بوحدة طبيعة المسيح ، وقد اشتهروا باليعاقبة ، والسريان الشرقيون الخاضعون للإمبراطورية الفارسية الذين اعتنقوا مذهب نستوريوس Nostorius القائل بازدواج طبيعة المسيح أي بأنه جامع بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية ، واشتهروا باسم النساطرة . وأدى هذا الانقسام الديني إلى انقسام أدبي ولغوي . فقد اتجهت اللغة وآدابها عند كل فريق من هذين الفريقين وجهة تختلف عن وجهتها عند الفريق الآخر .

ولذلك انقسمت اللغة السريانية إلى لهجتين : اللهجة اليعقوبية واللهجة النسطورية .

(١) حرف اسمها في القرن الخامس عشر إلى أورفا وبه تعرف الآن .

وأخذت مسافة الخلف تتسع بينهما شيئاً فشيئاً حتى تميزت كل منهما عن الأخرى في كثير من ظواهر الصوت والدلالة والقواعد ونطق الكلمات ورسمها... وهلم جرا. وقد طبع هذا الخلاف بطابع رسمي ثابت بعد الفتح العربي لهذه البلاد. فقد خشي السريان على لغتهم أن تمتد إليها يد التحريف فتحرف معها عبارات الكتاب المقدس المترجمة إليها، فعمل كلا الفريقين على ضبط قواعدها، وتحديد أصواتها، والطريقة التي تقرأ بها آيات العهدين القديم والجديد، فنجم عن ذلك طريقتان في قراءة الكتاب المقدس: إحداهما الطريقة الشرقية أو النسطورية؛ والأخرى الطريقة الغربية أو اليعقوبية. والطريقة الأولى هي أقربهما إلى اللغة القديمة.

هذا، وقد كان للغة السريانية ومنتجاتها أثر كبير في الآداب والعلوم العربية وخاصة في العصر العباسي كما سيأتي بيان ذلك في الفصل السادس من هذا الكتاب.

٢- وتنقسم الآرامية الغربية بحسب عصورها إلى لهجات كثيرة أشهرها ثلاث لهجات تمثل كل لهجة منها مرحلة خاصة من مراحل التطور:

(إحداهما) الآرامية الغربية في أقدم عهودها (حوالي القرن الثامن ق. م) ولم يصل إلينا عن هذه اللهجة إلا بعض نقوش سنتكلم عنها في الفقرة التالية.

(وثانيتهما) اللهجة التي دون بها بطريق مباشر بعض أجزاء من سفرى عزرا Esdras ودانيل وآية من سفر أرمياء.

(وثالثتهما) الآرامية الفلسطينية الحديثة، وهي التي استخدمها اليهود في الغرب في ترجمة العهد القديم عن العبرية وفي شرح كتاب المشناة (يسمى هذا الشرح «الجمارا» ويتألف منه مع المشناة ما يعرف عنه بتلمود بيت المقدس)، واستخدمها المسيحيون بسوريا وفلسطين في ترجمة العهدين القديم والجديد عن اليونانية، بعد أن تحرروا من النفوذ السرياني في ناحيتي الثقافة والدين. وذلك أن المسيحيين في هذه البلاد ظلوا تابعين للنفوذ السرياني في ناحيتي الثقافة والدين منذ القرن الثالث الميلادي، ولذلك كان اعتمادهم على الترجمة السريانية للكتاب المقدس. ولكن انقسام الكنيسة السريانية إلى فرق متحاربة قد أضعف من نفوذها في الغرب؛ وأتاح لنصارى سوريا وفلسطين فرصة للاستقلال عن السريان في آدابهم ومذاهبهم الدينية. فانفصلوا عن يعاقبة الشرق ونساطرته وأنشؤوا لأنفسهم مذهباً دينياً خاصاً بهم، وترجموا إلى لهجتهم أسفار العهد القديم والجديد وانفصلوا عنهم كذلك في ثقافتهم وآدابهم. وقد بدأت نهضتهم هذه منذ القرن الخامس الميلادي.

٣ - الآثار التي وصلت إلينا عن الآرامية :

تقدم أن اللهجات الآرامية ترجع إلى مجموعتين رئيسيتين يفصلهما الفرات وصحراء الشام ، إحداهما مجموعة اللغات الآرامية الشرقية ، والأخرى مجموعة اللغات الآرامية الغربية . وقد وصل إلينا عن كل مجموعة من هاتين المجموعتين آثار كثيرة : أما آثار المجموعة الغربية فيرجع أهمها إلى الطوائف الست الآتية :

١ - النقوش الممثلة للآرامية الغربية في أقدم عهودها وأهم هذه الطوائف نقش منسوب للملك حمّاه (بين دمشق وحلب) يرجع تاريخه إلى حوالى القرن الثامن ق . م ونقوش تنسب للملك شمأل Sam'al يرجع تاريخها إلى عصر متأخر قليلا عن العصر السابق (١) ، ومن أهم هذه النقوش الأخيرة نقش الملك « برركب » الذى عثر عليه فى تل زنجيرلى Singerlei سنة ١٨٩١ فى قرية بين انطاكية ومرعش فى شمال حلب . وقد كتبت هذه النقوش برسم قريب كل القرب من الرسم الكنعانى القديم ولكنه متميز عنه ببعض الخواص . وهذا يؤيد ما قلناه من أن الرسم الآرامى مشتق مباشرة من الرسم الفينيقى (٢) .

٢ - بعض أجزاء من العهد القديم دونت مباشرة باللغة الآرامية ، وهى قسم من سفر عزرا Esdras يرجع تاريخ تدوينه إلى حوالى سنة ٣٠٠ ق . م وقسم من سفر دانيال يرجع تاريخ تدوينه إلى سنة ١٦٧ أو ١٦٦ ق . م ، وآية من سفر أرمياء Jérémie (٣) .

٣ - الآثار المصرية ، وتطابق على بعض وثائق تشتمل على رسائل وعقود مدونة بالآرامية على البردى والخزف ، وعثر عليها فى جزيرة فيلة (أنس الوجود) بمصر . ويرجع تاريخها إلى القرنين السادس والخامس ق . م . وقد اختلف الباحثون فى تعليل تدوينها باللغة الآرامية . فذهب بعضهم إلى أن كتابة العقود بمصر فى ذلك العهد كان معظمهم من اليهود ؛ وكانت لغة اليهود حينئذ هى الآرامية . ويرجح كثير من المحدثين ، ومن بينهم الأستاذ مرسل كوهين ، أن جزيرة أنس الوجود كان يقطنها فى ذلك العصر جالية يهودية تتكلم الآرامية (٤) . ولغة هذه الآثار لا تختلف فى شيء عن اللغة التى دون بها

(١) بعض هذه النقوش غير آراى .

(٢) أنظر أول ص ٢٩ .

(٣) يضاف إل ذلك كلمتان فى سفر التكوين وردتا بالآرامية عن قصد .

(٤) Langues du Monde 107

بعض أجزاء من سفرى عزرا ودانيال . والحروف التي رسمت بها تشبه الحروف العبرية المربعة . وتعد هذه الوثائق أقدم ما وصل إلينا من الآثار السامية المدونة بالمداد .

٤ - الآثار التدمرية : عثر في مدينة تدمر ^(١) على آثار كثيرة مدونة بالآرامية وأهمها النقش الخاص بالضريبة المفروضة على البضائع التي تدخل المدينة . وقد ألحق بكثير من هذه الوثائق ترجمته باليونانية . وبعض هذه الوثائق يرجع تاريخه إلى القرون الثلاثة الأولى ق . م ، ولكن معظمها يرجع تاريخه إلى القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد (١٢٨ - ٢٧١) . ولغة الآثار القديمة منها ، وهي التي يرجع تاريخها إلى القرون الثلاثة الأولى قبل الميلاد ، تشبه اللغة التي دون بها بعض أجزاء من سفرى عزرا ودانيال ؛ على حين أن لغة الطائفة الحديثة منها ، وهي التي يرجع تاريخها إلى القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد تشبه الفلسطينية الحديثة التي تقدم الكلام عنها ^(٢) . والرسم الذي دونت به هذه الوثائق قريب من رسم الوثائق المصرية السابق ذكرها .

أما أهل تدمر الذين تنسب إليهم هذه الوثائق فالراجح أنهم آراميون ، وإن كانوا خاضعين في السلطان السياسى لبعض أسرات عربية .

٥ - الآثار النبطية : عثر في كثير من بلاد النبط وخاصة في بترى Petra أو الصخرة ^(٣) (والعرب يسمونها « سلع ») ^(٤) بطور سينا وبصرى Bostra بالشام ومنطقة العلا بالحجاز في واحى تيماء والحجر Tayma, el Higr على آثار كثيرة مدونة باللغة الآرامية يتمثل معظمها في نقوش على القبور . ويتردد تاريخ هذه الوثائق بين أوائل القرن الأول ق . م وأوائل الرابع بعد الميلاد . واللغة التي دونت بها لا تختلف كثيراً عن الفلسطينية الحديثة . وقد دونت برسم نبطى متصل بعض حروفه بما قبلها . وهي أقدم ما وصل إلينا من الآثار السامية المنقوشة على الحجر برسم متصل الحروف . وقد اختلف الباحثون في الأصل الذى انحدر منه النبطيون فبعضهم يذهب إلى

(١) تقع على مسافة ١٦٠ كيلومتراً في الجنوب الشرقى من دمشق ، وهي قاعدة مملكة تدمر الشهيرة التي كانت الزباء ملكة عليها في بعض عصورها .

(٢) انظر صفحة ٤٧ .

(٣) الأول اسمها اليونانى والثانى معنى اسمها بالعبرية واليونانية .

(٤) بهذا الاسم ذكرها ياقوت في معجم البلدان والفيروزابادى في القاموس ، ومعنى سلع في العربية الشق في القدم والشق في الجبل . ويظهر أن اليهود قد حرفوا كلمة سلع إلى أقرب لفظ لإيها في لغتهم وهو « سالع » ومعناه الصخر فجاء اليونان من بعدهم وترجوا الكلمة العبرية إلى لغتهم .

أن معظمهم ينحدر من أصول آرامية ؛ فلا غرابة في نظر أصحاب هذا المذهب في أن النبط كانوا يستخدمون الآرامية . وبعضهم يذهب إلى أنهم ينتمون إلى أصول عربية ، ولكنهم كانوا يستخدمون الآرامية لغة كتابة . وإلى هذا الرأي الأخير يميل كثير من الباحثين (١) .

٦ - الآثار الممثلة للآرامية الفلسطينية في أدوارها الحديثة (من ميلاد المسيح) .
وتنقسم هذه المجموعة من الآثار أقساماً كثيرة أهمها قسمان : الآثار اليهودية ؛ والآثار المسيحية .

(١) أما الآثار اليهودية فهي أهم ما وصل إلينا من الآثار الآرامية الغربية على الإطلاق وأغزرها مادة وهي تمثل الجهود الجبارة التي قام بها الربانيون والأخبار لنشر تعاليم الدين اليهودي بين أفراد شعبهم عن طريق نقل الكتب المقدسة والمؤلفات الدينية والتشريعية من العبرية التي انقرضت من التخاطب في ذلك العصر إلى الآرامية التي كان يتكلم بها حينئذ سكان فلسطين . وكانوا في أول الأمر يعتمدون على الشرح الشفوي . فكانوا في العبادات والطقوس الدينية والدروس والعظات . . . وما إلى ذلك ، يتبعون الآية أو العبارة العبرية بترجمتها الآرامية . ثم آثروا تدوين هذه التراجم . فتألف من ذلك كتب كثيرة أهمها ترجمة أسفار العهد القديم وشرح أسفار المشناة . أما فيما يتعلق بالعهد القديم فقد كانوا يدونون الآية بنصها العبري ثم يتبعونها بترجمتها بالآرامية . وتسمى كتبهم هذه « الترجوم » ومن أشهرها ترجمون أنقلوس Onkelos وهي ترجمة لأسفار التوراة وحدها ، وترجوم يوناثان وهو ترجمة بقية أسفار العهد القديم . وأما فيما يتعلق بالمشناة ، فكانوا يدونون الأصل العبري ويشرحونه شرحاً بالآرامية ، ويطلق على هذه الشروح اسم الجمارا Guemara . ومن نصوص المشناة وشرح الجمارا التي قامت بها هذه المدارس الغربية يتألف ما يسمى بتلمود بيت المقدس . وقد ألفت هذه التراجم والشروح في عدة عصور . فأقدمها يرجع تاريخه إلى القرن الثاني بعد الميلاد ؛ ولكن معظمها يرجع إلى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد .

(ب) وأما الآثار المسيحية فلم يصل إلينا شيء يعتد به مما دون منها في القرون المسيحية الأولى . فمع أن الآرامية كانت لغة المحادثة في العصر الذي ظهر فيه المسيح ، ومع أنها

(١) من هؤلاء العلامة بروكلمان V. Brockelmann, op. cit 28, 29. V. aussi Langues du

هى التى كان يتكلم بها المسيح نفسه والتى قيلت بها عبارات الأناجيل ، فإنه لم يصل إلينا الأصل الآرامى لهذه الأسفار ، أو لعلمها لم تدون مطلقا بالآرامية . وأقدم ما وصل إلينا عنها هى ترجمتها اليونانية . ولا تظهر فى هذه الترجمة إلا آثار ضئيلة للهجة الآرامية التى كان يتكلم بها أهل فلسطين فى ذلك العهد . وتتمثل هذه الآثار فى نحو ست عشرة كلمة آرامية مدونة بحروف يونانية .

وأهم ما وصل إلينا من هذه الآثار هو ما دونه مسيحيو فلسطين بالآرامية بعد أن استقلوا فى ثقافتهم وشؤونهم الدينية عن السريان . وقد تم لهم هذا الاستقلال فى أواخر القرن الخامس الميلادى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك . ومن أهم ما دونوه بعد ذلك العصر ترجمة العهد القديم والجديد من اليونانية إلى الآرامية . أما ترجمة العهد الجديد فقد استغرق تدوينها وتحريرها مدة طويلة من القرن الثامن إلى الحادى عشر بعد الميلاد . ومع ذلك فقد جاءت ترجمة حرفية كالترجمة السريانية ، بل تزيد فى حريتها عن هذه الترجمة الأخيرة ، وتقل عنها فى مبلغ تمثيلها لروح اللغة الآرامية وأساليبها ، وذلك على الرغم من أنها تمت فى الموطن الأول الذى نبعت منه الأناجيل . وأما العهد القديم فلم يترجموه عن أصله العبرى كما فعل اليهود فى « ترجماتهم » السابق ذكرها ^(١) ، بل ترجموه عن الترجمة اليونانية الشهيرة باسم الترجمة السبعينية Version de Septante . وقد وصل إلينا كذلك من الآثار المسيحية ترجمة عدد كبير من المؤلفات الإغريقية فى الآداب والديانات والأساطير والعلوم .

وأما الآثار التى وصلت إلينا عن الآرامية الشرقية فيرجع أهمها إلى الطوائف الأربع الآتية :

١ — النقوش الممثلة للآرامية الشرقية فى أقدم عهودها . ولم يصل إلينا من هذه الطائفة إلا آثار ضئيلة عثر على أهمها فى مدينة آشور ، ويرجع تاريخ أقدمها إلى القرن التاسع ق . م ، ولكن معظمها يرجع تاريخه إلى القرون السابع والسادس والخامس ق . م ، وهى مدونة بالرسم الآرامى القديم ذى الحروف المتفرقة .

٢ — الآثار السريانية . لم يصل إلينا من الآثار السريانية الممثلة للعهد الوثنى إلا أثر واحد ، وهو خطاب مارا بن سريون Mara bar Sarapion . ومع قدم العهد الذى كتب فيه هذا الخطاب ، فإن لغته لا تكاد تختلف عن اللهجة السريانية فى عصورها الحديثة .

أما في عهدها المسيحي ، فقد وصل إلينا منها آثار كثيرة أهمها ترجمة العهد القديم والجديد من اليونانية (من القرن الثاني إلى الرابع بعد الميلاد) ومؤلفات دينية أخرى يشتمل بعضها على تراجم وتفسير لطائفة من القسس ، وبعضها على مناقشات دينية وقانونية لطائفة النساطرة واليعاقبة ، وبعضها على شرائع وقوانين مستمدة من التوراة والإنجيل ، وبعضها على قصائد دينية ترتل في الكنائس ، وبعضها على تاريخ الكنيسة السريانية وتاريخ رؤسائها ... وهلم جرا . هذا إلى طائفة كبيرة من المؤلفات العلمية والفنية في الفلسفة والطب والطبيعة والرياضة والفلك وتقويم البلدان ... وما إلى ذلك . وكثير من هذه المؤلفات مترجم عن اليونانية ^(١) . وبعضها مترجم عن اللاتينية والفارسية .

ويمتاز الخط السرياني القديم المسمى السطرنجيلي (الاسترانجيلي) عن بقية الخطوط الآرامية بكثير من الخواص . ولكن يتفق معها في الشكل العام للحروف وفي السير الأفقي من اليمين إلى الشمال . غير أنه يستفاد من بعض النقوش أنه كان يكتب في بعض العصور من أعلى إلى أسفل .

وبعد أن انقسم السريان إلى نساطرة ويعاقبة أخذ الرسم عند كل فريق منهما يتجه وجهة تختلف عن وجهته عند الفريق الآخر . فاشتق من السطرنجيلي القديم خطان ، أطلق على أحدهما اسم الخط النسطوري (ويعرف في الهند باسم الكلداني) وعلى ثانيهما اسم السرتو (ويعرف كذلك باسم الماروني أو اليعقوبي) . ويختلف هذان الرسمان في أمور كثيرة من أظهرها منهج كل منهما في العلامات المشيرة إلى أصوات المد . فالرسم النسطوري يشير إلى هذه الأصوات بنقط فوق الحرف أو تحته (ويسمى هذا الأسلوب بالطريقة الشرقية) ، والرسم اليعقوبي يشير إليها بحروف يونانية (ويسمى هذا الأسلوب بالطريقة الغربية) .

٣ - تلمود بابل Talmude de Babylone . سلكت مدارس اليهود في بابلونيا حيال المشناة نفس الطريق الذي سلكته المدارس الغربية بفلسطين ^(٢) ؛ فشرحته بلهجتها الآرامية في أسفار اشتهرت تسميتها بتلمود بابل ^(٣) . وقد شرعوا في شروحه هذه من

(١) ترجم بعض هذه المؤلفات من السريانية إلى العربية في صدر العصر العباسي .

(٢) انظر ص ٥٠ .

(٣) يسمى الشرح وحده « الجراء » والمتن « المشناه » ويتألف من المتن والشرح ما يسمى « التلمود » .

القرن الرابع بعد الميلاد ولم يفرغوا منها إلا في القرن السادس . ويظهر في اللغة التي دونت بها هذه الشروح كثير من وجوه التأثير باللغة العبرية .

٤ — آثار الطائفة المندائية Mendéen, Mandaïte . ولا تختلف اللهجة التي دونت بها هذه الآثار اختلافاً كبيراً عن اللهجة التي دون بها تلمود بابل . غير أنها أقل منها تأثراً باللغة العبرية . ويرجع تاريخ أقدمها إلى المرحلة المحصورة بين القرنين السابع والتاسع بعد الميلاد ، ويمتاز رسمها عن سائر أنواع الرسم الآرامي بل عن سائر أنواع الرسم السامي ، بشدة عنايته بأصوات المد ، حتى أنه لا يكاد يغادر صوتاً منها بدون أن يرمز إليه .

هذا وقد وصلت إلينا الآرامية كذلك عن طريق السماع ، فهي لا تزال مستخدمة لغة مخاطب حتى العصر الحاضر في بعض المناطق كما سيأتي بيان ذلك .

٤ — نهاية الآرامية :

أخذت اللغة العربية تقتحم على الآرامية معاقلمها وتنتزعها منها معقلاً معقلاً حتى قضت عليها في الميدانين الغربي والشرقي .

أما في الغرب فقد انقرضت الآرامية بعد الفتح العربي من لغة التخاطب في معظم مناطق سوريا وفلسطين ، وإن كانت قد بقيت بعد ذلك أمداً غير قصير لغة كتابة وأدب ودين . وقد لقيت العربية مقاومة عنيفة في المناطق الجبلية من هذا القسم ببلاد لبنان وما إليها ، حيث استغرق الصراع بينها وبين الآرامية عدة قرون . فقد ظلت الآرامية لغة حديث في كثير من قرى لبنان حتى أواخر القرن السابع عشر بعد الميلاد . ولغنف الصراع بين هاتين اللغتين وطول أمدته في هذه المناطق أصاب اللغة العربية في ألسنة أهلها كثير من التحريف ، وبقي في لهجاتهم العربية إلى العصر الحاضر كثير من آثار لهجاتهم الآرامية القديمة .

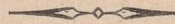
بل إن اللغة الآرامية لا تزال إلى العصر الحاضر لغة حديث في ثلاث قرى من هذا القسم يبلغ عدد سكانها نحو ألفي نسمة : منها قرية مسيحية تسمى « معلولة » (على بعد خمس وثلاثين كيلومتراً تقريباً من شمال دمشق) ، وقرتان إسلاميتان مجاورتان لهما هما جبعدين وبحفا^(١) . ويطلق العلماء على لهجات هذه القرى الثلاث اسم الآرامية الحديثة

(١) استعنت في تحرير هذه النقطة بصديق الفاضل الأستاذ محب الدين الخطيب مدير المطبعة السلفية =

الغربية Néo Aramien Occidental ، وبعضهم يسميها بالسريانية الغربية Syriaque Occidental . وغنى عن البيان أن هذه اللهجات قد بعدت بعداً كبيراً عن أصولها الأولى ، تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعي ، وكثرة المراحل التي اجتازتها في هذا السيل ، وطول عمرها ، وتأثرها باللغات التي احتكت بها وخاصة اللغة العربية .

وأما في الشرق فقد لقيت العربية مقاومة من مختلف اللهجات الآرامية ، وخاصة السريانية ، ولكن انتهى الأمر بتغلب العربية عليها كما تغلبت على أخواتها في الغرب ، فلم ينصرم القرن السابع حتى انقرضت الآرامية الشرقية من لغات التخاطب في هذه المناطق ، وإن كانت السريانية قد بقيت مستخدمة لغة كتابة وأدب ودين في كثير من الأوساط حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي .

وقد أفلت من هذا المصير بعض مناطق جبلية لا تزال إلى العصر الحاضر محتفظة بلهجاتها الآرامية . وتشتمل هذه المناطق على بعض قرى في طور عابدين Tur Abdin بميزوبوتاميا وبعض بلاد في شرق الموصل وشماله وجبال السكرد والشاطيء الشرقي لبحيرة أورميا Ourmia . ويبلغ مجموع السكان في هذه المناطق نحو ربع مليون نسمة ^(١) . ويطلق المستشرقون على هذه اللهجات اسم الآرامية الشرقية الحديثة Néo Aramien Oriental وبعضهم يسميها بالسريانية الحديثة Néo Syriaque . ولا يختلف حال هذه اللهجات عن حال أخواتها في الغرب . فقد بعدت بعداً كبيراً عن أصولها الأولى ، تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعي ، وكثرة المراحل التي اجتازتها في هذا السيل ، وطول عمرها ، وتأثرها باللغات التي احتكت بها وخاصة العربية والفارسية والسكردية . وفي غضون القرن التاسع عشر بذلت بعثة أمريكية دينية جهوداً كبيرة للنهوض بلهجة بحيرة أورميا ، فاتخذت منها لغة كتابة وأدب ، ودونت بها كثيراً من البحوث الدينية التي تعمل على نشرها في هذه المنطقة وكثيراً من الآثار الأدبية وغيرها التي أنتجتها قرائح الناطقين بها .



= غير أنه يرى أنه لا يبعد أن يكون المستشرقون الذين أخذنا عنهم (بروكلان ، كوهين ، مرسية... الخ) قد بالغوا كثيراً لغرض ما في اعتبار هذه اللهجات آرامية . ويرجح أنها لهجات عربية كثرت فيها مظاهر التأثير بالآرامية .

(١) Brockelmann 36; Langues du Monde 114 . وقد أتيج لى قضاء بضعة أشهر في العراق وملاحظة هذه اللهجات عن كثب ، فتبين لى صدق ما ذهب إليه المستشرقون بصدد انشعابها عن الآرامية .

الفصل الرابع اللغات اليمنية القديمة

١ — نشأتها ومنزلتها من الفصيلة السامية وصلتها باللغة العربية :

تعد بلاد اليمن من أقدم مواطن الساميين كما سبقت الإشارة إلى ذلك في مقدمة هذا الكتاب (١). وقد أنشأوا فيها حضارة من أرق الحضارات القديمة، وبملاك قوية كان لها شأن كبير في التاريخ كما يشهد بذلك ما خلفته من آثار، وما تحدثنا به الكتب المقدسة ويرويه قدامى المؤرخين عن سلطانها العظيم، ومجدها المؤثل، وما كان لها ولملوكتها من نفوذ ومكانة عند كثير من الأمم المعاصرة (٢).

وقد وصلت إلينا اللغات القديمة لهذه الشعوب السامية عن طريق نقوش كثيرة مدونة على الصخور والأساطين والقبور والتماثيل والنقود وجدران الهياكل والمذابح... وما إلى ذلك. ومعظم هذه النقوش عثر عليه في بلاد اليمن نفسها وفي الواحات الواقعة شمال بلاد الحجاز في منطقة العلا، وبعضها عثر عليه في المناطق الشمالية المتاخمة لبلاد كنعان.

ويطلق العلماء على هذه اللغات اسم « اللغات اليمنية القديمة » أو « العربية الجنوبية القديمة » Sud arabiques anciennes أو « القحطانية »، وأحياناً يسمونها باسم بعض لهجاتها الشهيرة فيطلقون عليها اسم « الحميرية » أو « السبئية ».

وتختلف هذه اللغات عن اللغة العربية اختلافاً جوهرياً في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والأساليب، ويشهد هذا الخلاف في المفردات نفسها. ويكفي

(١) انظر صفحة ٨ وتوابعها.

(٢) عرض القرآن الكريم لكثير من أخبار اليمن وما كان للملكة سبأ مع سليمان بن داود ملك فلسطين في سورة سبأ والنمل والأنبياء وص والفجر والفيل. وعرض لها كذلك كثير من أسفار العهد القديم (التكوين ، أشعيا ، حزقيال ، الملوك... الخ) ، وعرض التلمود لكثير من أخبار سليمان مع ملكة سبأ. وتكلم عنها كثير من قدامى المؤرخين اليونان والرومان كهيرودوت وسترابون ، وتكلم عنها جميع مؤرخي العرب .

للاقتناع بذلك إلقاء نظرة على النقش السبئي التالى ، وهو أحد النقوش التى وصلت إلينا عن هذه اللغات ، والموازنة بين عبارته وترجمتها إلى اللغة العربية :

(عبارة النقش مدونة بحروف عربية (١)) .

(١) ب ... وهق ... حنا وصوابت ومحفدت وهجرهمو .

(٢) مبرام حسسم وا ... م ... م ووسفو ور يموكل جنا هو وصوبت .

(٣) ... جناهو وصووبتهو ومحفدتهو بن مريمهو عدى رتهو وهذبو هو وهعقبن

(٤) خدعو وهعقبو خلفهو مصرعتم مبرا ومقيح كل صدقم بن موثرم عدى

(٥) ... ن بمقم مراهيمو عشر شرقا أشمشهو والال تهمو وباخيل

ومقيمت خميس .

(٦) حن يورخن ذقيصن ذبحرف ذلشت وتسعى وثلت ماتم بن خرف مبحض

بن أبحض .

(ترجمته الى اللغة العربية)

(١) ... (واعلوا مرة أخرى) السور و ... أبراج مدينتهم .

(٢) بأدوات البناء ووسعوا كل سورها و ...

(٣) وسورها و ... وأبراجها من أعلى الى أسفل مكان وزينوها ب ...

وأبراجها للحراسة .

(٤) وعمروا الخلف (؟) على هيئة باب حصن بأحسن أدوات البناء وفن

التعمير من أسفل الى أعلى ...

(٥) بمجد سيدهم عشر المشرق وآلهتهم الشموس وسائر الآلهة وبحول وقوة

الجنيس (الجيش) .

(٦) فى شهر ذى قيصن من سنة ثلثمائة وست وتسعين بعد سنة مبحوض بن

أبحض (٢) .

(١) الأصل مدون بخط المسند كما لا يخفى .

(٢) اعتمدنا فى هذا النقش على كتاب الدكتور اسرائيل ولفنسن « تاريخ اللغات السامية » صفحات

٢٤٨ — ٢٥٠ ، واصلاحات المستشرق الألمانى أنوليمان بصفحة ٢٨٠ من هذا الكتاب . والنقط تشير

إلى قطع مطموسة أو مكسورة من النقش . ويظهر أن المراد « بعثر المشرق » الإلهة عشتروت الشهيرة

التي كان يظن قبلا أن عبادتها مقصورة على الفينيقيين ، ثم أثبتت الآثار اليمنية أنها كانت معبودة فى اليمن

أيضا . فكان ينبغى إذن أن يقال فى ترجمة هذا النقش : « بمجد سيدتهم عشتروت المشرقة » .

فاللغات اليمنية القديمة مستقلة تمام الاستقلال عن اللغة العربية، ولكنها تؤلف معها ومع اللغات الحبشية السامية شعبة لغوية واحدة يطلق عليها اسم «الشعبة السامية الجنوبية» (١). وذلك أن صلات القرابة التي تربطها بهذين الفرعين أقوى كثيراً من صلات القرابة التي تربطها بشعبة اللغات السامية الشمالية، كما يبدو ذلك من الموازنة بينها في أصول الكلمات والأصوات والقواعد (٢). وتختلف هذه الفروع الثلاثة نفسها في مبلغ قربها بعضها من بعض. فصلة القرابة بين اللغات اليمنية القديمة واللغات الحبشية السامية أقوى كثيراً من صلة القرابة بين كل منهما واللغة العربية. ويرجع السبب في ذلك إلى أن اللغات الحبشية السامية قد انشعبت عن اللغات اليمنية، وأن الفضل في نشر اللسان السامي ببلاد الحبشة يرجع إلى المهاجرين الأولين من بلاد اليمن كما سيأتي بيان ذلك في الفصل الخامس. وتختلف هذه الفروع الثلاثة كذلك في مبلغ بعدها عن الشعبة الشمالية. فمسافة الخلف بين الشعبة الشمالية من جهة واللغات اليمنية والحبشية من جهة أخرى أضيق من مسافة الخلف بين هذه الشعبة واللغة العربية (٣).

ولا نعلم على وجه اليقين متى نشأت اللغة اليمنية القديمة. ولكن يؤخذ من شواهد كثيرة أنها نشأت في عصور سحيقة في القدم قبل الميلاد المسيحي، وأنها عاشت قروناً عديدة كانت في أثنائها لغات حديث وكتابة وآداب. غير أنه لم يصل إلينا منها إلا النقوش التي سبقت الإشارة إليها. ومع كثرة هذه النقوش ووفرة مادتها اللغوية فإن كثيراً من عباراتها لا يزال غير واضح الدلالة، وذلك لما تشتمل عليه من عبارات دينية مبهمة، واصطلاحات غامضة تتعلق بفن المعمار، وكلمات غريبة لا نظير لها في اللغات السامية الأخرى. ولذلك كثيراً ما يقنع الباحثون في مثل هذه العبارات باستخلاص معناها العام في صورة تقريبية ظنية على ضوء سياق الحديث.

٣ — أدوارها وأقسامها:

تنقسم اللغات اليمنية القديمة أقساماً كثيرة من أهمها اللهجات الآتية:

(١) وهي مقابل الشعبة الشمالية التي تتألف — كما سبقت الإشارة إلى ذلك — من الأكادية والكنعانية (الفينيقية والعربية) والآرامية.

(٢) من أهم ما يمتاز به هذه الشعبة الجنوبية (العربية واليمنية والحبشية) عن الشعبة الشمالية فيما يتعلق بالقواعد اشتغالها على طريقة جمع التكسير، على حين أنه لا يوجد في الشعبة الشمالية إلا طريقة الجمع

السالم Renan op. cit. 315.

(٣) V. Ronan op. cit. 315.

١ — اللهجة المعينية (Minéen (Ma'in). وهي تنسب إلى المعينيين الذين أنشئوا بجنوب اليمن أقدم مملكة في بلاد العرب. وكانت عاصمة مملكتهم هذه مدينة قرنا أو قرنانا. ولا نعلم على وجه اليقين متى نشأت هذه المملكة. ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنها تكونت حوالي القرن الثامن ق. م.

وكان بيد المعينيين زمام التجارة بين الهند من جهة وبلاد العرب وما إليها من جهة أخرى. فكانت قوافلهم التجارية تتجه من سواحل المحيط الهندي إلى القسم الشمالي في البلاد الكنعانية مارة بسواحل البحر الأحمر. ومن أجل ذلك امتد نفوذهم إلى المناطق الشمالية، وكان لهم بها بعض مستعمرات متاخمة للبلاد الكنعانية — الآرامية تسكنها جاليات منهم.

وقد وصلت إلينا اللهجة المعينية عن طريق نقوش عثر على بعضها في هذه المستعمرات الشمالية وعلى بعضها في بلاد اليمن نفسها.

٢ — اللهجة السبئية Sabéen. وهي تنسب إلى السبئيين الذين قوضوا ملك المعينيين، وأقاموا على أنقاضه مملكة كان لها شأن كبير في التاريخ القديم، وهي مملكة سبأ التي كانت عاصمتها مدينة مأرب الشهيرة.

وقد وصلت إلينا اللهجة السبئية عن طريق نقوش كثيرة عثر عليها حديثاً في مختلف بلاد اليمن، وخاصة في منطقة مأرب. ويظهر أن السبئيين لم تكن لهم جاليات في الشمال كما كان للمعينيين. ولذلك لا تجد بين النقوش اليمنية التي عثر عليها في الشمال ما هو مدون باللهجة السبئية.

وقد اشتبك السبئيون مع كثير من الدويلات اليمنية الأخرى في صراع وحروب كتب لهم فيها النصر، فاتسعت بذلك رقعة مملكتهم اتساعاً كبيراً؛ وظلوا قابضين على زمام الحكم حتى انتزعه منهم الأحباش الذين غزوا اليمن لأول مرة في أواخر القرن الرابع الميلادي (سنة ٣٧٥).

واشتبكت لغتهم كذلك مع كثير من اللهجات اليمنية الأخرى في صراع كتب لها فيه النصر، فظلت لها السيادة في بلاد اليمن في أثناء المدة الطويلة التي استغرقتها ملكهم، بل بقيت سيادتها في أثناء الحكم الحبشي الأول لهذه البلاد (٣٧٥ — ٤٠٠ بعد الميلاد).

٣ — اللهجة الحميرية القديمة^(١). وهي تنسب إلى جماعات حمير التي ظلت تنازع

(١) وصفناها بالقديمة تمييزاً لها عن لهجة حمير بعد أن تغلبت العربية على ألسنتهم. وهذه اللهجة

الأخيرة هي التي بعينها معظم مؤرخي العرب حينما يتكلمون عن لهجة حمير. ويستثنى من هؤلاء أبو عمرو ابن العلاء فإنه كان يعني الحميرية القديمة إذ يقول «مالسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا».

السببيين السلطان مدة طويلة بدون أن تقوى على انتزاعه من أيديهم . وقد اشتبكت لهجتهم في صراع مع اللهجة السبئية ، ولكنها لم تقو كذلك على التغلب عليها أو انتقاص شيء من مناطقها ، وظل الحال كذلك حتى طرد الأحباش لأول مرة من بلاد اليمن سنة ٤٠٠ م وتولى الحكم فيها أسرة حميرية (١) . ومن ذلك الحين أخذ نجم اللغة الحميرية في البروز ، فاستأثرت بكثير من مظاهر السيادة والنفوذ الأدبي في بلاد اليمن ، كما تدل على ذلك النقوش التي وصلت إلينا عن هذا العصر .

٤ - اللهجة القتبانية : وهي تنسب إلى قبائل قتبان Quataban التي أنشأت مملكة كبيرة في المناطق المسماة بهذا الاسم ، وهي المنطقة الساحلية الواقعة شمال عدن ، وقد نشبت بين مملكتهم ومملكة سبأ حروب كثيرة كان من نتائجها انقراض مملكتهم واندماج قبائلهم في القبائل السبئية . وتم هذا في أواخر القرن الثاني ق . م .

وقد وصلت إلينا اللهجة القتبانية عن طريق بعض نقوش عثر عليها في بلاد اليمن .
٥ - اللهجة الحضرمية : وهي تنسب إلى قبائل حضرموت التي أنشأت في المنطقة الجنوبية المسماة بهذا الاسم حضارة زاهرة ومملكة قوية . وظلت مملكتهم هذه تنازع سبأ السلطان مدة غير قصيرة . ولكن كتب النصر في النهاية لسبأ ، فأزالت مملكة حضرموت كما أزال مملكة قتبان .

وقد وصلت إلينا اللهجة الحضرمية عن طريق نقوش عثر عليها في مواطنها القديمة .



وغنى عن البيان أن الذي وصل إلينا عن هذه اللهجات لا يمثل إلا لغة الكتابة أو لغة الآداب . ولذلك لا يظهر من النقوش المتعلقة بأية لهجة منها أى أثر لتطور جوهري : فلا يكاد يوجد فرق يعتد به بين اللغة المدون بها أقدم نقوشها واللغة المدون بها أحدثها ، مع أن الفاصل بين هذين النوعين قد يصل أحياناً إلى تسعة قرون (٢) . ولا غرابة في ذلك ، فلغات الكتابة تميل دائماً إلى المحافظة والجمود . أما لغات المحادثة في هذه البلاد ،

(١) امتد حكم هذه الأسرة حتى سنة ٥٢٥ م ، وكان ملوكها يلقبون بالقبيلة جمع تبع بضم التاء وتشديد الباء المفتوحة ، وكان آخر ملوكها ذا نواس ، ثم تغلب الأحباش مرة ثانية على بلاد اليمن وأسقطوا ملكها ذا نواس ، وظلوا قابضين على زمام الحكم حتى سنة ٥٧٠ م ، ثم انتزعه منهم الفرس الذين حكموا هذه البلاد إلى عهد الفتح الإسلامي .

(٢) يرجع أقدم نقش في بعض هذه اللهجات إلى القرن الثالث ق . م . على حين أن أحدثها يرجع تاريخه إلى القرن السادس بعد الميلاد .

فلا بد أن يكون قد نالها كثير من التطور ، لأن هذا النوع من اللغات لا يستقر على حال ولا يمكن لأية قوة أن تجمد به أو تعوق تطوره ، كما يمكن ذلك أحياناً حيال لغات الكتابة . غير أنه لم يصل إلينا لسوء الحظ شيء ما عن لغات التخاطب في هذه البلاد .

٣ - الرسم اليميني :

يعرف الخط اليميني عند العرب بالخط المسند^(١) . وهو مشتق من الرسم السكنعاني^(٢) ويشبهه من عدة وجوه . ولكنه يمتاز عنه بجمال التنسيق والأشكال الهندسية المنظمة التي يتكون منها كثير من حروفه . ويكتب في الغالب مستعرضاً من اليمين إلى الشمال . وأحياناً يكتب بالطريقة الشعبانية : فيرسم السطر الأول من اليمين إلى الشمال والثاني من الشمال إلى اليمين والثالث من اليمين إلى الشمال وهكذا . وعدد حروفه تسعة وعشرون حرفاً ترمز إلى تسعة وعشرين صوتاً ساكناً . أما أصوات المد طويلها وقصيرها فلا يرمز هذا الرسم إلى شيء منها . وهكذا شأن جميع الأنواع القديمة للرسم السامي ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك^(٣) . ولذلك لم نقف على كيفية النطق بكلمات اللغات اليمنية القديمة على وجه يقيني . فهي لم تصل إلينا إلا عن طريق النقوش المدونة بهذا الرسم ، وتجرد هذا الرسم من حروف المد يجعل قراءة كل كلمة محتملة لعدة وجوه .

٤ - نهاية اللغات اليمنية :

أتاحت مجاورة اللغة العربية للغات اليمنية القديمة فرصاً كثيرة للاحتكاك اللغوي ، فاشتبكت معها في صراع استغرق أمداً طويلاً ، وانتهى في المراحل الأخيرة من العصر الجاهلي بانتصار العربية على هذه اللغات في كثير من المناطق ، وفقاً لقانون الصراع بالمجاورة الذي تكلمنا عنه طويلاً في كتابنا « علم اللغة »^(٤) . فقد كانت اللغة العربية في هذا العصر أرقى كثيراً من اللغة اليمنية القديمة ثقافة وآداباً ، وأغزر مفردات ، وأدق قواعد ، وأقدر منها في مجال التعبير عن مختلف فنون القول . وكان النفوذ العربي في نواحي التجارة والسياسة والثقافة والأدب والدين قد أخذ حينئذ يتغلغل في بلاد اليمن ،

(١) سمي بذلك لأن معظم حروفه تستند إلى أعمدة ، وتمثل بذلك طرازهم المعماري الذي كان يرتكز على الأعمدة في تشييد القصور والمعابد والسدود وأبواب المدن والأسوار . وهلم جرا .

(٢) يذهب بعض العلماء إلى عكس ذلك ، فيدعي أن السكنعاني هو الذي اشتق من خط المسند ، ولم يبق على صحة هذا الرأي دليل يعتد به ، بل قام على بطلانه أدلة كثيرة .

(٣) انظر صفحة ٣٠ .

(٤) انظر الفقرة الثالثة من الفصل الرابع من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

التي كانت في ذلك العصر في دور انحلال كبير تمزقها الفتن والمنازعات الداخلية، ويتناوب حكمها الأحباش تارة والفرس تارة أخرى . فجميع الظروف التي تقتضيها قوانين التغلب للغوى والتي فصلناها في كتاب « علم اللغة » كانت مهيأة لتغلب اللغة العربية على اللغات اليمنية القديمة . فحالة اللغة العربية في صراعها مع هذه اللغات كانت شبيهة بحالة اللغة الألمانية في صراعها مع لهجات المناطق السويسرية المجاورة لألمانيا ، وحالة اللغة الفرنسية في صراعها مع لهجات المناطق البلجيكية والسويسرية المجاورة لفرنسا . فقد كتب النصر في هذين المثالين للألمانية والفرنسية لتوافر نفس الظروف التي توافرت للغة العربية في الحالة التي نحن بصدددها . بل أن قوة القرابة بين العربية واللغات اليمنية قد زودت العربية في صراعها هذا بسلاح لم يتوافر مثله للألمانية والفرنسية في الحالات السابقة . فمن المقرر أن قوة القرابة بين اللسانين المتصارعين تذلل لأرقاهما سبل الانتصار^(١) .

غير أن اللغة العربية قد نالها في السنة أهل اليمن بعض التحريف في أصواتها ومفرداتها وقواعدها وفقاً لقوانين التغلب المشار إليها^(٢) . وقد أصابها هذا التحريف في ألسنتهم تحت تأثير لهجاتهم القديمة ، ومفرداتها ، وخواصها الصوتية ، والتكوين الطبيعي لأعضاء نطقهم ، وما درجوا عليه من عادات في اللفظ ، وما كان يكتنفهم من ظروف طبيعية وجغرافية واجتماعية تختلف في جوهرها عما كان يكتنف عرب نجد والحجاز ، وما كانوا يمتازون به في ثقافتهم وتفكيرهم واتجاهاتهم الوجدانية ... وهلم جرا . فنشأ من جراء هذا كله في بلاد اليمن لهجة عربية أو لهجات عربية تختلف بعض الاختلاف عن لهجات الشمال في بعض مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات^(٣) .

ولكن هذا الخلاف لم يكن ليزيد على الخلاف بين لهجات اللغة الواحدة . ففي المرحلة الأخيرة للعصر الجاهلي كان أهل الحجاز ونجد يتفاهمون مع أهل اليمن كما يتفاهم في العصر الحاضر سكان الصعيد مع سكان الوجه البحري ، أو كما يتفاهم أهل باريس مع

(١) انظر الفصل الرابع من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

(٢) انظر الفصل الرابع من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

(٣) فن مظاهر الاختلاف في المفردات أن اليمانيين كانوا يسمون الذئب « القلوب » بكسر القاف وسكون

اللام ، والأصابع « الشنائر » ، والصدى « الحلم » . (انظر الصاحي ١٢٦) ، ومن مظاهر الاختلاف في القواعد أداة التعريف ، فقد كانت أم عند أهل اليمن ، وبلغتهم جاء الحديث : « ليس من أمير أمصيام في أمسفر » .

الاقتصاد والسياسة والثقافة والدين يتغلغل قبل الاسلام بأمد طويل في كثير من البلاد المجاورة لها وخاصة في بلاد اليمين . هذا إلى أن اللغة العربية كانت حينئذ أرقى كثيراً من اللغات اليمينية القديمة ثقافة وآداباً ، وأعز مفردات ، وأدق قواعد ، وأقدر منها في مجال التعبير عن مختلف فنون القول . فجميع الظروف التي تقتضيها قوانين التغلب اللغوي الناشئ عن صراع لغتين متجاورتين ، والتي فصلناها في كتاب « علم اللغة » (١) ، كانت مهيأة لتغلب اللغة العربية على اللغات اليمينية القديمة ، وما كان يمكن معها أن تفلت اللغات اليمينية من هذا المصير .

٢ - على أن أسباب تغلب لغة على لغة ليست مقصورة - كما تبادر إلى أذهان الباحثين الذين نحن بصددهم - على السيادة السياسية والاقتصادية ، بل ترجع كذلك إلى عوامل أخرى كثيرة ذكرناها بتفصيل في كتاب « علم اللغة » (٢) ، بعضها يتعلق بعدد الناطقين بكلتا اللغتين وبعضها يتعلق بمبلغ كشافتهما وضغطهم على الحدود المجاورة لهم ، وبعضها يتعلق بمبلغ رقي اللغة وثروتها في الآداب والعلوم ، وغزارة مفرداتها ، ودقة قواعدها ، واتساعها للتعبير عن مختلف فنون القول . بل أن السيادة السياسية لا تسكفي وحدها لتغلب لغة على لغة . فاللغة اللاتينية مثلاً لم تقو على التغلب على اللغة اليونانية ، مع أن اليونان كانوا خاضعين للرومان ؛ واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية ، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلاً ؛ واللغة التركية لم تقو على التغلب على أية لغة من لغات الأمم التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية بأوروبا وآسيا وأفريقيا . بل كثيراً ما حدث في التاريخ أن تغلبت لغة الأمة المقهورة سياسياً على لغة أسياها القاهرين ، إذا توافرت لها شروط التغلب اللغوي ؛ كما حدث للغة الغزاة من النورمانديين مع لغة الشعب الإنجليزي الذي قهره . فقد قضت قوانين الصراع اللغوي أن تتغلب لغة هذا الشعب على لغتهم ، فأخذت لغتهم تنقرض شيئاً فشيئاً حتى زالت ، وأصبحت سلالات النورمانديين يانجلترا يتكلمون الإنجليزية .



هذا وقد زادت اللغة العربية رسوخاً في بلاد اليمين بعد ظهور الإسلام . فقد كان

(١) انظر الفقرة الثالثة من الفصل الرابع من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

(٢) انظر الفصل الرابع من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

لاعتناق اليمنيين الدين الاسلامي المرتبطة أصوله باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً، وخضوعهم للنفوذ العربي السياسي، أثر كبير في تثبيت قدم اللغة العربية في هذه البلاد. فساعد ذلك على سعة انتشارها، وزادها قوة على قوة في صراعها مع اللغات اليمنية القديمة، فقصت على البقية الباقية منها، وعربت بعض السنة كانت لا تزال إلى ذلك العصر باقية على يمينتها.

غير أنه قد أفلت من هذا المصير في اليمن بعض مناطق متطرفة نائية ساعد انعزالها وانزواؤها على حمايتها من اللغة العربية، فظلت محتفظة بلهجاتها القديمة حتى العصر الحاضر. وأشهر هذه اللهجات اليمنية الباقية ثلاث لهجات: إحداها اللهجة المهرية Mahri, mehri التي يتكلم بها الآن في منطقة مهرة Mahra الواقعة شرق حضرموت؛ وثانيها لهجة الشحر أو اللهجة الاخكيلية^(١) Shawri, hakili, ehkili, quarawi, grawi وهي منتشرة في منطقة جبلية واقعة في الشرق من منطقة اللهجة المهرية؛ وثالثها اللهجة السقطرية، وهي لهجة جزيرة سقطرة والجزر المجاورة لها. وقد بعدت هذه اللهجات بعداً كبيراً عن أصولها الأولى، بل بعدت عن اللغات السامية جميعها، تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعي، وكثرة المراحل التي اجتازتها في هذا السبيل، وطول عمرها، وتأثرها باللغات التي احتكت بها وخاصة اللغة العربية^(٢).



وقد كان المشهور المتداول عند الباحثين من العرب أن اللغة اليمنية واللغة العربية

(١) أطلق عليها هذا الاسم الأستاذ فورجنس فرانل Furgence Frasnél وهو أول من كشفها إذ كان قنصلاً لفرنسا بمجدة. وقد سماها باسم القبائل التي تتكلم بها 309, 310 V. Renan op. cit. والمشهور تسميتها بلغة حكلى (بجاء مهملة مكسورة فكاف ساكنة فلام مكسورة) وتكلم بها قبيلة القرى الضاربة في بلد مرياط من ناحية ظفار الجبوظي. أنظر كلمة عنها وعن لغة مهرة وبعض أمثلة من مفرداتها في المجلد الرابع ص ٤١٩ من مجلة الزهراء. وقد ألف بعض المستشرقين كتباً في هذه اللغات من أشهرها كتاب «اللغة المهرية في جنوب جزيرة العرب» Die Mehri Sprache in Südarabien تأليف A. Jahn طبع في فيينا سنة ١٩٠٢؛ وكتاب «اللغة المهرية والسقطرية» Die Mehri und Soqotri Sprache طبع في فيينا سنة ١٩٠٢ - ١٩٠٧ في ثلاثة مجلدات؛ ورسائل متعددة من تأليف N. Rhodokanakis؛ M. Bittner وهي مطبوعة في منشورات المعهد العالمي بفينا سنة ١٩٠٩ وبعدها. — (أنظر ما كتبه الأستاذ نالينو بهذا الصدد في ص ٤٩٣ بالمجلد الرابع من مجلة الزهراء لمنشأها الأستاذ محب الدين الخطيب).

(٢) يقرر الباحثون أن اللغات الآرامية الباقية في العصر الحاضر والتي تكلمنا عنها بصفحة ٥٤، ٥٣ لم تبعد عن اللغات السامية بمقدار ما بعدت عنها هذه اللهجات اليمنية الثلاث.

تمثلان لهجتين للغة واحدة، وأن الخلاف بينهما لا يعدو أموراً يسيرة يبدو بعضها في الأصوات والمفردات وبعضها في القواعد^(١). ولذلك كانوا يقسمون العربية قسمين: العربية العدنانية أو المعدية أو المضرية وهي لغة الشمال (الحجاز ونجد وما اليهما)؛ والحيرية أو القحطانية وهي لغة أهل اليمن.

وهذا الرأي صحيح فيما يتعلق بلهجات أهل اليمن بعد أن تغلبت العربية على ألسنتهم كما تقدم بيان ذلك^(٢). ولكنه غير صحيح فيما يتعلق باللغات اليمنية القديمة التي هي موضوع هذا الفصل. فقد تبين مما سبق أنها ليست من اللغة العربية في شيء، وإن كانت تؤلف معها شعبة لغوية واحدة. وقد فطن إلى ذلك بعض باحثي العرب أنفسهم، كأبي عمرو بن العلاء، فقد روى أنه كان يقول: «ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا»^(٣).

(١) انظر تعليق ٣ بصفحة ٦١.

(٢) انظر آخر ص ٦٠ وتوابعها.

(٣) روى ذلك عنه أبو عبد الله محمد بن سلام في كتابه «طبقات الشعراء».

الفصل الخامس

اللغات الحبشية السامية

١ - نشأتها وخواصها :

يرجح الباحثون أن الفضل في نشر اللسان السامي في بلاد الحبشة يرجع إلى عشائر سامية هاجرت إليها من جنوب بلاد العرب (اليمن)، وامتزجت بسكان الحبشة الأصليين الذين كان معظمهم يتألف من أجناس حامية . ولا نعلم على وجه اليقين تاريخ هذه الهجرة، ولكن من المقطوع به أنها حدثت قبل الميلاد المسيحي بعدة قرون . ويؤخذ من شواهد كثيرة أنها لم تحدث مرة واحدة ، بل حدثت على دفعات متتالية .

وقد اشتبك لسان هؤلاء الساميين مع لغات السكان الأصليين في صراع انتهى بانتصاره عليها في بعض مناطق قليلة في مبدأ الأمر؛ ثم أخذ نطاقه يتسع شيئاً فشيئاً حتى بلغت الآن مساحة المناطق السامية اللسان نحو ربع مساحة الحبشة وإريتريا^(١) . ولكن هذه المناطق ، على ضيق مساحتها ، من أكثر المناطق الحبشية كثافة وازدحاماً بالسكان، إذ يبلغ عدد سكانها نحو نصف مجموع السكان في هاتين المملكتين^(٢) . أما بقية سكانها فلا يزال معظمهم يتكلم لهجات حامية كوشية^(٣) . وقليل منهم يتكلم لهجات سودانية^(٤) . وتعد اللهجات الحبشية السامية من الشعبة السامية الجنوبية ، أي أنها تؤلف مع اللغات اليمنية والعربية شعبة على حدة . فوجوه الشبه بينها وبين هذين الفرعين في أصول المفردات والقواعد والأصوات أقوى كثيراً من وجوه الشبه بينها وبين بقية اللغات السامية ؛ وهي إلى اليمنية القديمة أدنى منها إلى اللغة العربية . غير أن طول احتكاكها باللهجات الحامية التي كان يتكلم بها معظم السكان الأصليين والتي لا يزال يتكلم بها قسم كبير منهم ، قد ترك فيها آثاراً كثيرة من هذه اللهجات فنقل إليها مجموعة كبيرة من

(١) تبلغ مساحة الحبشة نحو مليون كيلو متر مربع وتبلغ مساحة إريتريا نحو ٧٥ ألف كيلومتر مربع .

(٢) يبلغ عدد الناطقين باللسان السامي في بلاد الحبشة نحو سبعة ملايين نسمة .

(٣) انظر آخر ص ١٧ وأول ص ١٨ .

(٤) انظر تفصيل اللهجات السودانية في الفقرة الرابعة من الفصل الثالث من كتابنا « علم اللغة » .

مفرداتها، وصبغها بصبغتها في كثير من مظاهر الأصوات والقواعد، فاكسبت بذلك صفات خاصة أبعدها عن بقية اللغات السامية. ويظهر هذا التأثير بشكل واضح في اللهجة الأمهرية وما تفرع منها كما سيأتي بيان ذلك.

٢ -- الرسم الحبشي :

يظهر أن الساميين النازحين إلى الحبشة قد استخدموا في المبدأ في كتابة لغتهم الرسم السبئي السابق ذكره في الفصل الرابع ^(١)؛ وهو الذي كانوا يستخدمونه في مسقط رؤوسهم بالين. ثم اشتق من هذا الرسم رسم خاص أطلق عليه اسم الرسم الحبشي، أو الجعزي (نسبة إلى اللهجة الجعزية، وهي أقدم اللهجات السامية بالحبشة كما سيأتي بيان ذلك). ومن الراجح أن هذا الرسم قد ظهر في القرن الثالث الميلادي. ولكنه لم يمح الرسم السبئي القديم محو تاماً، بل ظلاً يستخدمان معاً مدة طويلة كما يدل على ذلك نقش الملك «عزانا Aeyzana, Ezana» الذي سنتكلم عنه في الفقرة التالية؛ فمع أن تاريخ هذا النقش يرجع إلى القرن الرابع الميلادي، فإن الرسم السبئي القديم قد استخدم فيه مع الرسم الحبشي.

ويتفق الرسم الحبشي القديم مع الرسم السبئي الذي اشتق منه ومع الرسوم السامية القديمة في تجرده من الرمز إلى أصوات المد. فكان يشتمل على ستة وعشرين حرفاً ترمز جميعها إلى أصوات ساكنة ^(٢).

ثم ظهر بعد ذلك علامات ترمز إلى أصوات المد؛ وأخذ عدد هذه العلامات يزيد شيئاً فشيئاً حتى بلغت ست علامات تشير إلى ستة أصوات من هذا النوع. ويضاف إلى هذه الأصوات صوت سابع ينطق به أحياناً بعد الحرف الساكن إذا رسم مجرداً من إحدى هذه العلامات الست. وقد أخذت أهمية هذه العلامات تزيد شيئاً فشيئاً حتى أصبحت عناصر أساسية في رسم الكلمات، كما هو الشأن في الرسم الأوروبي. غير أنها ليست ممثلة في حروف مستقلة كما هو الشأن في هذا الرسم الأخير، ولا في حركات توضع فوق الحروف وتحتها كما هو الشأن في الرسم العربي؛ بل تتمثل في تغيير يلحق صورة الحروف الساكنة نفسها. فشكل الحرف الساكن نفسه يتغير تبعاً لصوت المد الذي يلحقه. وبذلك أصبح لكل حرف ساكن سبعة أشكال متميزة يرمز كل منها إلى نوع خاص من أنواع الحركة التي تليه.

(١) انظر ص ٦٠.

(٢) زيد في الرسم الأمهري سبعة أحرف على حروف الهجاء الحبشية القديمة وهي حروف الرسم الجعزي، ليرمز بها إلى أصوات تمتاز بها اللغة الأمهرية ولا يوجد لها نظير في الجعزية V. Renan, op. cit 317.

ويظهر أن هذا التطور لم يستغرق أمداً طويلاً ، بل كان نتيجة اصطلاحات قام بها بعض الأفراد في فترة قصيرة . يدل على ذلك أن الفاصل ليس كبيراً بين تاريخ النقوش المدونة بالطريقة القديمة المجردة من الرمز إلى أصوات المد ، وتاريخ النقوش المدونة بالطريقة الحديثة السابق ذكرها .

والرسم الحبشى القديم كان يكتب من اليمين إلى الشمال ، كما كان يكتب الرسم السبئى الذى اشتق منه ، ثم انحرف بعد ذلك عن طريقته هذه ، فأصبح يكتب من الشمال إلى اليمين ، وظل على هذه الحال إلى الوقت الحاضر .

٣ — أقسام اللغات الحبشية السامية وخصائص كل قسم وأهم آثاره :

تنقسم اللهجات الحبشية السامية أقساماً كثيرة من أهمها ما يلي :

١ — اللهجة الجعزية (guèze) وهى مسماة باسم الشعب الجعزى الذى يعد من أقدم الشعوب السامية التى نزحت إلى الحبشة . ويطلق عليها أحياناً اسم اللغة الحبشية القديمة Ethiopien ancien ou classique ، وأحياناً اسم « اللغة الحبشية » مجرداً من كل وصف Ethiopien . وهى من أقدم اللهجات الحبشية السامية إن لم تكن أقدمها على الإطلاق . ولم يصل إلينا شيء عنها فى أدوارها الأولى ، وأقدم ما وصل إلينا من آثارها يرجع تاريخه إلى سنة ٣٥٠ بعد الميلاد . وأهم هذه الآثار نقوش عشر عليها بمدينة أكسوم (عاصمة البلاد فى هذه العصور) ينسب بعضها للملك عزانا Ezana وبعضها للملك آل عميدا Ela Amida وبعضها للملك تازانا Tazana . وبجانب هذه النقوش وصل إلينا عن هذه اللغة ترجمة للكتاب المقدس وبعض مؤلفات دينية ترجم معظمها عن اليونانية .

أما نقش الملك عزانا فى تاريخه إلى سنة ٣٥٠ بعد الميلاد ، وهو أقدم ما كشف من الآثار الجعزية . وهو مدون من صورتين : إحداهما بالرسم السبئى ، وثانيتهما بالرسم الحبشى القديم الذى لا يرمز إلا إلى الأصوات الساكنة .

وأما آثار الملك آل عميدا ، فترجع إلى نقشين : أحدهما مقطوع بصحة نسبته إلى هذا الملك وهو مدون بالرسم السبئى ، وثانيهما يرجحون نسبته إليه وهو مدون بالرسم الحبشى الحديث الذى يرمز إلى أصوات المد . ويظهر من هذا ومن شواهد أخرى كثيرة أن إصلاح الرسم الحبشى الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة قد تم فى عهد هذا الملك . ويظهر كذلك من هذا النقش أن أصوات اللغة الجعزية قد أخذت فى ذلك العصر

تنحرف بعض الشيء عن أوضاعها الأولى متأثرة في ذلك باللغات الحامية للسكان الأصليين .

وأما آثار الملك تازانا ابن الملك آل عميدا السابق ذكره ، فهي عبارة عن نقشين كتب أولهما قبل أن يعتنق هذا الملك الدين المسيحي ، وثانيهما بعد اعتناقه له (القرن الخامس الميلادي ، وهذا هو مبدأ دخول المسيحية في منطقة أ كسوم) (١) . وهذان النقشان من أغنى النقوش الجعزية مادة ، إذ يشتمل أحدهما على ثلاثين سطراً والآخر على خمسين .

وأما ترجمة الكتاب المقدس إلى الجعزية فقد تمت على ما يظهر في القرن الخامس الميلادي . ولغة هذه الترجمة لا تكاد تختلف في شيء عن اللغة التي كتب بها نقشا الملك تازانا السابق ذكرهما .

وأما المؤلفات الأخرى فيرجع تاريخها إلى مبدأ العهد المسيحي في الحبشة (أواخر الرابع وأوائل الخامس بعد الميلاد) ، ومعظمها مترجم عن اليونانية ، وتتصل موضوعاتها بالكتاب المقدس وشرحه . وتمتاز اللغة الجعزية التي دونت بها هذه المؤلفات عن الجعزية في العصور السابقة بتحررها من كثير من القواعد القديمة وبتأثرها باللغة اليونانية .

هذا ، ولم تعمّر الجعزية طويلاً في ميادين التخاطب . فمنذ انهيار مملكة أ كسوم وقيام مملكة كوا Choa على أنقاضها تحت حكم الأسرة الأمهرية التي سيأتي ذكرها ، أخذ نجم الجعزية في الأفول ، وأخذت الأمهرية تطاردها وتقتحم عليها معاقبها حتى انتزعتها منها جميعاً أو معظمها ، فانقرضت من لهجات الحديث كل الانقراض ، أو لم يبق لها فيها إلا فلول ضئيلة (٢) . غير أن الجعزية ، بعد انقراضها من ميادين التخاطب ، قد آوت إلى ركن شديد في ميادين الكتابة والأدب والدين ، فاستأثرت بهذه الشؤون في معظم المناطق الحبشية ؛ وظلت مستأثرة بها حتى العصر الحاضر ؛ وإن كانت الأمهرية قد أخذت تنازعها هذا السلطان نفسه منذ أواخر القرن التاسع عشر كما سيأتي بيان ذلك .

(١) أول عهد الحبشة بالنصرانية كان في القرن الرابع ، ويرجع الفضل في إدخالها في هذه البلاد إلى فرومونتوس اليوناني .

(٢) بقيت الجعزية لغة مخاطب في مناطق ضيقة . وقد بعدت في هذه المناطق بعداً كبيراً عن أصلها وانتهت إلى ما يسمونه الآن اللغة التيجرينية التي سيأتي الكلام عنها .

واللغة الجعزية قريبة كل القرب من أختها العربية واليمنية . ولكنها تمتاز عنهما بمميزات جوهرية كثيرة في مظاهر الصوت والدلالة والمفردات والقواعد . فمن ذلك عدم التمييز في الجعزية بين المذكر والمؤنث في الأسماء ، وتجردها من أداة التعريف ، واشتمالها على بعض مفردات أجنبية انتقلت إليها من اللهجات الحامية ومن اللغة اليونانية ، وعلى مفردات سامية تتفق فيها مع اللغة العبرية ، ولكن لا يوجد لها نظير في أختها اليمنية والعبرية .

٢ - اللغة الأمهرية . وهي اللغة المستخدمة الآن في التخاطب في معظم المناطق الحبشية السامية اللسان . وكانت في الأصل لهجة القبائل الأمهرية (نسبة إلى منطقة أمهرا Amhara) . ولكن منذ أن تقوضت مملكة أكسوم ، وقبض على زمام الحكم سنة ١٢٧٠ أسرة أمهرية من منطقة كوا Choa (الجنوب الغربي من بلاد الحبشة)^(١) ، أخذ نطق هذه اللغة يتسع شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى الحد الذي وصفناه . ولم يقتصر نفوذها على ميادين التخاطب بل امتد كذلك إلى شؤون الكتابة والآداب . فمنذ عهد بعيد تستخدم الأمهرية في أمور الدواوين والمكاتبات الرسمية في جميع الممالك الحبشية ، وظلت مستاثرة بهذه الشؤون حتى العصر الحاضر . ومنذ القرن التاسع عشر أخذت تنزع الجعزية سلطان الآداب والعلوم والدين ، فألف بها بعض كتب أدبية ، وترجم بها بعض آثار اللغة الجعزية ، ونفذت في العصر الحاضر إلى ميدان الصحافة والمصنفات العلمية والدينية ، فقلت بذلك أهمية اللغة الجعزية وأصبحت مجهولة لدى كثير من العلماء ورجال الدين أنفسهم .

وأقدم ما وصل إلينا عن الأمهرية بعض قصائد حربية يرجع تاريخها إلى القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد . وفضلاً عن صراعها السابق ذكره مع أختها الجعزية ، فقد اشتبكت مع اللهجات الحامية الكوشية ، وخاصة في المناطق الجنوبية ، في صراع آخر انتهى باتصارها في كثير من المواطن . فاتسع بذلك نطق اللسان السامي في الحبشة ووصل إلى الحد الذي تكلمنا عنه في صدر هذا الفصل . وحتى فيما وراء هذا الحد ، أي في المناطق التي لا تزال محتفظة بلسانها الكوشى ، تتمتع الأمهرية بسلطان كبير وتعتبر لغة ثانية للسكان . هذا ، وإن كثرة احتكاكها باللهجات الحامية ، وطول صراعها معها ، وانتقالها إلى

(١) تنسب هذه الأسرة إلى الملك سليمان وملكة سبأ .

ألسنة كثير من أهلها ، كل ذلك قد ترك بها آثاراً كثيرة من هذه اللهجات . وتبدو هذه الآثار في مختلف مظاهر اللغة : فتبدو في الأصوات والمفردات ، كما تبدو في القواعد وأساليب التركيب . فقد حذف منها بعض أصواتها السامية القديمة ، واستبدل ببعضها أصوات أخرى ، ودخل فيها أصوات حامية جديدة ^(١) . وانقلبت فيها جميع القواعد السامية القديمة رأساً على عقب ، وتغيرت فيها أشكال الضمائر ، وانقرضت منها معظم قواعد الجمع والتأنيث . أما مفرداتها فنصفها على الأقل قد انتقل إليها من اللهجات الحامية ، والنصف الآخر السامي قد اجتاز مراحل كثيرة في التطور الصوتي حتى بعد بعداً كبيراً عن أصله . ولهذا كله اتسعت مسافة الخلف التي تفصل الأمهرية عن بقية أخواتها السامية .

ولا تزال الأمهرية محتفظة بوحدتها على الرغم من سعة انتشارها . فهي لم تتشعب بعد إلى لهجات متميز بعضها عن بعض . والفروق التي توجد بين المناطق الأمهرية اللسان بهذا الصدد ، هي في جملتها فروق يسيرة لم تصل بعد إلى الحد الذي يجعل من لسان كل منطقة لهجة متميزة . ومع ذلك يفرق كثير من المحافظين بين هذه الألسنة في مبلغ فصاحتها ، وأفصحها جميعها في نظرهم هو لسان مدينة جوندار Gondar الواقعة في شمال منطقة أمهرا والتي كانت عاصمة للبلاط من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر .

٣ — لهجة تيجرينيا ، أو اللهجة التيجرينية Tigréen, Tigrigna . وهي متفرعة من اللغة الجعزية ^(٢) ، ويتكلم بها في منطقة تيجرينيا التي تتوسطها مدينة أكسوم . ويندر استخدام هذه اللغة في الكتابة ، ولذلك لم تتح دراستها إلا عن طريق المشافهة . ولم يعن العلماء بدراستها إلا في المراحل الأخيرة من القرن التاسع عشر . وقد اشتبكت الأمهرية في صراع مع هذه اللهجة ، ولكنها لم تستطع التغلب عليها ، وإن كانت قد تركت فيها كثيراً من الآثار .

٤ — اللهجة التيجرية ^(٣) . وتستخدم هذه اللهجة في المناطق الواقعة في الشمال من

(١) ولذلك زيد في الرسم الأمهري سبعة أحرف على حروف هجاء الرسم الجعزي ، ليرمز بها إلى أصوات تمتاز بها هذه اللغة ولا يوجد لها نظير في الجعزية V, Renan 317 .

(٢) انظر التعليق الثاني من ص ٧٠ .

(٣) حدث التباس في بعض المؤلفات بين هذه اللهجة واللهجة السابقة لتقارب اسميهما ، فجعلنا لهجة واحدة ، مع أن كليهما متميزة عن الأخرى .

منطقة اللهجة السابقة (التيجرينية) . وهى قوية الشبه بالجزرية ، ولكن معظم الباحثين يرى أنها غير متفرعة منها ، بل من لهجة أخرى قديمة لم يصل إلينا شيء من آثارها (١) . وعلى الرغم من عدم استخدامها فى الكتابة ، فهى من اللهجات القوية المنتشرة الاستعمال فى لغات التخاطب بهذه المناطق . فقد تغلبت على السنة كثير من أهل البلاد المجاورة لمنطقتها . وتستخدم ، فضلاً عن هذا ، لغة ثانية لدى بعض العشائر الحامية والسودانية الباقية على السنة القديمة . ويبلغ عدد المتكلمين بها نحو مائة ألف نسمة يتألف معظمهم من القبائل الإسلامية التى تقطن المنطقة الساحلية من مصوع إلى سواكن وجزر دهلك Dahlak . ولعل اعتناق المتكلمين بها للإسلام كان من أهم العوامل التى ساعدتها على مقاومة الأمهرية المسيحية ، فلم تستطع هذه إلى التغلب عليها سبيلاً . ولا ينحدر الناطقون بها من أصول سامية ، بل من أصول حامية كانت تتكلم قديماً لهجات كوشية وتغلب اللسان السامى على السنة . فلهذا السبب ، ولاحتكاكها باللهجات الكوشية التى لا تزال سائدة فى المناطق المجاورة لها ، يظهر فيها كثير من وجوه التأثير باللسان الحامى . هذا إلى أن اعتناق أهلها للدين الإسلامى قد ترك فيها كذلك كثيراً من وجوه التأثير باللغة العربية .

٥ - اللهجات الجوراجية . وهى مجموعة لهجات يتكلم بها فى منطقة جوراجيا Gurague الواقعة فى جنوب منطقة « كوا » الأمهرية جماعات مختلفة الأديان : فمنهم المسلمون ومنهم المسيحيون والوثنيون . وتبلغ مساحة منطقتها نحو عشرة آلاف كيلو متر مربع . وأهم هذه اللهجات اللهجة التشاهية التى يتكلم بها فى منطقة تشاها Tchaha وفى بعض المناطق المجاورة لها . واللهجات الجوراجية جميعها متفرعة من الأمهرية ، ولكنها أحيطت بظروف خاصة أبعدتها عن أصلها وجعلت منها لهجات متميزة (٢) .

٦ - لهجة مدينة هرر . وهى متفرعة كذلك من اللغة الأمهرية (٣) ، ولكنها بعدت عن أصلها بعداً كبيراً حتى أصبحت الآن لهجة متميزة غير مفهومة للأمهرين . ويرجع هذا إلى عاملين : أحدهما أنها تأثرت بـلهجات حامية غير اللهجات الحامية التى احتكت بها الأمهرية ، وثانيهما أن اعتناق أهلها للدين الإسلامى قد ترك فيها آثاراً من اللغة العربية فى صورة لا يوجد لها نظير فى الأمهرية المسيحية .

. Brockelmann op. cit 47 (١)

Brockelmann op. cit 49 (٢)

Brockelmann op. cit. 49. (٣)

الفصل السادس

اللغة العربية

(١) شعبتها ومنزلتها من اللغات السامية

تؤلف اللغة العربية مع اللغات اليمنية القديمة واللغات الحبشية السامية شعبة لغوية واحدة يطلق عليها اسم الشعبة السامية الجنوبية. وذلك أن صلات القرابة التي تربطها بهذين الفرعين أقوى كثيراً من صلات القرابة التي تربطها بشعبة اللغات السامية الشمالية، كما يبدو ذلك من الموازنة بينها في أصول الكلمات والأصوات والقواعد. وتختلف هذه الفروع الثلاثة نفسها في مبلغ قربها بعضها من بعض. فصلة القرابة بين اللغات اليمنية القديمة واللغات الحبشية السامية أقوى كثيراً من صلة القرابة بين كل منهما واللغة العربية. ويرجع السبب في ذلك إلى أن اللغات الحبشية السامية قد انشعبت بشكل مباشر عن اللغات اليمنية القديمة، وأن الفضل في نشر اللسان السامي ببلاد الحبشة يرجع إلى المهاجرين الأولين من بلاد اليمن كما تقدم بيان ذلك. وتختلف هذه الفروع الثلاثة كذلك في مبلغ بعدها عن الشعبة الشمالية (الآرامية والكنعانية). فمسافة الخلف بين الشعبة الشمالية من جهة واللغات اليمنية والحبشية من جهة أخرى أضيق كثيراً من مسافة الخلف بين هذه الشعبة واللغة العربية (١).

(٢) نشأتها وأقسامها

على الرغم من أن اللغة العربية قد نشأت في أقدم مواطن الساميين (بلاد الحجاز ونجد وما إليها) فإن ما وصل إلينا من آثارها يعد من أحدث الآثار السامية. فبينما يرجع أقدم ما وصل إلينا من آثار الأكادية إلى ما قبل القرن العشرين ق. م (٢)، ومن آثار العبرية إلى القرن الثاني عشر ق. م (٣)، ومن آثار الفينيقية إلى القرن

(١) تقدمت الإشارة إلى هذه الحقائق بصفتي ٥٧، ٦٧.

(٢) انظر ص ٢٦.

(٣) انظر ص ٣٩.

العاشر ق. م^(١)، ومن آثار الآرامية إلى القرن التاسع ق. م^(٢)، إذ أقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يكاد يتجاوز القرن الأول ق. م، وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد. ولذلك لا نعلم شيئاً عن طفولة اللغة العربية وما اجتازته من مراحل في عصورها الأولى.

وعلى ضوء ما وصل إلينا من آثارها يمكن تقسيمها قسمين : العربية البائدة ، والعربية الباقية .

١ - أما « العربية البائدة » أو « عربية النقوش » فتطلق على لهجات كان يتكلم بها عشائر عربية تسكن شمال الحجاز على مقربة من حدود الآراميين وفي داخل هذه الحدود. ولتطرف هذه اللهجات في الشمال ، وشدة احتكاكها باللغات الآرامية ، وبعدها عن المراكز العربية الأصلية بنجد والحجاز ، فقدت كثيراً من مقوماتها ، وصبغت بالصبغة الآرامية . وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام ، ولم يصل إلينا منها إلا بعض نقوش عشر عليها أخيراً في المناطق السابق ذكرها . ومن أجل ذلك تسمى أحياناً « عربية النقوش » .

٢ - وأما العربية الباقية فهي التي تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها ، والتي لا تزال تستخدم عندنا وعند الأمم العربية الأخرى لغة أدب وكتابة وتأليف . وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد والحجاز ، ثم انتشرت في كثير من المناطق التي كانت تشغلها من قبل أخواتها السامية والحامية ، وانشعبت منها اللهجات التي يتكلم بها في العصر الحاضر في بلاد الحجاز ونجد واليمن وفلسطين والشام والعراق ومصر وبلاد المغرب . وقد وصلت إلينا العربية الباقية عن طريق آثار العصر الجاهلي والقرآن والحديث وآثار العصور الإسلامية المختلفة .

وسنلق في الفقرة التالية نظرة عجيلى على « العربية البائدة » ثم نقف بقية فقرات هذا الفصل على « العربية الباقية » .

(٣) « العربية البائدة » أو « عربية النقوش »

يطلق الآن هذا الاسم على بعض لهجات عربية كانت تستخدم قديماً في بعض مناطق واقعة في الشمال على مقربة من الحدود الآرامية وفي داخل هذه الحدود ، وخاصة في

(١) انظر آخر ص ٣٢ .

(٢) انظر صفحتي ٤٨ ، ٥١ .

واحاح تيماء والحجر (أو مدائن صالح) ومنطقة العلا في شمال الحجاز .
ولم تصل إلينا هذه اللهجات إلا عن طريق نقوش عثر عليها أخيراً في مساحة
واسعة تمتد من دمشق إلى منطقة العلا . وكثير من هذه النقوش عثر عليه في واحتي
الحجر وتيماء .

ويظهر من هذه النقوش أن المتكلمين بتلك اللهجات كانوا في عزلة تامة عن عرب
نجد والحجاز ، وأنهم فقدوا كثيراً من مقوماتهم العربية ، وصبغوا بالحضارة الآرامية
والنبطية ، حتى أنهم ليؤرخون نقوشهم بحرب النبط وتاريخ بصرى وحروب
الفرس والروم .

وتتفق اللغة التي دونت بها هذه النقوش مع « العربية الباقية » في كثير من مقوماتها
وخصائصها في الأصوات والقواعد وأصول المفردات . فهي تشتمل على معظم
الأصوات التي تمتاز بها العربية الباقية عن سائر أخواتها السامية أو يكثر ورودها فيها
دون غيرها كأصوات الذال والشاء والغين المعجمة والضاد . وتشتمل كذلك على أهم
خاصة لقواعد اللغة العربية ، وهي خاصة الإعراب بالحركات ، أي إلحاق أصوات مد
قصيرة بآخر الكلمة لبيان وظيفتها وعلاقتها ببقية عناصر الجملة ^(١) ، وتسير على الطريقة
العربية في صوغ أفعل التفضيل وحذف علامة الإعراب أو شيء منها في حالة إضافة الاسم
إلى ما عداه . وتبدو وجوه الشبه بينهما أظهر ما يكون في أصول المفردات وأسماء
الأعلام ^(٢) .

غير أن العربية البائدة تمتاز عن العربية الباقية بشدة تأثرها باللغة الآرامية ، وتختلف
عنها اختلافاً غير يسير في كثير من مظاهر الصوت والمفردات والدلالة والقواعد .
ومن مظاهر اختلافهما في القواعد أداة التعريف ؛ فهي في هذه اللهجات حرف الهاء ،
أو « هان » كما هو الشأن في العربية ؛ على حين أنها « أل » في العربية الباقية .

* * *

هذا ، وتنقسم النقوش التي وصلت إلينا العربية البائدة عن طريقها إلى قسمين :
قسم شديد التأثير بالآرامية ؛ وقسم أقل تأثراً بها وأدنى إلى العربية الباقية . وقد دون

(١) أشير في بعض هذه النقوش لحركات الإعراب بحروف مزيدة في آخر الكلمة « صنع كعبو
الخ . » .

القسم الأول بخط مشتق من الخط المسند ^(١) ، بينما دون القسم الثاني بالخط النبطي أو بخط مشتق منه .

١ - أما نقوش القسم الأول فضحلة المادة لا تشتمل إلا على بعض أسماء الأعلام وبعض عبارات قصيرة . وتنقسم باعتبار المناطق التي كشفت فيها والعشائر التي يظن أنها استخدمتها إلى ثلاث مجموعات : النقوش اللحيانية ؛ والنقوش الثمودية ؛ والنقوش الصفوية .

فالنقوش اللحيانية تنسب إلى قبائل لحيان . وقد اختلف العلماء في أصل هذه القبائل اختلافاً كبيراً ، ولم يصلوا بعد بصدها إلى رأى يقيني ^(٢) . ولم يثبت بعد بصورة قاطعة تاريخ هذه النقوش ؛ ولكن يظهر أن أقدمها لا يتجاوز القرن الثاني أو الأول ق . م ؛ وأحدثها لا يتجاوز السادس بعد الميلاد ^(٣) . وكثير من هذه النقوش يعرض لتعداد ملوك لحيان وألقابهم . . . وما إلى ذلك . والخط الذي كتبت به مشتق من الخط المسند ، ويسير مستعرضاً من اليمين إلى الشمال .

وتنسب النقوش الثمودية إلى قبائل ثمود التي ورد في القرآن ذكرها وذكريتها منها أكثر من مرة . وقد عثر على هذه النقوش في نفس المواطن التي يعتقد العرب أنها كانت مساكن ثمود ^(٤) . ويرجع تاريخ معظمها إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد . ولا يختلف كثيراً الرسم الذي كتبت به عن الرسم الذي دونت به النقوش اللحيانية السابقة الذكر . فهو مثله مشتق من الخط المسند ؛ غير أنه أقل من الرسم اللحياني نظاماً ورونقاً . أما اتجاهاته فغير ثابتة على حال واحدة ؛ ولكنه في الغالب يتجه من أعلى إلى أسفل .

وتنسب النقوش الصفوية إلى المنطقة التي كشفت على مقربة منها وهي منطقة الصفا ؛ فقد عثر عليها في حرة واقعة بين تل الصفا وجبل الدروز . ويرجع تاريخها إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد . والخط الذي دونت به يشبه كثيراً الخط اللحياني ؛

(١) أنظر ص ٦٠ .

(٢) يرجح بعضهم أن اللحيانيين من قبائل ثمود أو أنها اندمجت في هذه القبائل وتكون منهما شعب واحد .

(٣) Cohen, Langues du Monde 115.

(٤) عثر على بعضها في نفس المناطق التي عثر فيها على النقوش اللحيانية السابقة الذكر ، وعلى بعضها الآخر في مناطق أخرى واقعة في شمالها .

غير أنه مختلف الاتجاهات : فتارة يقرأ من اليمين إلى الشمال ؛ وأخرى من الشمال إلى اليمين . ويرجع قسط كبير من الفضل في حل النقوش الصفوية إلى المستشرق الألماني الأستاذ ليمان . فقد جمع من هذه المنطقة نحو ألف وأربعمائة نقش ، ثم عكف على دراستها زمناً طويلاً ، فكشف حروفها الأبجدية وحل معظم رموزها .
وفيما يلي ستة نماذج من هذه النقوش : الثلاثة الأولى منها نقوش ثمودية ؛ والثلاثة الأخيرة نقوش صفوية . وقد دونها جميعها بحروف عربية وألحقنا بكل منها ترجمته إلى لغتنا العربية ^(١) .

(١)

ذ ن ل ق ض ب ن ت ع ب د م ن ت
وإذا ألحقنا بهذه الأصوات الساكنة أصوات المد التي تتبع بعضها والتي لا يرمز إليها هذا النقش ، تصبح كلماته على الصورة الآتية :
ذين لقيض بنت عبد مناة .
وترجمته إلى العربية : « هذا قبر لقيض بنت عبد مناة »

(٢)

ل ت م ي غ ث ب ن ج ش م ه و ع ل
وبوضع أصوات المد التي أغفل هذا النقش الرمز إليها ، ووصل حروفه بعضها ببعض ، يصبح على الصورة الآتية :
لثيم يغوث بن جشم هوعل .
وترجمته إلى العربية : « الوعل لثيم يغوث بن جشم » . والهاء في « هوعل » هي علامة التعريف في العربية البائدة كما سبقت الإشارة إلى ذلك . ويظهر أن صورة وعل كانت منقوشة بجانب هذه الكتابة ، وقصد تدوين اسم الفنان الذي قام بنقشها .

(٣)

ل ح ز م و ت ش و ق ال ع م ت
وترجمته إلى العربية : « لحزم وتشوق إلى عمة » . ويفهم منه أن حزماً كان متشوقاً إلى عمة له ، ولعله شطر بيت من الشعر .

(١) نقلت هذه النقوش وترجمتها من كتاب الدكتور إسرائيل ولفنسن « تاريخ اللغات السامية » صفحات ١٧٨ إلى ١٨٨ مع ملاحظة تحقيقات الأستاذ ليمان المثبتة بصفحة ٢٧٧ ، ٢٧٨ . وقد اعتمدنا في تعليقاتنا على هذه النقوش على مراجع كثيرة أهمها :

(٤)

لبرد بن اصلح بن ابجر وشتي هدر وذبح ف هلث سلم .
وترجمته إلى العربية : لبرد بن أصلح بن أبجر وشتي (أى أقام في الشتاء) في هذا
المكان أو في هذه الدار (الهاء في « هدر » علامة التعريف ، و « در » ينطق بها « دار »
لأن هذا الرسم لا يرمز إلى أصوات المد) وذبح (ذبيحة) فيا الله سلام (أقدمه لك) .

(٥)

لأنعم بن قحش وغنم سنت حرب نبط
وترجمته إلى العربية : لأنعم بن قحش وغنم سنة حرب النبط

(٦)

لنصرال بن جمر هخ طط وح ضر هدر فه اثع سلم وخ رص
قعصن وفر .

وترجمته إلى العربية : لنصرال بن جمر الخط (هخ طط = هخط = الخط ، لأن
الهاء كانت علامة التعريف في العربية البائدة ؛ ويقصد من الخط النقش ؛ فغنى الجملة :
هذا النقش لنصرال بن جمر) وحضر في هذه الدار (هدر = هدار = الدار) فيا أثع
(اسم صنم من أصنام أهل الصفا) سلام (عليك) وقتل (حرص معناها قتل) قعصن
(اسم علم) وفر (١) .

٢ - وأما القسم الثاني من هذه النقوش فأغزر مادة من القسم الأول . وأقل تأثراً
باللغة الآرامية ، وأدنى منه كثيراً إلى « العربية الباقية » في مفرداته وأسلوبه وقواعده ،
مع أن المنطقة التي كشفت بها نقوشه لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي كشفت بها نقوش
القسم الأول .

وينتظم هذا القسم ثلاثة نقوش : نقش النِّمارة Nemara . ونقش زَبَد Zabad
ونقش حوران (٢) .

(نقش النِّمارة)

أما نقش النِّمارة فيشتمل على خمسة أسطر ونصه بالحروف العربية كما يلي :

(١) هذه العبارة في النقش مدونة حول صورة لشخص على جواد ويده جربة طويلة يطعن بها
شخصاً آخر .

(٢) نقلت هذه النقوش وترجمتها من كتاب الدكتور إسرائيل ولفنسن « تاريخ اللغات السامية »
صفحات ١٩٠ - ١٩٤ مع ملاحظة تحقيقات الأستاذ ليتان في آخر هذا الكتاب . واعتمدنا في التعليق
عليها على ما ورد في كتب كثيرة أهمها كتب بروكلمان وكوهين Brockelmann, et Cohen .

- (١) قى نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التيج .
 - (٢) وملك الأسدين ونزرا وملوكهم وهرب من حجو عكدى وجا .
 - (٣) بزجى فى حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .
 - (٤) الشعوب ووكلن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
 - (٥) عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .
- وترجمته إلى العربية كما يلي :

- (١) هذا قبر (نفس أى قبر فى العربية البائدة) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى (ذو بمعنى الذى فى لهجاتهم) حاز (أسر بمعنى حاز أو استولى أو لبس) التاج .
- (٢) وملك الأسدين ونزارا وملوكهم وهزم (هرب بمعنى هزم واضطروهم إلى الفرار) مزحج^(١) بقوته (عكدى تدل على القوة) .
- (٣) وجاء إلى نزجى (أو بزجى) فى حبج نجران مدينة شمر ، وملك معدا وأنزل (بمعنى قسم بين) بنيه .
- (٤) الشعوب ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
- (٥) فى القوة ، هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ كسلول (كانون الأول) ليسعد الذين ولدهم (أى ليسعد نسله وذريته) .

وقد عثر على هذا النقش فى منطقة النمار ، وهى قصر صغير للروم على مقربة من دمشق جنوب منطقة الصفا السابق ذكرها . ويرجع تاريخه إلى سنة ٣٣٨ بعد الميلاد . وهو يشير إلى قبر امرئ القيس بن عمرو الذى كان من ملوك الحيرة وامتد نفوذه إلى الشام . وقد دون بالرسم النبطى المتصل الحرف ، والرسم النبطى هو أحد أنواع الرسم الآرامى ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك^(٢) . ومن هذا النوع اشتق الرسم العربى كما سنذكر ذلك بتفصيل فى الفقرة الثامنة عشرة من هذا الفصل . ولذلك يشتد وجه

(١) يرى الأستاذ ليمان أن « حرف الواو فى أسماء الأعلام فى هذا النقش مثل مزحجو ، شمر و... الخ وضع لينوب عن التنوين فى حالة الرفع . ولعل كاتب هذا النقش أراد بإثبات حرف الواو أن يدل القارئ على النطق الصحيح للكلمة » (هذه عبارة ليمان أثبتناها بنصها كما وردت فى كتاب ولفسن ص ٢٧٨) .

(٢) أنظر ص آخر ٤٩ وأول ٥٠ .

الشبه بين الرسم الذى دون به هذا النقش والرسم العربى فى أول مراحل .
ومع ظهور آثار الآرامية فى لغة هذا النقش ، فإنه يشتمل على مفردات وجمل
كثيرة تتفق كل الاتفاق مع العربية الباقية . فمن ذلك قوله : « فلم يبلغ ملك مبلغه »
و « نزل بنيه الشعوب » و « ملك العرب كلها » و « هلك سنة » .

(نقش زبد)

وأما نقش زبد فيشتمل على سطرين ونصه بالحروف العربية كما يلي (١) :

(١) (بس) م الإله سرجو برأمت منفو وهنى بر مر القيس .

(٢) وسرجو برسعدو وسترو و (شر) يحو بتميمى .

وقد عثر على هذا النقش فى الأطلال المسماة بزبد ، وهى واقعة فى الجنوب الشرقى
من مدينة حلب بين قنسرين والفراة ويرجع تاريخه إلى سنة ٥١٢ أو ٥١٣ بعد الميلاد .
وهو مدون بثلاث لغات : العربية البائدة والسريانية واليونانية . ولم يبق من قسمه
العربى إلا القطعة التى نقلناها . وهى تشتمل على كلمة عربية وهى « الإله » وعلى أسماء
أعلام عربية كذلك يظن أنها أسماء الذين اشتركوا فى بناء الكنيسة التى وضع فيها
هذا النقش (٣) .

أما نوع الرسم الذى دونت به هذه القطعة فهو مشتق من الرسم النبطى المتصل
الحروف ، ويمثل الرسم العربى فى أقدم مراحل (٤) .

(نقش حوران)

وأما نقش حوران Hauran, Harran (٥) فيقع فى أربعة أسطر ، ونصه بالحروف
العربية كما يلي :

(١) أنا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول

(١) الموضوع بين قوسين يمثل أجزاء مكسورة أو مطموسة من النقش .

(٢) قطعة مكسورة من النقش يظن أنها (بس) فيكون الحرف الباقى ميا وتكون الجملة باسم الإله ...
ويقرؤها ليمان بنصر الإله على اعتبار أن المكسور (نص) وأن الحرف الباقى راء .

(٣) الواو المحتمة بها بعض الأعلام فى هذا النقش هى عوض عن التنوين كما يرى ذلك الأستاذ ليمان
(انظر التعليق رقم ١ فى الصفحة السابقة) . وكلمة « بر » المتوسطة بين علمين معناها « ابن » .

(٤) يستثنى من ذلك الكلمة الأخيرة فى هذه القطعة (بتميمى) ، فإنها مدونة بالسريانية .

(٥) رسمه بروكلمان Hauran وكوهين Harran ، ورسم بروكلمان هو الأدنى إلى الاسم العربى

« حوران » .

(٢) سنت ٤٦٣ بعد مفسد

(٣) خير

(٤) بعم

وترجمته إلى العربية :

أنا شراحيل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة سنة ٤٦٣ بعد مفسد (انهيار) خير بعام . — و « مفسد خير » المؤرخ به هذا النقش يشير إلى ما حدث لهذا البلد على أثر غارة شنّها عليه أحد أمراء بني غسان ، وانتهت بانهياره وسبي كثير من أهله . وقد عثر على هذا النقش بحوران اللجا الواقعة جنوب دمشق في الجزء الشمالي من جبل الدروز . وهو منقوش على حجر فوق باب الكنيسة التي تشير عبارته إلى مؤسسها وتاريخ إنشائها . ويرجع تاريخه إلى سنة ٥٦٨ بعد الميلاد . وهو مدون بلغتين : العربية البائدة واليونانية . وقد وصل إلينا قسمه العربي سليماً كامل الكلمات . ولا تختلف اللمجة التي دون بها هذا القسم عن « اللغة العربية الباقية » إلا في أمور يسيرة . فلغته أقرب كثيراً إلى العربية الباقية من لغة النقشين السابقين . أما الرسم الذي دون به فهو من نوع الرسم المدون به نقش زبد . فكلاهما مدون بخط مشتق من الرسم النبطي المتصل الحروف ، وكلاهما يمثل في رسمه الخط العربي في أقدم مراحل . غير أن رسم هذا النقش أدنى كثيراً إلى الرسم العربي من رسم النقش السابق . ولذلك لا يجد من يعرف الرسم العربي كبير عناء في حل رموزه .

(٤) العربية الباقية

وهي التي تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها ، والتي لا تزال تستخدم عندنا وعيد الأمم العربية الأخرى لغة أدب وكتابة وتأليف . وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد والحجاز ، ثم انتشرت في كثير من المناطق التي كانت تشغلها من قبل أخواتها السامية والحامية ، وانشعبت منها اللهجات التي يتكلم بها في العصر الحاضر في بلاد الحجاز ونجد واليمن وفلسطين والشام والعراق ومصر وبلاد المغرب . ولا نعلم شيئاً عن طفولة هذه اللغة ؛ إذ لم يعثر العلماء في مواطنها الأولى بنجد والحجاز على آثار منقوشة أو مكتوبة تلقي ضوءاً على حالتها الأولى (١) .

(١) يذهب بعضهم إلى أن العرب لم يتركوا في هذا العصر آثاراً لأن الأمية كانت حينئذ عامة فيهم . ولا يتفق هذا الرأي مع ما يحدثنا به التاريخ من أن أناساً كثيرين من العرب في العصر الجاهلي كانوا يجيدون —

وأقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يعرف بالأدب الجاهلي، وهو آثار أدبية تنسب لطائفة من شعراء العصر الجاهلي وحكمائه وخطبائه، ولكنها لم تجمع وتدون إلا في القرون الأولى للعصر الإسلامي. ويرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الخامس بعد الميلاد على أبعد تقدير. وهي تمثل هذه اللغة في عنفوان اكتمالها وعظمتها بعد أن اجتازت مراحل كثيرة في سبيل التطور والارتقاء، وبعد أن تغلبت لهجة من لهجاتها وهي لهجة قريش على أخواتها، واستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابها ونثرها في مختلف القبائل العربية. ولذلك سنبدأ الحديث عن هذه اللغة بكلمة في صراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لهجة قريش.

X (٥) صراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لهجة قريش

انقسم المتكلمون بهذه اللغة، منذ أقدم عصورهم، إلى قبائل شتى، وطوائف قديماً، تختلف كل طائفة منها عما عداها في بيئتها الجغرافية، وما يكتنفها من ظروف طبيعية واجتماعية، وما تمتاز به في نواحي الوجدان والتفكير، وما أتيح لها من وسائل الثقافة... وهلم جرا. ومن المقرر في قوانين اللغات أنه متى انتشرت اللغة في ساحة واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس استحال عليها الاحتفاظ بوحدة الأولى أمداً طويلاً، فلا تلبث أن تنشعب إلى عدة لهجات^(١). ولم تفلت اللغة العربية - وما كان يمكن أن تفلت - من هذا القانون العام. فقد انقسمت، منذ أقدم عصورها، إلى لهجات كثيرة يختلف بعضها عن بعض في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات، واختصت كل قبيلة وكل جماعة متحدة في ظروفها الطبيعية والاجتماعية بلهجة من هذه اللهجات.

غير أنه قد أتيح لهذه اللهجات المتعددة فرص كثيرة للاحتكاك بفضل التجارة

== القراءة والكتابة. قال ابن فارس في تعليقه على قصة أبي حية النمرى الذي لم يعرف معنى حرف «الكاف» عند ما طلب إليه أن ينشد قصيدة على الكاف: «وكان قبله (يعني أباحية النمرى) بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ». وكان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتبون (تعلموا ذلك في عصورهم الجاهلية) منهم أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه وعثمان وزيد وغيرهم» (الصاحبي ص ٩) - ويذهب بعضهم إلى أن ما تركوه من الآثار لم يكشف بعد، ويأمل أن يكشف عنه يوماً ما (ولفلسن ص ١٩٤). ويرى الأستاذ ليمان أن ما تركوه من الآثار قد عفا واندثر، فلا أمل في كشف شيء منه (انظر تعليق ليمان في كتاب ولفلسن تاريخ اللغات السامية ص ٢٧٨).

(١) انظر الفقرة الثانية من الفصل الخامس من كتابنا «علم اللغة».

وتبادل المنافع ومجاورة القبائل العربية بعضها لبعض وتنقلها في طلب السكّان وتجمعها في الحج والأسواق والحروب الأهلية... وهلم جرا. فاشتبكت من جراء ذلك اللهجات العربية بعضها مع بعض في صراع لغوي كتب النصر فيه للهجة قريش، فطغت على جميع اللهجات الأخرى في المحادثة، واستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابها ونثرها في مختلف القبائل العربية. فأصبح العربي، أيّما كانت قبيلته، يؤلف شعره وخطابته ونثره الأدبي باللهجة قريش. وقد ساعد على تغلب هذه اللهجة عوامل كثيرة من أهمها ما يلي:

١ - عامل ديني، فقد كانت قريش جيرة البيت الأدنين، يقيمون حوله، ويقومون بسدائنه. وكان البيت حراماً مقدساً في نظر معظم القبائل العربية في الجاهلية، يحجون إليه ليؤدوا مناسكهم، ويزوروا أصنامهم ويقدموا لها القرابين، ويشهدوا منافع لهم. فكان لقريش بذلك السلطان الديني على بقية القبائل العربية، كما كان لقبيلة لاوى السلطان الديني على بقية قبائل بني إسرائيل.

٢ - وبجانب هذا السلطان الديني، كان لقريش سلطان اقتصادي خطير. فقد كان مقدار كبير من التجارة في يد القرشيين الذين كانوا يتنقلون بتجارهم في مختلف بقاع الجزيرة العربية من الشام شمالاً إلى أقصى اليمن جنوباً، ويقومون في مختلف الفصول برحلات تجارية منظمة من أشهرها رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم إذ يقول: «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف». وبفضل هذا النشاط التجاري أصبح زمام الثروة في هذه البلاد بيد قريش.

٣ - وقد تحقق لقريش، بفضل نفوذها الديني والاقتصادي، وبفضل موقع بلادها، وما كانت تتمتاز به من حضارة ونعيم، تحقيق لها بفضل هذا كله نفوذ سياسي قوى في سائر بلاد العرب في العصر الجاهلي. وفي ذلك يقول أبو بكر في رده على الأنصار الذين طمحووا إلى الخلافة بعد وفاة الرسول عليه السلام: «لا تدن العرب إلا لهذا الحى من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله».

٤ - هذا إلى أن للهجة قريش كانت أوسع اللهجات العربية ثروة، وأغزرها مادة وأرقها أسلوباً، وأدناها إلى الكمال، وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول. وقد تم لها ذلك بفضل ما أتيح لأهلها من وسائل الثقافة والنهوض، وما أتيح لها من فرص كثيرة للاحتكاك بمختلف اللهجات العربية، وما انتقل إليها من هذه اللهجات من عناصر

زادتها ثروة وسدت ما كان يعوزها في بعض مناحي التعبير .

جميع الظروف التي تقتضيها قوانين التغلب اللغوي ، والتي فصلناها في كتاب « علم اللغة » بصدد صراع اللهجات المحلية بعضها مع بعض ^(١) كانت مهيأة لتغلب لهجة قريش على اللهجات العربية الأخرى . فمن المقرر أن الصراع بين لهجتين محليتين ينتهي بتغلب أحدهما على الأخرى في حالتين :

(أولاهما) أن يكون لأهل واحدة منهما نفوذ على أهل اللهجة الأخرى . ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات النفوذ ، على شريطة أن لا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآدابا . ولذلك تغلبت لهجة باريس حيث مقر الحكومة والسلطان على كثير من اللهجات الفرنسية التي خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك كان شأن لهجة لندن مع عدد كبير من لهجات المحاذية التي كانت مستخدمة في الجزر البريطانية ؛ ولهجة مدريد مع كثير من اللهجات الأسبانية الأخرى ؛ ولهجة روما في العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ... وهلم جرا .

(وثانيتهما) أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى في ثقافتها وحضارتها ومقومات لغتها وآدابها ، ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان على المنطقة الأخرى . وبفضل هذا العامل أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادي ، أي قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين ^(٢) ؛ وأخذت التوسكانية بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، أي قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة وقبل أن يظهر سلطان روما ^(٣) ؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبي ومقومات لغوية لا يذكر بجانبها إنتاج أخواتها التي اشتبكت معها في هذا الصراع .

وإذا كانت إحدى هاتين الحالتين تؤدي لا محالة إلى تغلب اللهجة المتوافرة فيها شروطها ، فما بالك إذا توافر كليهما في لهجة محلية كما كان شأن لهجة قريش : فقد كان لأهل هذه اللهجة السلطان الديني والاقتصادي والسياسي ؛ وكانت هي أكثر أخواتها ثروة وأغزرها مادة وأوسعها ثقافة وأقدرها على التعبير عن مختلف فنون القول .

(١) انظر الفقرة الثالثة من الفصل الخامس من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) على أن برلين نفسها لم تكن مهد السكسونية بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

(٣) على أن روما لم تكن مهد الإيطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

فليست ظاهرة تغلبها إذن فذة في التاريخ ، أو يرجع سببها إلى إرهاص أو إعجاز ؛ بل هي ظاهرة عامة في لغات بني الإنسان قديمها وحديثها .

ومن المقرر كذلك في قوانين علم اللغة أن اللهجة المحلية التي يتاح لها التغلب تصبح ، عاجلاً أو آجلاً « لغة الدولة » أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » أو « لغة الكتابة » أو « لغة الآداب » ؛ فتصطنع وحدها في الكتابة والتأليف والآداب شعره ونثره . فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت هي وحدها لغة الكتابة والآداب بفرنسا ، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بانجلترا ، ولهجة مدريد بإسبانيا ، واللهجة السكسونية بألمانيا ، والتوسكانية بإيطاليا . فقد أصبحت هذه اللهجات هي اللغات الأدبية في الممالك السابق ذكرها ، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية . وهذا هو ما حدث للغة قريش . فقد ترتب على تغلبها على بقية اللهجات العربية أن أصبحت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب . فيها كان ينظم الشعر ، وتلقى الخطب ، وترسل الحكم والأمثال ، وتدون الرسائل ، وتتفاوض الوفود ، ويتخاصم الأدباء ، وتجرى المناقشة في النوادي والمؤتمرات ... في مختلف بلاد العرب ومختلف قبائلهم . وقد تم لها ذلك قبل بعثة الرسول عليه السلام بزمان غير قصير .

(٦) القرآن والآداب الجاهلي ومحيمئهما بلغة قريش

فلا غرابة إذن في أن القرآن ، وقد جاء بلغة قريش ، كان مفهوماً لدى جميع القبائل ، وكان يؤثر في العرب جميعاً ببيانته وبلاغته ، فقد نزل بعد أن تم للهجة قريش التغلب على اللهجات العربية الأخرى ، وبعد أن أصبحت لغة الآداب لسائر قبائل العرب . ولا غرابة كذلك أن جاءت آثار العصر الجاهلي ، معلقاتها وشعرها وخطبها وحكمها وأمثالها ، مؤلفة بلغة قريش . بل كان يكون غريباً كل الغرابة ، ومتعارضاً مع نوااميس اللغات الإنسانية ، لو جاء شيء منها مؤلفاً بغير هذه اللغة . لأن أقدم هذه الآثار لا يتجاوز القرن الخامس أو السادس بعد الميلاد ، أي أنها جميعها قد ألفت بعد أن تمّ للغة قريش التغلب على ما عداها وبعد أن أصبحت اللغة الفذة التي يصطنعها العرب في ميادين الآداب . ولا نريد بذلك الدخول في موضوع الآداب الجاهلي ، والتعرض لصحة نسبته إلى الجاهليين أو عدم صحتها . فهذا موضوع يتجاوز النطاق الذي رسمناه لهذه العجالة ، بل يتجاوز موضوع المادة نفسها ، فهو من كثير من نواحيه أدنى إلى بحوث آداب اللغة والنقد الأدبي منه إلى بحوث فقه اللغة . فحسبنا إذن ما ذكرناه بصده في الفصل

الرابع^(١) وفي هذا الفصل ؛ فهو يشتمل على أهم ما يتصل من هذا الموضوع بمادة فقه اللغة ، ويبيّن فساد ما يعتمد عليه منكر و الأدب الجاهلي من أدلة تتصل باللغة وتاريخها .

على أننا لا نقصد بذلك أن نقرر أن جميع ما وصل إلينا من الأدب الجاهلي صحيح لم يعتوره نقص ولا زيادة ولا تحريف . فالأدب الجاهلي لم يدون إلا بعد الإسلام بأكثر من مائة عام . وقد ظل في أثناء هذه المدة الطويلة يتناقله الناس مشافهة ، ولا تعيه إلا حوافظهم . وغنى عن البيان أن آثاراً أدبية يتناقلها الخلف عن السلف في أثناء مدة طويلة كهذه ولا تعيها إلا ذا كراتهم ، لا بد أن ينالها ، عن قصد وعن غير قصد ، كثير من التحريف ، ويسقط منها كثير مما كانت تشتمل عليه ، ويندس فيها ما ليس منها ؛ ولا بد أن تتأثر بالسنة روايتها وأساليب لغتهم ، وبالحالة التي انتهى إليها التطور اللغوي في عصرهم ؛ هذا إلى تأثرها بأمور أخرى غير لغوية كالشئون الدينية والسياسية والاجتماعية . . . وهلم جرا . وإليك مثلاً خلو المعلقات ومعظم آثار الأدب الجاهلي من الأمور التي تشير إلى العقائد والعبادات الوثنية ، مع أنه قد كان لهذه الشؤون سلطان كبير على نفوس العرب قبل الإسلام ؛ كما يحدثنا بذلك القرآن وتدل عليه حقائق التاريخ . فلا شك إذن أن الرواة قد تعمدوا حذف النصوص المشتملة على هذه الأمور أو تغييرها ، كما غيروا في صدر الإسلام أسماء الأعلام المتضمنة لأمور وثنية : فقيم اللات مثلاً سمى الرسول عليه السلام تيم الله ، إبقاء لذكر الصنم في اسم جد الأنصار .

وقد فطن كثير من باحثي العرب أنفسهم لما انتاب الأدب الجاهلي من تحريف ، وما سقط منه من عناصر ، واندس فيه من دخيل ؛ وعرضوا لأسباب هذه الأمور فذكروا منها العوامل السابقة وعوامل أخرى كثيرة . فقد ذكروا أن كثيراً من العشائر استقلت ما قاله شعراؤها في الجاهلية وما نسب لآبائهم الأولين من أعمال ، فخلقوا قصائد نسبوها إلى شعرائهم في الجاهلية ونسبوا فيها إلى آبائهم كثيراً من أعمال النبل والكرم والإقدام . وذكروا كذلك أن كثيراً من الأعراب أنفسهم كانوا يخلقون القصائد وينسبونها لشعراء من الجاهلية ، إرضاء لرغبة الرواة الذين كانوا يلحون عليهم ويطلبون منهم المزيد . وذكروا كذلك أن حمادا الراوية كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار ، وأنه أقر بحضرة أمير المؤمنين المهدي بما زاده من عنده في شعر زهير بن أبي

سلبى ، وأن خلفاً الأحمر وغيره اخترعوا من الشعر ما لم يكن له وجود وكذبوا على الشعراء (١) .

غير أن أهمية القسم المصنوع نفسه لا تقل كثيراً في نظر الباحث اللغوى عن أهمية القسم الصحيح . لأن مخترعيه كانوا قريبي عهد بالعصر الجاهلى (فمعظمهم ممن نشأ فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة) ، وكانوا على إلمام كبير باللغة وآدابها ، فلم يدخروا وسعاً فى محاكاة الجاهليين والسير على غرارهم فيما نسبوه إليهم ؛ فجاء ما اخترعوه ممثلاً أصدق تمثيل فى روحه وعباراته ومفرداته وأساليبه للغة الأدب الجاهلى .

(٧) نهضة لغة قريش وعوامل هذه النهضة

تضافرت عوامل كثيرة على النهوض بلغة قريش ، وتوطيد قدمها ، وتمكينها من ألسنة العرب ، وتوسيع نطاق إنتاجها . ومن أهم هذه العوامل ما يلى :

١ — ما أفادته لغة قريش من احتكاكها باللهجات العربية الأخرى . تقرر قوانين اللغات ، أن اللغة المنتصرة لا تخرج سليمة من صراعها ؛ بل أن طول احتكاكها باللغات الأخرى وشدة كفاحها معها ، وما تبديه بعض اللغات المقهورة من مقاومة ... كل ذلك وما إليه يترك فى اللغة الغالبة آثاراً كثيرة من اللغات المغلوبة فى نواحي الأصوات والقواعد والأساليب وينقل إليها كثيراً من مفرداتها . ويبدو هذا التأثير بوضوح صورة فى النواحي التى تعوز اللغة الغالبة : فاللغة الغالبة تعتمد فى العادة إلى خصمها المقهور فتمتص منه ما تحتاج إليه وتستلبه ما يعوزها قبل أن تجيز عليه (٢) .

ولم تقلت لغة قريش ، وما كان يمكن أن تقلت . من هذه القوانين . فقد ترك فيها طول احتكاكها باللهجات العربية الأخرى آثاراً كثيرة من هذه اللهجات ، ونقل إليها طائفة كبيرة من مفرداتها وأساليبها ، وخاصة فى النواحي التى كانت تعوزها ، فقويت بذلك مقوماتها ، واتسع نطاقها ، وكمل ما كان فيها من نقص ، وزادت مرونة وقدرة على التعبير عن مختلف فنون القول (٣) .

غير أنها لم تقف فى اقتباسها عند الأمور التى كانت تعوزها ؛ بل انتقل إليها كذلك

(١) انظر طبقات الشعراء لابن سلام ، وهو من رجال القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة (توفى سنة ٢٣٢ هـ) . وهذا يدل على أن الباحثين من العرب قد فطنوا لذلك منذ عهد بعيد . وانظر كذلك كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ، تجد فيه كثيراً من الأمثلة بهذا الصدد .

(٢) انظر ١ من الفقرة الثانية من الفصل الرابع من كتابنا « علم اللغة » .

(٣) وهذا هو ما يشير إليه ابن فارس فى كتابه الصحاح إذ يقول : « فكانت وفود العرب من =

من هذه اللهجات كثير من المفردات والصيغ التي لم تكن في حاجة إليها لوجود نظائرها في متنها الأصلي . وإلى هذا ترجع بعض العوامل في غزارة مفردات هذه اللغة ، وكثرة مترادفاتهما ، وورود جمع الكلمة الواحدة فيها على صيغ متعددة ، وقبولها أوزاناً كثيرة للفعل الواحد^(١) . فما أشبه الحالة التي انتهت إليها لغة قریش ببخيرة امتزج بمياها الأصلية مياه أخرى مختلفة الطعم واللون انحدرت إليها من جداول كثيرة .

ولا يمكننا على ضوء معلوماتنا الحاضرة أن نميز بين ما كان قرشي الأصل وما انتقل إلى لغة قریش من أخواتها ، لأننا نجهل ما كانت عليه لهجة قریش واللهجات العربية الأخرى في أدوارها الأولى جهلاً يكاد يكون تاماً . فلهجة قریش لم تصل إلينا إلا وهي متأثرة بما عداها من اللهجات العربية التي قهرتها ؛ وهذه اللهجات لم يصل إلينا منها شيء قبل تغلب لهجة قریش عليها ، ولم يبق منها في المحادثة بعد تغلب هذه اللهجة إلا النزر اليسير .

٢ - المجتمعات الخاصة التي اعتاد العرب في هذا العصر أن يعقدوها لهذا كرهة والمشاورة في مختلف شؤونهم الاجتماعية ، أو للحكومة والفصل في الدعاوى والمنازعات ، أو للتحالف والتعاقد ، أو لمحض الأناج وترويح النفس بذكر الأخبار والوقائع ، وقص ما مضى من السير والأخبار ، أو للاعتاظ والاعتبار وتبادل الحكم^(٢) . وكانت اللغة المستخدمة في هذه المجتمعات هي لغة قریش ؛ لأن جميع ما كان يلقى فيها كان من فنون الآداب ؛ وقد تبين فيما سبق أن لغة قریش قد استأثرت بهذه الميادين . ولا يخفى ما لذلك من أثر في نهضة هذه اللغة وتجيدها وتهذيب نواحيها ووفرة إنتاجها .

٣ - الأسواق . كان للعرب أسواق عامة للتجارة والأدب وغيرها لا يكاد يخلو منها شهر من شهور السنة . فكانوا يجتمعون في دومة الجندل في أول ربيع الأول ، ثم ينتقلون منها إلى سوق هجر بالبحرين في شهر ربيع الآخر ؛ ثم إلى سوق عمان حيث يظلون حتى أواخر جمادى الأولى ؛ ومن سوق عمان ينزلون إلى المشقر فتقوم سوقهم

== حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحجيج ويتحاضرون إلى قریش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، فاذ أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفي كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب » . غير أن هذه العبارة تشعر أن الانتقال الذي نحن بصدده كان يحدث دائماً عن قصد ؛ والحق أنه يحدث في الغالب في صورة تلقائية عن غير قصد المتكلمين .

(١) سنعرض لهذا الموضوع بشيء من التفصيل في الفقرة ١٣ من هذا الفصل .

(٢) من هذا النوع ما كان من اجتماع قریش حول كعب بن لؤي كل يوم عروبة يعظم ويذكرهم ، ويقال إنه سمي يوم الجمعة لذلك .

به أول يوم من جمادى الآخرة؛ ثم يفدون على صحار فيقيمون بها بضعة أيام من رجب؛ وتقوم سوقهم بالشجر في النصف من شعبان؛ وينفضون من سوق صنعاء في آخر رمضان؛ فتأخذ جميع القبائل خلال شوال في الاستعداد لأكثر سوق عربية وهي عكاظ، فيعمرونها في العشرين من ذى القعدة؛ ثم يغادرونها إلى ذى المجنة قرب مكة فيقضون به بقية ذى القعدة؛ ومنه يذهبون أول الحجة إلى ذى المجاز بجانب عرفة. ولما كانت الأسواق الثلاثة الأخيرة (عكاظ والمجنة وذو المجاز) تقام قبيل موسم الحج وبالقرب من مكة حيث تؤدي مناسك هذه الشعيرة، كانت أهم الأسواق جميعاً وأكثرها عدداً وأجمعها لقبائل العرب.

ففي هذه الأسواق كان يشهد العرب منافع لهم، ويتبارون في إجادة القول خطابة وشعراً ونثراً، وفيها كانت تفادى الأسرى، ويتحاكم في الخصومات، ويتفاخر بالأنساب والأحساب، ويتباهى بالفضائل، ويتغنى بالحب والجمال. وكان الاتجار بالكلام فيها أعظم خطراً وأجل شأنًا من الاتجار بالبضائع. وكان جميع ما يقال فيها مؤلفاً باللغة التي كان يصطنعها حينئذ جميع العرب في الآداب، وهي لغة قريش. ولا يخفى ما كان لذلك من أثر بليغ في نهضة هذه اللغة، وصقلها، وتوطيد دعائمها، وتقوية سلطانها على الألسنة، ووفرة إنتاجها.

٤ - أيام العرب. وهي الحروب التي كانت تشنها قبائل العرب بعضها على بعض أو تشنها على الأجانب. وكان يدفعهم إلى كثير منها نوع حياتهم، وإيلافهم النجعة لارتداد مواقع الغيث والسيوف، وانتزاع ما يحتاجون إليه لأنعامهم من غيرهم انتزاعاً بأسنة الرماح وظلمات السيوف، وما كان بين القبائل من حزازات وترات؛ ويدفعهم إلى بعضها الذود عن الوطن ضد الأجنبي، أو الوفاء بالعهود وحماية الجار... وما إلى ذلك. ومن أشهر هذه الأيام «حرب البسوس» بين بكر وتغلب؛ و«حرب داحس والمغبراء» بين عبس وذبيان؛ و«حرب الفجار» بين قريش وحلفائهم من كنانة ضد هوازن؛ ويوم «بعث» بين الأوس والخزرج؛ و«يوم خزاري» بين نزار واليمن؛ و«يوم حليلة» بين الغساسنة والخميين؛ و«يوم ذى قار» بين العرب والفرس.

وكان دعائمهم في هذه الحروب الكلام البليغ يلجأ إليه قوادهم ورؤسأؤهم وساداتهم وجنودهم للتفاخر وتعداد المآثر واستفزار الهمم والحث على الشجاعة والإقدام... وهلم جرا. وكان جميع ما يقال في هذه الحروب مؤلفاً باللغة التي كان يصطنعها حينئذ

جميع العرب في ميادين الآداب، وهي لغة قريش. وعن عن البيان ما كان لذلك من أثر في نهضة هذه اللغة وتجويدها واتساع نطاق آدابها.

٥ — القرآن والحديث والإسلام. ولأهمية هذه الطائفة من العوامل سنفردها بالكلام في الفقرة التالية. ✕

(٨) أثر القرآن والحديث والإسلام في اللغة العربية

كان لهذه الطائفة من العوامل في اللغة العربية آثار جلية من أهمها ما يلي:

١ — تقوية سلطان اللغة القرشية. فقد كان لنزول القرآن ومجيء الحديث بلغة قريش، وهما دعامة الدين الإسلامي الذي اعتنقه معظم قبائل العرب، أعظم أثر في توطيد هذه اللغة، وتثبيت دعائمها، وتقوية سلطانها على الألسنة.

٢ — تهذيب اللغة العربية وتنقيحها والنهوض بها إلى أرقى مستوى للغات الآداب. ويبدو هذا الأثر في مختلف النواحي اللغوية: في الأغراض والمعاني والأخيلة والأساليب والألفاظ.

أما الأغراض فقد اتسعت أيما اتساع بفضل القرآن والحديث، وانتشار الإسلام في أمم ذات ثقافات عريقة، وما أفاده العرب ولغتهم من الاحتكاك بهذه الثقافات.

فقد فتح القرآن الكريم وأحاديث الرسول للغة العربية أبوابا كثيرة من فنون القول، فعولجت فيهما أمور لم تكن العربية لتعنى بعلاجها من قبل؛ وذلك كمسائل القوانين والتشريع، والقصص والتاريخ، والعقائد الدينية، والجدل فيما وراء الطبيعة، والإصلاح الاجتماعي والنظم السياسية وشؤون الأسرة، وأصول القضاء والمعاملات، ودراسة مظاهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات... وهلم جرا.

وأضيفت إلى هذه الأغراض فيما بعد أغراض أخرى كثيرة يرجع الفضل فيها إلى انتشار الإسلام، واتساع المملكة العربية، وارتقاء مظاهر المدنية، وماورثه العرب عن الأمم التي دانت لسلطانهم من حضارة وعلوم وفنون، وما اقتبسوه من لغاتهم وترجموه من مؤلفاتهم في مختلف الشؤون. فتناولت اللغة العربية، بجانب ما تناولته من قبل، شؤون التأليف الدقيق في الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والمنطق والفلسفة والفقه وفنون اللغة والنقد الأدبي وتاريخ الأدب والرسائل السياسية، وضبط أمور الدولة، وتنظيم شؤون الدواوين، والرد على المذاهب الزائفة، ومقاومة الزندقة والإلحاد، وصنع القصة والرواية... وهلم جرا.

وقد نجم عن اتساعها وارتقائها في ناحية الأغراض اتساع وارتقاء في ناحية المعاني والأخيلة والأساليب . فقد قويت على تجلية المعاني الدقيقة التي جلبتها العلوم والفنون السابق ذكرها ، واستخدمت فيها الحجج العقلية والبراهين الفلسفية ، ودخلت فيها عناصر جديدة للخيال والتشبيه ، وتهذبت أساليبها ، وتشكلت في صورة الأساليب العلمية .

(وأما المفردات ودلالاتها فكان الأثر فيها واضحا كل الوضوح . فقد تجرد كثير من الألفاظ العربية من معانيها العامة القديمة ، وأصبحت تدل على معاني خاصة تتصل بالعبادات والشعائر أو شئون السياسة والإدارة والحرب ، أو مصطلحات العلوم والفنون . ومن ذلك ألفاظ : الصلاة والصوم والزكاة والحج والخليفة والإمام وأمير المؤمنين والوالى والقاضى والكاتب والمشير والشرطة والوظيفة ^(١) والقطائع ^(٢) والجريدة ^(٣) والصائفة والشاتية ^(٤) والمرتقة والمتطوعة والشحنة ^(٥) والثغور ^(٦) والعمارة ^(٧) ودار الصنعة ^(٨) وديوان الجند وديوان الرسائل وديوان الخاتم والسرير والسكة ^(٩) والطراز ^(١٠) والمقصورة ، والتعجب والنعت والتوكيد ... ، والحد والتعزيز والشبهة والقياس ... ، والتعريف والقضية والسالبة والموجبة والمقدمة والنتيجة ... ، والصرع والاستسقاء والذبحة والربو والأمزجة ... ، والمثلث والمربع والدائرة ... ، والكون والحدوث والقدم والوجود والعرض والجوهر ... ، وما إلى ذلك من آلاف المفردات التي تستخدم في مختلف الفنون .

(وبجانب هذه الألفاظ العربية الأصل ، اقتبس العرب لنفس الأغراض ألفاظاً أعجمية من لغات كثيرة ، وخاصة من الفارسية والسريانية واليونانية ، بعد أن عربوها

(١) هي رزق العامل أى مرتبه .

(٢) هي ما يمنحه السلطان من الأرض لاستغلاله والانتفاع به .

(٣) هي الجيش المجرد من الرجالة .

(٤) الصائفة هي الكتبية التي تغزو صيفا والشاتية الكتبية التي تغزو شتاء .

(٥) اسم لمن يقيم في الثغور من الجند .

(٦) الأماكن التي يخاف دخول العدو منها .

(٧) السفن الحربية .

(٨) الموضع الذى تصنع فيه السفن على مقربة من شاطئ البحر .

(٩) هي في الأصل الطابع الذى ترسم به الدراهم والدنانير ، ثم صارت تطلق على نفس الدراهم والدنانير .

(١٠) هو سمة خاصة تؤسم بها الثياب التي تحاك للخليفة ليلبسها أو ينعم بها على سواه .

وصقلوها بمنهاج اللسان العربي . ومن ذلك ألفاظ : الديوان والعسكر والبند (العلم الكبير) والصهرنج والقيروان (القافلة) والطنبور . . ، والبابونج والزرنج والمنخلخوليا . . . والاصطرلاب (آلة يعرف بها الوقت) والبسكام (آلة رملية تعرف بها الساعة النجومية) والطلسم والمغنطيس والقانون والأسطول ، والفلسفة والهيولى . . . وهلم جرا .

وقد جرت عادتهم في الغالب أن يبحثوا للمعنى الجديد عن لفظ عربي عن طريق الاشتقاق والنحت والحجاز ، فإذا أعيتهم الحيلة عمدوا إلى تعريب اسمه الأجني . وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى هذه الوسيلة الأخيرة من بادىء الأمر إذا كان اللفظ يدل على معنى اصطلاحى دقيق يخشى ضياعه في ثنايا اللفظ العربي .

ومن آثار الإسلام في هذه الناحية كذلك قضاؤه على كثير من الألفاظ العربية الجاهلية التي تدل على نظم حرمها الإسلام كأسماء الأنصبه التي كانت لرئيس الحرب في الجاهلية (المرباع والصفايا والنشيط والفضول) (١) ، وكألفاظ الإتاوة والمكس والحلوان والضرورة (٢) والنوافج (٣) . وقد قضى الإسلام كذلك على أسماء الأيام والأشهر في الجاهلية لاتصال بعضها في أذهان العرب بشئون وثنية أو نظم جاهلية واستبدل بها أسماءها الحالية (٤) . x

(٩) اللهجات العربية بعد تغلب لغة قريش

تغلّبت لغة قريش على ما عداها من اللهجات العربية كما تقدم بيان ذلك ، فاستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابها ونثرها ، وطغت على ألسنة جميع القبائل في المحادثة نفسها وقضت على لهجاتها الأولى .

غير أنه قد بقى لأفراد كل قبيلة في ميدان المحادثة من لهجتهم القديمة بعض آثار ضئيلة ، ونال القرشية في ألسنتهم بعض التحريف تحت تأثير لهجتهم الأولى وعاداتهم

(١) المرباع ربع الغنيمة ، والصفايا ما يصطفيه الرئيس ويختاره لنفسه قبل قسمتها كالسيف والجارية ، والنشيط ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل أن يصلوا إلى الجهة ، والفضول ما يبقى من الغنيمة بعد قسمتها مما لا يصح قسمته على عدد الغزاة كاليعير والفرس .

(٢) هو الذى يترك الزواج مبتلا .

(٣) هى الإبل تساق في الصداق .

(٤) كانت أسماء الأيام في الجاهلية : شيار (السبت) ، أول ، أوهن ، أو أوهد ، جبار ، دبار ، مونس ، عروبة . — وكانت أسماء الشهور : ، المؤتمر ، ناجر ، خوان ، وبسان ، الحين ، ربي ، الأصم ، عادل ، ناqq ، وعل ، ورنه ، برك .

المتأصلة في النطق ... وهلم جرا . ومن أجل ذلك اختلفت لهجات المحادثة العربية بعضها عن بعض باختلاف القبائل . وقد وصل إلينا بعض مظاهر هذا الاختلاف عن طريقين :

(أحدهما) قراءات القرآن (١) . وذلك أن كثيراً من مظاهر الاختلاف في هذه القراءات يرجع إلى اختلاف اللهجات العربية في الأصوات أو في وزن الكلمات أو في مآخذ الاشتقاق أو في المفردات (٢) . فالقرآن وإن نزل بلغة قريش ، ورد فيه كثير مما بقي من لهجات القبائل الأخرى ، وقرئت بعض ألفاظه على وجوه تتفق مع هذه اللهجات (٣) .

(وثانيهما) ماورد في ثنایا كتب الأدب والتاريخ خاصاً بهذه اللهجات .

وعلى ضوء هذين المرجعين يتبين أن وجوه الخلاف بين هذه اللهجات لم تكن كبيرة ، ولكنها كانت تبدو في مختلف المظاهر اللغوية : فمنها ما كان يتعلق بالأصوات ؛

(١) لم يكد ينصرم القرن الثاني للهجرة حتى تجاوز الحصر عدد القراء والقراءات . ولكن الناس كانوا على قراءة سبعة مشهورين هم : أبو عمرو بن العلاء ، وأبو محمد يعقوب بن اسحق الحضرمي بالبصرة ، وحزمة بن حبيب الزيات ، وعاصم بن أبي النجود الأسدي بالكوفة ، وعبد الله بن عامر اليحصي بالشام ، وعبد الله بن كثير بمكة ، ونافع بن أبي نعيم بالمدينة . وقبيل الثمالة حذف منهم يعقوب وأثبت مكانه على ابن حمزة الكسائي ، وانخرط يعقوب مع أبي جعفر يزيد بن الققاع وأبي محمد خلف بن هشام وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة المذكورين ، فكانت القراءات عشرة . ثم عرفت القراءات الأربع لمحمد ابن محيصن المكي والأعمش الكوفي والحسن البصري ويحيى اليزيدي ؛ فكانت القراءات أربع عشرة . والمشهور أن السبع متواترة والثلاث آحاد والأربع شاذة .

(٢) ترجع بعض مظاهر الاختلاف في قراءات القرآن إلى اختلاف في فهم المعنى وتوجيه التأويل كالخلاف في قراءة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » بضم الفاء أو فتحها ؛ و « غلبت الروم في أدنى الأرض » بضم الغين أو فتحها ؛ و « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال . . » بفتح الباء في يسبح أو بكسرها . ويرجع بعض مظاهر الاختلاف إلى اختلافهم في قراءة الكلمة حسب رسمها في المصحف العثماني . فقد كان هذا الرسم مجرداً من الإعجام والشكل ؛ ولذلك كان يمكن قراءة بعض الكلمات على وجوه مختلفة . وهذان النوعان من مظاهر الاختلاف في القراءات ليسا من موضوعنا في شيء لعدم تعلقهما باختلاف اللهجات .

(٣) وهذا في نظرنا هو أصح تفسير للحديث : « نزل القرآن على سبعة أحرف » . فالأحرف معناها في الحديث اللغات ، أى اشتمل على بعض مظاهر من ست لغات أخرى غير لغة قريش ، وهى لغات كينانة وأسد وهذيل وضبة وبنو سعد وثقيف . — انظر الصاحبي لابن فارس ص ٢٨ وتوابعها : «حدثنا... قال نزل القرآن على سبعة أحرف أو سبع لغات خمس بلغة العجز من هوازن وهم الذين يقال لهم عليا هوازن ... الخ » .

ومنها ما كان يتعلق بالقواعد وبنية الكلمات وأوزانها وما إلى ذلك ؛ ومنها ما كان يتعلق بالمفردات .

(فمن مظاهر الاختلاف في الأصوات مايلي :

إبدال همزة أن عينا في لغة تميم (ويسمى ذلك عنعنة تميم : « أعن توسمت .. » بدلا من « أن توسمت ») — وإبدال الهمزة هاء أحيانا في لغة طيء (« لهنك » بدلا من « لأنك ») . — وإبدال الميم باء والباء ميما في لغة مازن (« بالسمك » بدلا من « ما اسمك » و « مكر » بدلا من « بكر ») . — وحذف نون من الجارة عند ختم وزيد إذا وليها ساكن (« ملييت » مكان « من البيت » . وهي مطابقة لعامية مصر في العصر الحاضر) . — وقطع اللفظ قبل تمامه في لغة طيء (ويسمى ذلك قُطْعَة طيء : « يا أبا الحك » في « يا أبا الحكم » . ولم يكن هذا مقصوراً عندهم على المنادى . — وهذا الأسلوب منتشر في كثير من اللهجات العامية في مصر) . — وإبدال الكاف شيئا ولا سيما في الوقف في لغة أسد (ويسمى كشكشة أسد : « عlish » مكان « عليك ») . — وإبدال الكاف شيئا مطلقاً في لغة اليمن (ويسمى شلشنة اليمن : « ليش اللهم ليش ») . — وإلحاق سين بكاف المخاطب المذكر أو استبدالها بها في حالة الوقف في لهجة ربيعة للتفرقة بين المذكر والمؤنث (كسكسة ربيعة : « عليكس » مكان « عليك ») . — وإبدال العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء عند هذيل وقيس والأنصار وسعد بن بكر (استنطاء هذيل ، فيقولون : « إنا أنطيناك السكوثر » في « إنا أعطيناك السكوثر » . وهذا الأسلوب منتشر في اللهجات العامية بالعراق في العصر الحاضر) . — ووجود صوت بين القاف والكاف والجيم في كثير من لهجات اليمن . — ووجود صوت بين الشين والجيم والياء في بعض اللهجات (ويوجد هذا الصوت في عامية العراق في العصر الحاضر) . — وإلحاق صوت القاف باللهاء حتى يغلب فيقرب من صوت الكاف عند بني تميم ^(١) (وهو صوت الجاف أو الجيم غير المعطشة الذي يستبدل بصوت القاف العربي في كثير من اللهجات المصرية وغيرها : « جال » بدلا من « قال ») . — واستبدال الجيم بياء النسب وبياء المتكلم في الإضافة عند بني تميم (فيقولون « غلامج ، علج ، عشيج » بدلا من « غلامى ، على ، عشى ») . — وفتح باء الجر وكسر لامه في حالة جرهما لضمير المفرد الغائب في لغة قضاة (فيقولون

(١) وهذه اللهجة ورد قول شاعرهم : « ولا أكون لكدر الكوم مكفول » أو « ولا أجول

لجدر الجوم مجفول » (جيم غير معطشة) ، بدلا من : « ولا أقول لقدركوم مقفول » .

« مررت به ، والمال له » . — وإبدال السين تاء في بعض الكلمات في لغة اليمن (ويسمى الوتم : « النات » مكان « الناس ») . — وهمز ياء النبي في بعض اللهجات (« النبيء » وبها جاءت قراءة نافع) . — وتسكين ذال أذن في بعض اللهجات (وبها جاءت كذلك قراءة نافع) . — وإبدال الهمزة التـالية لهمزة الاستفهام هاء مع مد همزة الاستفهام أو عدم مدها (وبذلك جاءت قراءة نافع في مثل « أنذرتهم » : « آهذرتهم » رواية قالون ، « أهذرتهم » رواية ورش) . — وإمالة ألف المقصور اليائي (وبذلك جاءت قراءة نافع) . — وهمز الياء في مثل صيَاء (ضياء ، وبذلك جاءت قراءة ابن كثير) . — وتفخيم اللام بعد الصاد والضاد والطاء والظاء (وبذلك جاءت رواية ورش في قراءة نافع) . — وإدغام الصوتين المتحدّين في المخرج أو المتقاربين فيه إذا تجاوزا (« سلَّكم » ، « اتختمُّ » في سلَّكم واتخذتم ، وبذلك جاءت قراءة أبي عمرو) . — والنطق بالصاد في بعض الكلمات في صورة بين الصاد والزاي (وبذلك جاءت قراءة حمزة : « الصراط » و « أصدق ») .

(ومن مظاهر الاختلاف في القواعد) بنية الكلمات ووجوه الاشتقاق ... الخ)
الأمور الآتية :

ضم هاء « أيها » إذا لم يتلها اسم إشارة في لغة بني أسد (أيه الناس) . — وكسر أوائل الأفعال المضارعة في لهجة بهراء (تلتة بهراء : « يضرب » مكان « يَضْرِب » . وهذا الأسلوب منتشر في كثير من اللهجات العامية بمصر) . — وإبدال ياء الذين واواً في حالة الرفع في لغة هذيل . — وإبقاء ألف هذان وهاتان في حالتي النصب والجر في لغة بني الحارث بن كعب (وبها قرئ : « إن هذان لساحران ») . — وتعريف الاسم والصفة بأَم بدلا من أَل في لهجة حمير (طمطمانية حمير ، وبها جاء الأثر : « ليس من أمبر أمصيام في امسفر ») . — وقلب ألف المقصور ياء عند الإضافة في لغة هذيل (« سبقوا هوى » بدلا من « سبقوا هواي ») . — والوقوف على المنون بالسكون في حالة النصب في لهجة ربيعة (فيقال : « رأيت محمد » في حالة الوقف) . — وعدم إعمال « ما » في لغة تميم (ما محمد قائم) . — والاختلاف في صيغة الجمع (فجمع الأسير مثلا أسرى عند بعضهم وأسارى عند آخرين) . — والوقوف على هاء التأنيث بالتاء عند حمير (فيقال « هذه أمت » بدلا من « هذه أمة ») . — وإشباع الضمة في عين المضارع المضوم حتى يتولد عنها واو في بعض اللهجات (فيقال « أنظور » مكان

« أنظر ») . — وتسكين الهاء في له في الوصل في لغة أزد السراة . — ووصل واو بميم الجمع (« عليهمو » ، وبها جامت قراءة نافع) .

ومن المفردات التي بقيت عند بعض القبائل من لهجاتها الأولى : « المدية » وهي السكين عند دوس من الأزد (١) ؛ و « الغبيط » وهو مركب للنساء في لغة طيء ؛ و « ذو » بمعنى الذي في لغة طيء ؛ و « متي » بمعنى من الجارة في لغة هذيل ؛ و « وثب » بمعنى جلس في لغة حمير ، والوثاب عندهم الفراش ، ويقولون للملك إذا كان لا يغزو « موثبان » يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو ، ويقولون « وثبه وسادة » أي فرشته إياها وأجلسه عليها ؛ و « الخندع » و « القرعة » بمعنى الضفدع في بعض اللهجات ؛ و « الخنعة » وهي المتدلية في وسط الشفة ؛ و « البعقوت » و « البلقوت » وهو القصير ؛ و « العرتنة » وهي طرف الأنف ؛ و « الزلقوم » وهو الحلقوم ؛ و « البصاصة » وهي العين ؛ و « تمنى » بمعنى تمطى في بعض اللهجات ؛ و « الصفصف » بمعنى العصفور ؛ و « صحب » المذبوح بمعنى سلخه (٢) .. وهلم جرا .

(١٠) احتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها

وصراعتها معها وآثار ذلك

أتيح للغة العربية من قبل الإسلام ومن بعده فرص كثيرة للاحتكاك بلغات أخرى من فصيلتها ومن غير فصيلتها .

فقد توثقت العلاقات المادية والثقافية منذ أقدم العصور بين العرب وجيرانهم الآراميين في الشمال عن طريق التجارة والهجرة والرحلات وامتزاج بعض قبائل آرامية بالعالم العربي في الحجاز نفسه أو على تخومه . فكان لزاماً إذن أن تتأثر اللغتان إحداهما بالأخرى وفقاً لنواميس علم اللغة (٣) . وقد ظهر لكثير من المحققين أن معظم

(١) روى أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خير لقي النبي صلى الله عليه وسلم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ناولني السكين » فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد بهذا اللفظ ، فكرر الرسول له قوله وهو يفعل فعلته الأولى ، ثم قال : « المدية تريد ؟ » وأشار إليها ، فقال له نعم ، فقال : « أو تسمى عندكم سكيناً ، فوالله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » . ولفظ سكين ليست عربية الأصل على الأرجح ، بل انتقلت إلى العربية من الآرامية كما سندكر ذلك في أول الصفحة التالية .

(٢) انظر في هذا الموضوع : الصاحبي لابن فارس ص ١٥ وتوابعها ، والخصائص لابن جني ٣٩٥ ،

٤١١ ، والمزهر للسيوطي الجزء الأول صفحات ١٠٦ — ١١١ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في الفصل الرابع من كتابنا « علم اللغة » .

الكلمات العربية الدالة على مظاهر الحياة الحضرية وما إليها من الأمور التي لم تكن مألوفة في البيئة العربية الأولى، ومعظم الكلمات المتعلقة بمنتجات الصناعة وشئون التفكير الفلسفي والمتصلة بما وراء الطبيعة...؛ ظهر لهم أن معظم هذه الكلمات وما إليها قد انتقلت إلى العربية من الآرامية (شيطان، سكين، سارية... الخ^(١)). ويبدو هذا التأثير في أوضح صورة في اللهجات «العربية البائدة» كما تقدمت الإشارة إلى ذلك^(٢).

ولم يكن ما أتيح للعرب من فرص للاحتكاك بحيرانهم الآراميين في الشمال شيئاً مذكوراً بجانب ما أتيح لهم من فرص للاحتكاك بحيرانهم اليمنيين في الجنوب. فقد كانت العلاقات الثقافية والاقتصادية والدينية على أقوى ما يكون بين الشعبين، وفضلاً عن ذلك، فقد هاجر إلى بلاد العرب منذ عصور سحيقة في القدم كثير من القبائل اليمنية^(٣). وخاصة قبائل معين وخزاعة والأوس والخزرج، وتألفت منهم هناك جاليات قوية امتزجت بالعرب كل الامتزاج. وكانت الرحلات العربية إلى بلاد اليمن للتجارة وغيرها لا يكاد يخلو منها فصل من فصول السنة. وقد أتاح هذا كله فرصاً كثيرة للاحتكاك بين لغتي هذين الشعبين؛ فاشتبكاً في صراع عنيف انتهى بانتصار العربية على اللغات اليمنية القديمة في المرحلة الأخيرة من العصر الجاهلي كما تقدمت الإشارة إلى ذلك^(٤). ومن المقرر أن اللغة المقهورة تترك في اللغة الغالبة آثاراً كثيرة في محتلف المظاهر وخاصة في المفردات. فلا بد إذن أن يكون قد انتقل إلى العربية كثير من آثار اللغات اليمنية التي قهرتها. غير أنه من المتعذر، على ضوء معلوماتنا الضئيلة عن هذين الفرعين في عهودهما الأولى، أن نميز ما انتقل إلى العربية من اللغات اليمنية القديمة.

ثم أدت الفتوح العربية بعد الإسلام إلى امتزاج العرب واحتكاكهم بكثير من الشعوب؛ فاشتبكت لغتهم من جراء ذلك في صراع مع اللغات الآرامية في سوريا ولبنان والعراق، ومع القبطية بمصر، ومع البربرية في شمال أفريقيا، ومع الفارسية بإيران، ومع التركية ببلاد المغول، ومع القوطية بإسبانيا؛ وقضت قوانين الصراع

(١) يذهب بروكلمان إلى أن جل هذه الكلمات إن لم يكن كلها من أصل آرامي (انظر بروكلمان

فقرة ٢٣ صفحة ٣٨ وفقرة ٥٥ ص ٧٢).

(٢) انظر آخر ص ٧٥ وتوابعها.

(٣) يظن أن هجرة المعينيين إلى بلاد العرب قد حدثت في الألف الثاني ق م.

(٤) انظر ص ٦٠ وتوابعها.

اللغوى أن تصرع اللغات الثلاث الأولى منها^(١). حتى أصبحت المساحة التي تستخدم فيها العربية لغة حديث وكتابة نحو ١٤ مليون كيلو متر مربع ، وبلغ عدد المتكلمين بها أكثر من ٤٠ مليون نسمة^(٢). ولكنها خرجت من صراعها هذا وهي متأثرة باللغات التي صرعتها تأثراً يختلف قوة وضعفاً باختلاف اللغات . فتأثرها بالسريانية مثلاً كان أظهر كثيراً من تأثرها بالقبطية والبربرية ، بل إنها لم تكد تتأثر بهاتين اللغتين الأخيرتين إلا في اللهجات العامية التي انشعبت منها في مناطقهما الأولى (مصر وشمال أفريقيا) . وقد انتقل إليها عن طريق السريانية بعض كلمات يونانية كانت السريانية قد اقتبستها من اليونانية من قبل (أنجيل ، اسطوانة ، أسقف ، ناموس ، اسفنج ... الخ) .

وصراع العربية مع الفارسية قد ترك في كليهما آثاراً ظاهرة من الأخرى على الرغم من أنه لم ينم بتغلب واحدة منهما . فقد انتقل إلى كليهما من الأخرى كثير من المفردات والأساليب والأخيلة والتراكيب . ولكن أثر العربية في الفارسية كان أوسع نطاقاً من أثر الفارسية في العربية . ويظهر هذا الأثر بشكل واضح في ناحية المفردات ؛ حتى أن معظم مفردات الفارسية الحديثة عربي الأصل^(٣).

أما صراع العربية مع التركية والقوطية فقد ترك في هاتين اللغتين آثاراً واضحة من العربية ، ولكن لم يكد يترك في العربية شيئاً منهما . فقد اقتبست كلتاهما من العربية

(١) تنص قوانين اللغات أنه في مثل الحالة التي كانت عليها اللغة العربية مع هذه اللغات لا يتم النصر للغة الشعب الغالب إلا بخمسة شروط : (أحدها) أن يكون أرق من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته وأقوى منه سلطاناً وأوسع نفوذاً ؛ (وثانيها) أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ؛ (وثالثها) أن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفرادها في بلاد الشعب المغلوب ؛ (ورابعها) أن تبرز بأفراد هذا الشعب ؛ (وخامسها) أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين . وقد توافرت جميع هذه الشروط في حالة العربية مع الآرامية والقبطية والبربرية . ولم تقو العربية على التغلب على الفارسية لاختلال جميع الشروط السابقة تقريباً (ما عدا الشرط الثاني) . ولم تقو على التغلب على القوطية لاختلال الشرطين الرابع والخامس . ولم تقو على التغلب على التركية لأن العرب لم يكادوا يفهمون بلاداً تركية اللسان ولاختلال الشروط الثلاثة الأخيرة (انظر تفصيل ذلك في الفقرة الثانية من الفصل الرابع من كتابنا « علم اللغة ») .

وقد أفلت من هذا المصير بعض قرى في العراق وسوريا ولبنان لا تزال تتكلم لهجات آرامية إلى العصر الحاضر (انظر صفحتي ٥٣ ، ٥٤) ؛ وأفلت منه كذلك بعض عشائر في شمال أفريقيا لا تزال محتفظة بلهجاتها البربرية إلى العصر الحاضر .

(٢) انظر الفقرة الثالثة من الفصل الثالث من كتابنا « علم اللغة » .

(٣) V. Renan, ob. cit, 392.

طائفة كبيرة من المفردات ؛ وكان حظ التركية من ذلك أوسع كثيرا من حظ القوطية^(١) ؛ على حين أن أثرهما فيها لم يكد يظهر إلا في بعض اللهجات العامية المنشعبة عن اللغة العربية .

ولم يقف أمر نفوذ العربية عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى جميع الأمم الإسلامية الأخرى (الهند ، أفغانستان ، تركستان ، الكرد ، بخارى ... الخ) . فأنزلت العربية عند هذه الأمم منزلة مقدسة سامية ، لأنها لغة القرآن والحديث اللذين يقوم عليهما الدين الإسلامي ؛ وهي التي ألف بها جميع كتب التفسير والسنة والفقه والأصول والتوحيد... وما إلى ذلك ؛ وهي فضلا عن هذا وذاك اللغة التي يجب أن يؤدي بها كثير من العبادات الإسلامية . وكان من أثر ذلك أن تركت العربية في لغات هذه الأمم آثارا ذات بال ، وانتقل منها إلى هذه اللغات كثير من المفردات . وقد بلغ هذا الأثر مبلغا كبيرا في بعض اللغات المستخدمة في المناطق الهندية الإسلامية . فنحو ٧٥ في المائة من مفردات اللغة الأردنية مثلا يتألف من كلمات عربية الأصل أو فارسيته^(٢) . فاستعت بذلك مناطق نفوذ اللغة العربية اتساعا كبيرا ، حتى بلغ عدد الناطقين بها والمتأثرين بسلطانها زهاء ٢٥٠ مليونا .

وقد أتيج للغة العربية في أثناء الحروب الصليبية فرص للاحتكاك باللغات الأوروبية الحديثة ، فاقبست منها هذه اللغات كثيرا من المفردات ، وتركت فيها بعض الآثار . وفي العصور الحديثة كثرت فرص الاحتكاك بينها وبين هذه اللغات وتنوعت أسبابه بفضل انتشار الثقافة الأوروبية بمصر والشام والعراق وشمال أفريقيا ، وبفضل البعثات العلمية التي أوفدها هذه البلاد إلى الغرب ، وترجمة منتجات الفرنجة إلى اللغة العربية . فتأثرت بذلك اللغة العربية أيما تأثر في أساليبها وأخيلتها ومعانيها ومنهج علاجها للمسائل ، ونشأت بها فنون جديدة كفن القصص التمثيلي وما إليه ، وانتقل

(١) لم يكد يبقى للغة التركية من فصيلتها التتية إلا القواعد . أما مفرداتها فمعظمها عربي الأصل أو فارسية . فقد تجمع في التركية إذن ثلاث فصائل : فهي سامية آرية تترية في متن لغتها وتتية فقط في قواعدها . V. Renan, op. cit. 393 . وقد حاول الأتراك في نهضتهم الحديثة أن يخلصوا متن لغتهم من بعض المفردات العربية والفارسية ويستبدلوا بها كلمات تركية أو لاتينية .

أما تأثر القوطية بالعربية فكان ضيق النطاق ، ولكن لا تزال مظاهره باقية إلى الآن في لغات أسبانيا والبرتغال .

إليها كثير من المفردات الأوروبية في مصطلحات العلوم والفنون ... وما إلى ذلك ، فازدادت بذلك ثروة وقدرة على التعبير .

(١١) خصائص اللغة العربية

توافر للغة العربية عاملان لم يتوافرا لغيرها من اللغات السامية : أحدهما أنها نشأت في أقدم موطن للساميين ، وثانيهما أن الموقع الجغرافي لهذا الموطن قد ساعد على بقائها حيناً من الدهر متمتعة باستقلالها وعزلتها .

وكان من أثر هذين العاملين أن احتفظت بأكثر قدر من مقومات اللسان السامي الأول ، وبقي فيها من تراث هذا اللسان ما تجردت منه أخواتها السامية ، فتميزت عنها بفضل ذلك بخواص كثيرة من أهمها الأمور الثلاثة الآتية :

١ - أنها أكثر أخواتها احتفاظاً بالأصوات السامية . فقد اشتملت على جميع الأصوات التي اشتملت عليها أخواتها السامية ^(١) ، وزادت عنها بأصوات كثيرة لا وجود لها في واحدة منها : الشاء ، الذال ، الظاء ، الغين ، الضاد ...

٢ - أنها أوسع أخواتها جميعاً وأدقها في قواعد النحو والصرف . فجميع القواعد التي تشتمل عليها اللغات السامية الأخرى يوجد لها نظير في العربية ، بينما تشتمل العربية بجانب ذلك على قواعد كثيرة لا نظير لها في واحدة منها أو توجد في بعضها في صورة بدائية ناقصة ^(٢) .

٣ - أنها أوسع أخواتها ثروة في أصول الكلمات والمفردات . فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها ، وتزيد عنها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول ولا يوجد لها نظير في أية أخت من أخواتها . هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلها وجرفها ما لم يتجمع مثله للغة سامية أخرى ^(٣) .

(١) ما عدا صوتاً أو صوتين تقدمت الإشارة إليهما بصفحة ١٧ سطر ١٨ ، ولعلمها غير ساميين .

(٢) V. Renan, op. cit. 384, 385

(٣) اللغة العربية خواص أخرى كثيرة ولكنها ليست جوهرية بدرجة الخواص التي ذكرناها . هذا إلى أن كثيراً منها لا يصبح اعتباره « خواص » بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . ومن هذه الأمور طريقتها في تصغير الأسماء . وقد ظهر للباحثين أن هذه الطريقة توجد فيها منذ أقدم عهودها وليست مستحدثة بدليل وجودها في أسماء بعض الأمكنة والأشخاص : حنين ، كليب ... الخ . ومن هذه الأمور كذلك طريقة التعريف بال (انظر ص ١٧) .

ولأهمية الخاصيتين الأخيرتين واختلاف الآراء بصددهما سنفرد لكل منهما فقرة على حدها .

(١٢) قواعد اللغة العربية : الإعراب واختلاف الآراء بصدد

تمتاز اللغة العربية بأنها أوسع أخواتها السامية جميعاً وأدقها في قواعد الصرف والنحو .

فمن مميزات الصرفية أن الأصل الواحد يتوارد عليه مئات من المعاني ، بدون أن يقتضى ذلك أكثر من تغييرات في حركات أصواته الأصلية نفسها مع زيادة بعض أصوات عليها أو بدون زيادة ، وأن كل ذلك يجرى وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشذوذ (عَلِمَ ، عَلِمْنَا... أَعْلَمَ يَعْلَمُ ، نَعْلَمُ .. اعْلَمْ ، إَعْلَمْ ، نَعْلَمُ ، نُعْلَمُ ... تَعْلَمُ ... تَعَالَمُ ... عُلِمَ ، يُعْلَمُ ... عِلْمٌ ، عِلْمٌ ، علامة ، علوم ، أعلام ، علامات ، عالم ، عليم ، علامة ، علماء ، عالمون ... متعلَّم ، مُتَعَلِّمٌ ، مُعَلِّمٌ ، مُعَلِّمٌ ، معلِّمٌ ، معلوم ، عالمٌ ، عالمون ... الخ) . ولم تصل أية لغة سامية أخرى في هذه الناحية إلى هذا الشأ . — ومن ذلك أيضاً نظام جمع التكسير (الذى لا تشاركها فيه إلا أخواتها الجنوبيتان اليمنية القديمة والحبشية) ؛ فقد توسعت هي في استخدامه توسعاً كبيراً ، حتى أصبح للمفرد الواحد فيها عدة جموع من هذا النوع (١) .

ومن مميزات النحوية تلك القواعد الدقيقة التي اشتهرت باسم قواعد الإعراب والتي يتمثل معظمها في أصوات مد قصيرة تلحق أواخر الكلمات لتدل على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة . وهذا النظام لا يوجد له نظير في أى أخت من أخواتها السامية ، اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية في العبرية والآرامية والحبشية (٢) . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة ، وخاصة قواعد

(١) يرى بروكلان ورينان وغيرها أن هذه الخاصة مجردة من الفائدة ومسببة للاضطراب . وفي الحق أنه ليس لها ما للخاصة الأولى (تغير المعاني بتغير البنية) من الفوائد ؛ ولكنها لا تخلو من فائدة في الدلالة . فصيغ التكسير التي تتوارد على اللفظ الواحد ليست جميعها سواء في المعنى ؛ لأن بعضها يفيد كثرة العدد (جموع الكثرة) وبعضها يفيد قلته (جموع القلة) ؛ وبعضها جمع مباشر ، وبعضها جمع للجمع ... وهلم جرا . هذا إلى أنها توسع من نطاق اللغة وتضعف المتكلم والكاتب . أما سبب هذه الظاهرة فيرجع قسط كبير منه إلى تعدد اللغات ، وذلك أنه قد انتقل إلى لغة قريش صيغ جموع كانت مستخدمة في اللهجات العربية الأخرى .

الإعراب ، لم تكن مراعاة إلا في لغة الآداب شعرها وخطابها ونثرها ، أما لهجات الحديث فكانت من أقدم عصورها غير معربة ، أو على الأقل لم يكن لقواعد الإعراب فيها ما كان لها في لغة الآداب من شأن ، واستدل على رأيه هذا بأدلة كثيرة أهمها ديلان :

أحدهما دليل لغوي وهو أن جميع اللهجات العامية المنشعبة من العربية والتي تستخدم الآن في الحجاز ومصر والعراق والشام وبلاد المغرب مجردة من الإعراب ؛ فلو كانت لهجات المحادثة العربية القديمة معربة لانتقل شيء من نظامها هذا إلى جميع اللهجات الحاضرة أو إلى بعضها .

وثانيهما دليل منطقي عقلي وهو أن قواعد هذا شأنها في التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقتها ببعضها ببعض ، لا يعقل أنها كانت مراعاة في لهجات الحديث ؛ لأن لهجات الحديث تتوخى في العادة السهولة واليسر وتلجأ إلى أقرب الطرق للتعبير (١) .

بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ؛ فزعم أن هذه القواعد لم تكن مراعاة في لهجات الحديث ولا في لغة الكتابة ، وإنما خلقها النحاة خلقاً قاصدين بذلك تزويد اللغة العربية بنظم شبيهة بنظم الإغريقية ، حتى يكمل نقصها في نظرهم وتسمو إلى مصاف اللغات الراقية . ويعتمد هؤلاء في تأييد هذا المذهب على نفس الدليلين اللذين اعتمد عليهما الفريق الأول مع توجيههما وجهة تتفق مع ما يذهبون إليه ، وعلى دليل ثالث خلاصته أن قواعد هذا شأنها تشعباً ودقة لا يعقل أن تكون قد نشأت من تلقاء نفسها ، ولا يمكن لعقليات ساذجة كعقليات العرب في عصورهم الأولى أن تقوى على خلقها فهي تحمل آثار الصنعة الدقيقة المحكمة ، ويبدو عليها طابع من عقلية المدارس النحوية التي ظهرت في العهود الإسلامية بالبصرة والكوفة وما إليهما .

وقد تبين فساد هذين المذهبين لجميع المحققين من الباحثين ؛ حتى لاكثرهم تحاملا على الساميين ، وأشدهم ولوعاً بالانتقاص من حضارتهم ولغاتهم كالأستاذ رينان الفرنسي (٢) . وإليك طرفاً من الأدلة التي لا تدع مجالاً للشك في فسادهما :

١ - إن عدم وجود هذه القواعد في اللهجات العامية الحاضرة ، لا ينهض دليلاً

(١) يميل إلى هذا المذهب الأستاذ كوهين في كتاب :

Langues du Mond, chap. "Arabe,"

V. Renan op. cit. 398 — 403 (٢)

على أنها لم تكن موجودة في العربية الأولى ، فقد انتاب أصوات اللغة العربية وقواعدها في هذه اللهجات كثير من صنوف التغير والانحراف ، وخضعت لقوانين التطور في مفرداتها وأوزانها ودلالاتها ، فبعدت بعداً كبيراً عن أصلها ، كما سيأتى بيان ذلك في الفقرة الرابعة عشرة من هذا الفصل .

٢ - (وليس بغريب أن تتفق اللهجات العامية جميعاً في التجرد من علامات الإعراب . فقد خضعت لقانون من قوانين التطور الصوتي ، وهو « ضعف الأصوات الأخيرة في الكلمة وانقراضها » ، وهو قانون عام قد خضعت له جميع اللغات الإنسانية في تطورها ، فما كان يمكن أن تفلت منه لهجة من اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما سيأتى بيان ذلك في الفقرة الرابعة عشرة من هذا الفصل (١) .

٣ - (على أنه قد بقى في اللهجات العامية الحاضرة كثير من آثار الإعراب وخاصة الإعراب بالحروف) (فيقال مثلاً في عامية المصريين وغيرهم « أبوك ، وأخوك » ، لا « أبك » و « أخك ») ؛ وينطق بجمع المذكر السالم مع الياء والنون (الطينين ، المؤمنين الخ ...) ؛ وفي معظم لهجات العراق في العصر الحاضر ينطق بالأفعال الخمسة مثبتة فيها نون الإعراب (يمشون ، تمشين ، تمشون ..) ؛ وروى بعض الباحثين أن آثار الإعراب بالحركات لا تزال باقية في لهجات بعض القبائل الحجازية في العصر الحاضر .

٤ - (يستفاد من كثير من كتب التاريخ ، وخاصة كتب أبي الفداء أن بعض علامات الإعراب ظلت باقية في بعض لهجات المحادثة المنشعبة عن العربية حتى أواخر العصور الوسطى .

٥ - (إن دقة القواعد وتشعبها لا يدلان مطلقاً على أنها مخترعة اختراعاً . فالليونانية واللاتينية مثلاً في العصور القديمة والألمانية في العصر الحاضر ، يشتمل كل منها على قواعد لا تقل في دقتها وتشعبها عن قواعد اللغة العربية ، ولم يؤثر هذا في انتقالها من جيل إلى جيل عن طريق التقليد ، ولا في مراعاتها في الحديث ، ولم يقل أحد أنها من خلق علماء القواعد .

٦ - (إن خلق القواعد خلقاً محاولة لا يتصورها العقل ، ولم يحدث لها نظير في التاريخ ، ولا يمكن أن يفكر فيها عاقل أو يتصور نجاحها ؛ فمن الواضح أن قواعد

(١) انظر كذلك تفصيل هذا القانون في الفقرتين الرابعة والسادسة من الفصل السابع من كتابنا

اللغة ليست من الأمور التي تخترع أو تفرض على الناس ، بل تنشأ من تلقاء نفسها وتكون بالتدريج .

٧- إن علماء القواعد العربية لم يكونوا على علم باللغة اليونانية وقواعدها ، ولم تكن لهم صلة ما بعلماء القواعد من الإغريق . هذا إلى أن قواعد اللغة العربية تختلف في طبيعتها ومناهجها اختلافا جوهريا عن قواعد اللغة اليونانية . فلو كانت قواعد العربية قد اخترعت على غرار القواعد اليونانية كما يزعمون لجاءت متفقة معها ، أو على الأقل مشبهة لها في أصولها ومناهجها .

٨- يدلنا التاريخ أن علماء البصرة والكوفة كانوا يلاحظون المحادثة العربية في أصح مظاهرها ويستنبطون قواعدهم من هذه الملاحظة ، وأنهم كانوا لا يدخرون وسعا في دقة الملاحظة واتخاذ وسائل الحيلة ، حتى أنهم ما كانوا يشقون بأهل الحضرة لفساد لغتهم ، ولا بالقبائل التي احتكت ألسنتها بلغات أجنبية كلخم وجذام وقضاغة وغسان وإياد وبكر وأزد عمان وأهل اليمن ، وأنهم كانوا يبذلون في سبيل ذلك من وقتهم وجهودهم شيئا كثيرا ، فكانوا يرحلون إلى الأعراب في باديتهم ويقضون عندهم الشهور بل السنين ، وعلماء هذا شأنهم دقة واحتياط وإخلاصا للعلم لا يعقل أن يتواطأوا جميعا على مثل هذا الإفك المبين .

٩- وإذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد نواطأوا جميعا على ذلك ، فإنه لا يمكن أن نتصور أنه تواطأ معهم عليه جميع العلماء من معاصريهم ، فأجمعوا كلمتهم ألا يذكر أحد منهم شيئا ما عن هذا الاختراع الغريب . ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد على أنها ممثلة لقواعد لغتهم ويحتدون بها في كتاباتهم ، اللهم إلا إذا كان علماء البصرة والكوفة قد سحروا عقول الناس واسترهبوهم وأنسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها ، فجعلوهم يعتقدون أن ما جاءوا به من الإفك يمثل لفصيح هذه اللغة .

١٠- إن النقوش التي كشفت حديثا في شمال الحجاز والتي أشرنا إليها في الفقرة الثالثة من هذا الفصل لتدلنا أقطع دلالة على أن الإعراب كان مستخدما في « العربية البائدة » نفسها . فبعض العلامات الإعرابية قد رمز إليه في هذه النقوش بحروف ملحقة بآخر الكلمة كما تقدم بيان ذلك (١) .

١١- لم تنفرد اللغة العربية من بين أخواتها السامية انفرادا كاملا بنظام الإعراب ،

(١) انظر آخر صفحة ٧٥ وتوابعها وخاصة ص ٧٦ السطور ١٢-١٤ وتعليق رقم ١ ، والتعليق

فلهذا النظام آثار في اللغات الحبشية السامية ، وخاصة في الجعزية والأمهرية (١) .
صحيح أن هذه الآثار محدودة ضئيلة ، وأنها تختلف اختلافا غير يسير عن نظام
الإعراب في اللغة العربية ؛ ولكن وجود أثر لهذا النظام في لغة سامية لا تزال لغة
حديث إلى الوقت الحاضر ، كاللغة الأمهرية — مهما كان هذا الأثر ضئيلا ، وعلى أى
صورة كانت أوضاعه — لدليل قاطع على أنه منجدر من الأصل السامى الأول وليس
من خلق النحاة .

١٢ — تقوم أوزان الشعر العربى وقواعده الموسيقية على ملاحظة نظام الإعراب
في المفردات ، فبدون إعراب الكلمات تحتل أوزان هذا الشعر وتضطرب موسيقاه .
وبما لا شك فيه أن هذه الأوزان سابقة لعلماء البصرة والكوفة ، وأن شعرا عربيا كثيرا
قد قيل على غرارها من قبل الإسلام ومن بعده قبل أن يُخلق هؤلاء العلماء . فإنكار
هذا الشعر لا سبيل إليه . ولا يمكن أن يكون قد ألّف غير معرب الكلمات ؛ لأن
عدم إعرابها يترتب عليه اضطراب أوزانه واختلال موسيقاه .

١٣ — وأقوى من هذا كله في الدلالة على فساد هذا المذهب تواتر القرآن الكريم
ووصوله إلينا معرب الكلمات .

١٤ — وإن في رسم المصحف العثمانى نفسه ، مع تجرده من الإعجام والشكل ،
لدليلا على فساد هذا المذهب وذلك أن المصحف العثمانى يرمز إلى كثير من علامات
الإعراب بالحروف (المؤمنون ، المؤمنين ...) ، وعلامة إعراب المنصوب المنون
(رسولا ، شهيدا ، حسيبا ، بصيرا ...) وهلم جرا . ولا شك أن المصحف العثمانى
قد دُوّن في عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة والكوفة الذين تنسب إليهم
هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الإعراب .

فنظام الإعراب عنصر أساسى من عناصر اللغة العربية ، وقد اشتملت عليه منذ
أقدم عهودها . وكل ما عمله علماء القواعد حياله هو أنهم استخلصوا منها استخلاصا
من القرآن والحديث وكلام الفصحاء من العرب ، ورتبوها ، وصاغوها في صورة
قواعد وقوانين .

غير أنه لا يسعنا أن نشكر أن قواعد الإعراب لم يكن لها قديما لهجات الحديث
ما كان لها في لغة الأدب من شأن . وذلك أن طائفة كبيرة من هذه القواعد لا تظهر

وظائفها وتمس الحاجة إليها إلا في مسائل التفكير المنظم المسلسل، والمعاني المرتبة الدقيقة التي يندر أن تعالج في لغات التخاطب العادي. وهكذا الشأن في جميع لغات العالم، فكثير من قواعد الفرنسية مثلاً يندر أن يحتاج إليها في المحادثة العادية. وفضلاً عن ذلك فقد نقل إلينا المؤرخون الثقات أن ألسنة العرب كانت عرضة للزلل في هذه القواعد منذ العصر الإسلامي، بل قبل ذلك العصر، وأن هذا اللحن لم يكن مقصوراً على عامتهم، بل كان يقع من الخاصة والخلفاء والمحدثين، وأئمة الفقهاء أنفسهم^(١). ويظهر أن هذا اللحن كان يقع منهم حتى في تلاوة كتاب الله، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أعربوا القرآن^(٢)». وهذا يدل على أنه سمع بعض الناس في عصره يقرؤه ملحوناً.

(١٣) مفردات اللغة العربية

كثرتها ومترادفاتها واختلاف الآراء بصدد

من أهم ما يمتاز به العربية أنها أوسع أخواتها السامية ثروة في أصول الكلمات والمفردات. فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها، وتزيد عنها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول، ولا يوجد لها نظير في أية أخت من أخواتها. هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال... ما لم يجتمع مثله للغة سامية أخرى، بل ما يندر وجود مثله في لغة من لغات العالم. فقد جمع للأسد خمسمائة اسم، ولثعبان مائتا اسم. وكتب الفيروز ابادي صاحب القاموس المحيط كتاباً في أسماء العسل، فذكر له أكثر من ثمانين اسماً، وقرر مع ذلك أنه لم يستوعبها جميعاً. ويرى الفيروز ابادي أنه يوجد للسيف في العربية ألف اسم على الأقل؛ ويقرر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للداهية؛ ويوجد لكل من المطر

(١) انظر ابن خلكان في حياة أبي الأسود، وانظر الصاحي لابن فارس ص ٣١ إذ يقول: «وإن قبيحا مفراطاً في القباحة بمن يعيب مالك بن أنس بأنه لحن في مخاطبة العامة بأن قال: «مطرنا البارحة مطراً أى مطراً» أن يرضى هو لنفسه أن يتكلم بمثل هذا. لأن الناس لم يزالوا يلحنون ويتلاحنون فيما يخاطب بعضهم بعضاً إلتقاء للخروج من عادة العامة فلا يعيب ذلك من ينصفهم من الخاصة».

(٢) الصاحي لابن فارس ص ٣١ - وإذا صح هذا الحديث لا يكون الغرض من الإعراب ما يقصده النحاة بالضبط، لأن كلمة الإعراب لم يكن لها هذا المعنى في عصر الرسول عليه السلام، وإنما يكون الغرض منها مجرد الإبانة وإظهار الحروف والحركات وتلاوته وفق قواعد العربية.

والريح والنور والظلام والناقة والحجر والماء والبئر أسماء كثيرة تبلغ عشرين في بعضها وتصل إلى ثلثمائة في بعضها الآخر. وقد جمع الأستاذ دو هامر De Hammer المفردات العربية المتصلة بالجل وشثونه، فوصلت إلى أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربعة وأربعين (١). وكذلك الشأن في الأوصاف: فلكل من الطويل والقصير والكريم والبخل والشجاع والجبان... في اللغة العربية عشرات من الألفاظ.

وفي ذلك تختلف العربية الفصحى اختلافاً كبيراً عن اللهجات العامية الحديثة المنشعبة عنها. فمتون هذه اللهجات ضيقة كل الضيق لا تكاد تشتمل على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي. وتكاد تكون مجردة من المترادفات، كما سيأتي بيان ذلك (٢).

وقد كان هذا أحد الأسباب التي حملت بعض الباحثين على أن يقف حيال مفردات اللغة العربية موقف الشك الذي وقفة آخرون حيال قواعدها (٣). فزعم أنه لا يبعد أن يكون جامعو المعاجم قد خلقوا كثيراً من هذه المفردات خلقاً لحاجات في نفوسهم. وفساد هذا الرأي لا يحتاج إلى بيان.

فلهجات المحادثة في جميع الأمم تقتصر في العادة على الضروري وتنفر من السكالي، وتنأى عن مظاهر الترف في المترادفات وما إلى ذلك. ولذلك تتسع دائماً هوة الخلاف بينها وبين اللغة الفصحى في هذه الناحية. فليست العربية فذة في هذا الباب، بل تشترك معها فيه «جميع لغات الآداب» أو «اللغات الفصحى». واليك مثلاً اللغة الفرنسية الفصحى، أو لغة الكتابة، واللغة الفرنسية المستخدمة في التخاطب العادي؛ فالفرق بينهما في المفردات لا يكاد يقل عن الفرق بين العربية الفصحى واللهجات العامية الحديثة المتفرعة منها.

أما جامعو المعاجم فيدلنا التاريخ وتدلنا آثارهم على شدة حرصهم على تحرى الحق. فقد استخلصوا معظم ما اشتملت عليه معاجمهم من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام والآثار العربية في العصر الجاهلي والعصور الإسلامية الأولى. واستخلصوا بعضه من العرب المعاصرين لهم. وكانوا شديدي الحيلة في هذه الناحية إلى حد الإفراط. فكانوا

(١) V. Renan, Langues Sémitiques 387

(٢) انظر آخر الفقرة الرابعة عشرة من هذا الفصل.

(٣) انظر صفحتي ١٠٢، ١٠٣.

يتحاشون الأخذ بمن تشوب عريته أية شائبة. ولذلك كانوا لا يكادون يأخذون إلا عن عرب البادية لفصاحة ألسنتهم، وبعد لهجاتهم عن التأثير باللغات الأعجمية، وعزلتهم وقلة احتكاكهم بغيرهم. فكانوا يترقبون مجيء أعراب البادية إلى المدن في التجارة أو غيرها... فيستمعون إلى حديثهم ويناقشونهم في مختلف شؤون اللغة، ويدونون من فورهم كل ما يهديهم إليه هذا الحديث وترشدهم إليه هذه المناقشة بصدد مفردات اللغة ودلالاتها ووجوه استخدامها. وكانوا يتبعون أحياناً ما يسميه علماء اللغة بطريقة «الملاحظة السلبية» Observation passive^(١)، فيرحلون إلى البادية ويقضون فيها بين ظهراني الأعراب الأشهر بل السنين، يعاشرهم ويستمعون إليهم في أحاديثهم الطبيعية، ويدونون ما يقفون عليه في هذا السبيل. وفي ذلك يقول أبو نصر الفارابي^(٢) في كتابه: «الألفاظ والحروف»: «والذين عنهم نقلت اللغة العربية بين قبائل العرب هم قيس وقيم وأسد، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا من لحم وجذام لمجاورتهم أهل مصر والقط، ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون العبرية، ولا من تغلب لمجاورتهم الروم، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط^(٣) والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين لأهل فارس والهند، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم لأهل الحبشة والهند، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن من المعينيين وغيرهم وقربهم من الجاليات اليمنية، ولا من حواضر الحجاز لأن السنة أهلها كانت قد فسدت حينئذ لامتزاجهم بأهم كثيرة^(٤). ويقول ابن خلدون: «وكانت لغة قريش أفصح اللغات وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتها، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. فأما من بعد عنهم من ربيعة ولحم وجذام وغسان وإياد وقضاة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغاتهم تامة الملكة لمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية^(٥)».

(١) انظر تفصيل ذلك في الفقرة التاسعة من التمهيد بكتابنا «علم اللغة».

(٢) هو أبو نصر اسمعيل بن حماد الجوهري الفارابي صاحب معجم الصحاح.

(٣) في الأصل «القط» وصوابه «النبط» كما لا يخفى.

(٤) المزهرة للسيوطي جزء أول ص ١٠٤ بتأخير وتصرف في العبارة.

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٥.

وما اتخذوه من وسائل الحيلة حيال القبائل والأمكنة اتخذوه حيال الأزمته والعصور . فلم يأخذوا إلا عن العصور التي كان فيها اللسان العربي سليما لم يصبه بعد تبليل أعجمي ولا انحراف عن أوضاع اللغة الفصحى . ولذلك لم يأخذوا إلا عن عرب الجاهلية والإسلام إلى نهاية القرن الثاني الهجري بالنسبة إلى فصحاء الحضر ، وإلى أواسط الرابع بالنسبة إلى فصحاء البادية ، وسموا هذه العصور « عصور الاحتجاج » ، وأهملوا ما عداها مبالغة في الدقة وحرصا على تحرى وجوه الصدق واليقين .

أما الأسباب الحقيقية لكثرة المفردات والمترادفات إلى الحد الذي وصفناه فيرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ — أن طول احتكاك لغة قريش باللهجات العربية الأخرى قد نقل إليها طائفة كبيرة من مفردات هذه اللهجات . ولم تقف لغة قريش في اقتباسها هذا عند الأمور التي كانت تعوزها ، بل انتقل إليها كذلك من هذه اللهجات كثير من المفردات والصيغ التي لم تكن في حاجة إليها لوجود نظائرها في متنها الأصلي ، فغزرت من جراء ذلك مفرداتها وكثرت فيها المترادفات في الأسماء والأوصاف والصيغ ، وأصبحت الحالة التي انتهت إليها أشبه شيء ببحيرة امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة كما سبق بيان ذلك^(١) وإلى هذا يشير ابن جني في كتابه الخصائص إذ يقول : « وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن يكون لغات الجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا وهناك » . ويشير إليه كذلك ابن فارس في كتابه الصحاحي إذ يقول : « فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاضرون إلى قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ؛ فإذا أتمهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلاقتهم التي طبعوا عليها^(٢) » .

٢ — إن جامعي المعاجم لم يأخذوا عن قريش وحدها ، بل أخذوا كذلك عن قبائل أخرى كثيرة كما سبق بيان ذلك^(٣) . وقد تقدم أن لهجات المحادثة كانت تختلف

(١) انظر صفحتي ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) غير أن هذه العبارة تشعر أن الانتقال الذي نحن بصدده كان يحدث دائما عن قصد ، والحق أنه يحدث في الغالب في صورة تلقائية من غير قصد .

(٣) انظر صفحة ١٠٩ .

في بعض مظاهر المفردات باختلاف القبائل حتى بعد تغلب لغة قريش على سائر السنة العرب^(١). وكان من جراء ذلك أن اشتملت المعاجم على مفردات لم تكن مستخدمة في لغة قريش ويوجد لمعظمها مترادفات في متن هذه اللغة الأصلي وفيما انتقل إليها من غيرها؛ فزاد هذا من نطاق المفردات والمترادفات في المعاجم سعة على سعة.

٣ - إن جامعي المعاجم، لشدة حرصهم على تقييد كل شيء، ذرّوا كلمات كثيرة كانت مهجورة في الاستعمال ومستبدلاً بها مفردات أخرى. فكثرت من جراء ذلك في المعاجم مفردات اللغة ومترادفات.

٤ - إن كثيراً من الكلمات التي تذكرها المعاجم على أنها مرادفة في معانيها لكلمات أخرى غير موضوعه في الأصل لهذه المعاني، بل مستخدمة فيها استخداماً مجازياً^(٢).

٥ - إن الأسماء الكثيرة التي يذكرونها للشيء الواحد ليست جميعها في الواقع أسماء، بل معظمها صفات مستخدمة استخدام الأسماء. فكثير من الأسماء المترادفة كانت في الأصل نعوتاً لأحوال المسمى الواحد، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالندرج وتجردت مدلولات هذه النعوت مما كان بينها من فوارق وغلبت عليها الاسمية. فالخطار والخطام والباسل والأصيد... من أسماء الأسد يدل كل منها في الأصل على وصف خاص مغاير لما يدل عليه الآخر. وكذلك ما يعد من أسماء السيف: كالمصمم والهندي والحسام والعضب والقاطع... وهلم جرا.

٦ - إن كثيراً من الألفاظ التي تبدو مترادفة هي في الواقع غير مترادفة، بل يدل كل منها على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التي يدل عليها غيره؛ وإليك مثلاً: رفق ولحظ ورمح وحدج وشفن ورننا... وما إلى ذلك من الألفاظ التي تدل على النظر؛ فإن كلا منها يعبر عن حالة خاصة للنظر تختلف عن الحالات التي تدل عليها الألفاظ الأخرى. فرفق يدل على النظر بمجامع العين؛ ولحظ عن النظر من جانب الأذن؛ وحدجه معناه رماه ببصره مع حدة؛ وشفن يدل على نظر المتعجب أو الكاره؛ ورننا يفيد إدامة النظر في سكون... وهلم جرا^(٣).

(١) انظر صفحة ٩٣ وتوابعها.

(٢) اختلط في كثير من المعاجم المعاني الحقيقية بالمعاني المجازية، ولم يعن بتمييزها إلا بعض المعاجم كالأساس للزخشمري. وقد كتب الزخشمري كتاباً خاصاً سماه «الحجاز» وبين فيه ما تجوزت به العرب من الألفاظ وما تجوزت به من الدلالات. انظر مقدمة ابن خلدون صفحة ٦٢٩.

(٣) انظر المخصص لابن سيده وفقه اللغة للثعالبي تجد فيهما آلافاً من الأمثلة بهذا الصدد.

٧ — أنه قد انتقل إلى اللغة العربية من أخواتها السامية وغيرها مفردات كثيرة كان لها نظائر في متنها الأصلي (١).

هذا ، ومع ما كان يتخذه جامعو المعجمات من وسائل الحيلة والحرص على تحرى الصواب ، فقد اندس في معجماتهم كثير من المفردات المولدة والمشكوك في عريبتها ، وحرفت فيها كلمات كثيرة عن أوضاعها الصحيحة . ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها سببان :

(أحدهما) أن بعض الأشعار التي أخذوا عنها قد ثبت فيما بعد أنها موضوعة . فلا يبعد أن يكون بعض مفرداتها من اختراع الواضعين .

(وثانيهما) أنهم كانوا أحيانا يأخذون عن الكتب والصحف . فحدث من جراء ذلك تحريف في كثير من الكلمات التي نقلوها . لأن الرسم في عصورهم كان مجرداً من الإيجام والشكل . فكان من الممكن أحيانا قراءة الكلمة الواحدة على عدة وجوه .

(١٤) اللهجات العامية الحديثة

عوامل تطورها وصفاتها المشتركة

تقتضى نوااميس اللغات أنه متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض ، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس ، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً ، بل لا تلبث أن تنشعب إلى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها حتى تصبح كل منها لهجة متميزة غير مفهومة إلا لأهلها . وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللهجات يختلف بعضها عن بعض في كثير من الوجوه . ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى ، إذ يترك الأصل الأول في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات القرابة ولهجة النسب اللغوي . وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة كبيرة لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللهجات المتفرعة منه .

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر . فاللغة اللاتينية مثلاً ، وهي إحدى لغات الفرع الإيطالي من الفصيلة الهندية — الأوروبية ،

قد أخذت في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، حتى أصبح كل منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة كبيرة لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللهجات المتفرعة منها (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا . . .) . ولكنها تنحّت عن هذه الوظيفة بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات ^(١) .

ولم تغلب اللغة العربية — وما كان يمكن أن تغلب — من هذا المصير . فمنذ أن اتسع انتشارها ، أخذت تنشعب إلى لهجات يختلف بعضها عن بعض وتختلف عن الأصل الأول الذي انشعبت عنه في كثير من مظاهر الصوت والقواعد والدلالة والمفردات ؛ وسلكت كل لهجة منها في تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، تحت تأثير ظروفها الخاصة ، وأخذت مسافة الخلف تتسع بين هذه اللهجات حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض : فلهجة العراق أو لهجة المغرب مثلاً في العصر الحاضر ، لا يفهمها المصري إلا بصعوبة وفي صورة تقريبية . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

ويرجع السبب في انشعاب هذه اللهجات عن العربية الفصحى وفي تطورها المطرد في نواحي الأصوات والقواعد والدلالة والمفردات ، إلى عوامل كثيرة من أهمها ما يلي :

١ — انتشار اللغة العربية في مناطق لم تكن عربية اللسان . فقد تغلبت اللغة العربية على اللغات اليمنية القديمة في معظم بلاد اليمن ، وعلى اللهجات الآرامية في معظم بلاد العراق والشام ، وعلى الألسنة القبطية والبربرية والكوشية في مصر وشمال أفريقيا وشرقها . ومن المقرر أن اللغة الغالبة ينالها كثير من التحريف في ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً) تحت تأثير لهجاتهم القديمة وأصواتها ومفرداتها وما درجوا عليه من عادات في النطق وهلم جرا .

وقد كان لهذا العامل أثر واضح في اختلاف لهجات هذه المناطق الجديدة بعضها عن بعض واختلافها عن اللسان العربي الأول . فقد تأثرت اللغة العربية في كل منطقة من هذه المناطق ببلجاتها القديمة ، وانحرفت في ألسنة أهلها انحرافاً خاصاً اقتضته عاداتهم الصوتية المتأصلة ومناهج ألسنتهم الأولى ؛ وتأثرت ألسنة الجاليات العربية نفسها في كل

(١) انظر تفصيل هذا القانون في الفقرتين الأولى والثانية من الفصل الخامس من كتابنا « علم اللغة » .

منطقة من هذه المناطق باللسنة أهلها، فنشأ من جراء ذلك في كل بلد من هذه البلاد لهجة عربية تختلف عن لهجة غيرها، وتختلف عن اللغة العربية الأولى. فالعربية في الشام مثلاً متأثرة باللسنة الآرامية القديمة، وفي المغرب باللهجات البربرية التي صرعتها العربية في هذه البلاد... وهلم جرا (١).

٢ — عوامل اجتماعية سياسية: كاستقلال البلاد العربية بعضها عن بعض، وضعف السلطان المركزي الذي كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات. فمن الواضح أن انفصام الوحدة السياسية يؤدي إلى انفصام في الوحدة الفكرية واللغوية.

٣ — عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان... وما إلى ذلك، فمن الواضح أن الاختلاف في هذه الأمور يتردد صداه في أداة التعبير.

٤ — عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها... وما إلى ذلك، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحيرات... وهلم جرا. فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدي — عاجلاً أو آجلاً — إلى فروق وفواصل في اللغات.

٥ — عوامل شعبية جنسية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق في الأجناس والفصائل الإنسانية التي ينتمون إليها والأصول التي انحدروا منها. فمن الواضح أن لهذه الفروق آثاراً بليغة في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات.

٦ — اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب. فمن المقرر أن هذه الأعضاء تختلف في بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعاً لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتي تنتقل بطريق الوراثة من السلف إلى الخلف (٢). فلم يكن مناص إذن أن تختلف أصوات اللهجات العربية بعضها عن بعض باختلاف الشعوب التي انتشرت فيها، وأن تتجه كل لهجة منها في تطورها من هذه الناحية إلى منهج يختلف عن منهج غيرها.

٧ — التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق. فمن المقرر أن أعضاء النطق في الإنسان في تطور طبيعي مطرد في بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها.

(١) تقدم الكلام في الفصل الرابع عن حالة اللغة العربية في اليمن عقب انتصارها على اللغات اليمنية القديمة (انظر صفحة ٦١ وتوابعها).

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع في الفقرة الثالثة من الفصل السابع بكتابنا « علم اللغة ».

فخارجنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، إن لم تكن في بنيتها الطبيعية ، فعلى الأقل في استعداداتها ، بل إنها تختلف في ذلك عما كانت عليه عند آبائنا الأقربين^(١).

وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث في أعضاء النطق أو في استعدادها يتبعه تطور في أصوات الكلمات ، فتتحرف هذه الأصوات عن الصورة التي كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق . فكان من المستحيل إذن أن تجمد ألفاظ اللغة العربية على حالتها الأولى في الأمم الناطقة بها ، ولم يكن مفر من أن ينالها كثير من التطور باختلاف العصور . ومن آثار هذا ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والطاء والظاء والقاف . فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على اللسان في كثير من البلاد العربية ، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقينا خاصا ومجهودا إراديا وقيادة مقصودة لحركات المخارج . ولعدم ملاءمتها مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق في هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها^(٢) . فصوت الجيم الذي كان ينطق به معطشا بعض التعطيش في العربية الفصحى قد تحول في معظم المناطق المصرية إلى حاف (جيم غير معطشة) ، وفي معظم المناطق السورية والمغربية إلى جيم معطشة كل التعطيش (J)^(٣) . والطاء قد تحولت إلى تاء في معظم المناطق المصرية وفي بلاد أخرى فيقال : (توب ، تلج ، تخين ، تعلب ، تعبان ، تفل ، تليل ، تلت ، تلاتة ، تمن ، تمانية ، تور ، اتنين ، نتر ، جتة ، عتة ، عتر ... الخ ؛ بدلا من : ثوب ، تلج ، تخين ، ثعلب ، ثعبان ، ثفل ، ثقل ، ثلث ، ثلاثة ، ثمن ، ثمانية ، ثور ، اثنان ، نثر ، جثة ، عثة ، عشر ... الخ)^(٤) . والذال قد تحولت في كثير من المناطق العربية إلى دال في معظم الكلمات ، فيقال : (داب ، دراع ، ديب ، ده ، دى ، دبل ، دج ، دبان ، دأن ، أدان ، ودن ، ذهب ، ديل ، ... الخ ؛ بدلا من : ذاب ، ذراع ، ذب ، ذا ، ذى ، ذبل ، ذبح ، ذبان ، ذق ، أذان ، أذن ، ذهب ، ذيل ... الخ) ؛ وإلى

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع في الفقرة الثانية من الفصل السابع بكتابنا « علم اللغة » .

(٢) يحتمل كذلك أن بعضها كان متحولا إلى هذه الأصوات في بعض القبائل العربية التي انتقلت لهجاتها إلى هذه الأمم .

(٣) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقاً صحيحاً في عامية العراق وبعض المناطق المصرية وخاصة في مديرية الشرقية .

(٤) تحول هذا الصوت في كلمات قليلة إلى سين أو صاد : « ثواب » ينطق بها أحيانا « سواب »

أو « صواب » .

زاي في بعض الكلمات ، فيقال مثلاً : (زنب ، زهن ، زكى ، رزالة ... الخ ؛ بدلا من :
 ذنب ، ذهن ، ذكى ، رذالة ... الخ) . والظاء قد تحولت إلى ضاد في معظم الكلمات ؛
 فيقال مثلاً : (ضلام ، ضفر ، ضل . ضهر ... الخ ؛ بدلا من ظلام ، ظفر ، ظل ، ظهر ...
 الخ) ؛ وإلى زاي مفخّمة في بعض الكلمات (كما ينطق في عامية المصريين بكلمات : ظالم .
 ظريف ، أظن ، حظ ... الخ) ^(١) . والقاف قد تحولت إلى همزة في بعض اللهجات
 المصرية ، فيقال : (أط ، ألت ، أبل ، عاد ، نطأ ... الخ ؛ بدلا من : قط ، قلت ، قبل
 عقد ، نطق ... الخ) ؛ وإلى جاف (جيم غير معطشة) في معظم اللهجات العامية في مصر
 وغيرها من البلاد العربية ، فيقال : (جط ، جلت ، جبل ، عجد ، نطج ... الخ ؛ بدلا
 من قط ، قلت ، قبل ، عقد . نطق ... الخ) ^(٢) .

٨ - الأخطاء السمعية وسقوط الأصوات الضعيفة . قد يحيط بالصوت بعض
 مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج ، كوقوعه في آخر الكلمة ، وزيادته عن بنيتها ، وعدم
 توقف المعنى المقصود عليه ؛ فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً حتى يصل في عصر ما إلى درجة
 لا يكاد يتبينه فيها السمع ؛ فينشئ يكون عرضة للسقوط . وذلك أن معظم الصغار في
 هذا العصر لا يكادون يتبينونه في نطق الكبار ؛ فينطقون بالكلمات مجردة منه ^(٣) .
 وقد كان لهذا العامل ، مع عوامل أخرى سيأتى ذكرها ، أثر كبير في سقوط
 علامات الإعراب بالحركات من جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية . على حين
 أن الإعرات بالحروف ، لعدم تأثره بهذا العامل ، قد بقيت آثاره في اللهجات العامية :
 (أخوك ، أبوك ، المؤمنين ، الطيبين ... الخ) .

٩ - موقع الصوت في الكلمة . وموقع الصوت في الكلمة يعرضه كذلك لكثير
 من صنوف التطور والانحراف :

(١) لا يزال ينطق بأصوات الثاء والظاء والذال نطقاً صحيحاً في عامية العراق والمغرب وخاصة في
 طرابلس وفي القبائل العربية النازحة إلى مصر (الفوايد ، الرماح ، البراعصة ، أولاد على ، الحرابي
 الضعفاء ، سمالوس ... الخ) .

(٢) لا يزال صوت القاف محتفظاً بنطقه الصحيح في كثير من الكلمات في عامية العراق وعامية رشيد .
 وكان مستعملاً منذ عهد غير بعيد في بعض مناطق بنى سويف ؛ وقد سمعت أنا نفسى بعض شيوخ أسرق
 (ببلدة الحمام مركز بنى سويف) يتكلمون بالقاف ؛ ولا يزال العامة في هذه المناطق يتكلمون بالقاف
 حينما يروون عبارة منسوبة إلى أجدادهم في الأقاصيص الشعبية وما إليها ؛ وهذا يدل على أن صوت القاف
 لم ينقرض لديهم إلا منذ أمد قريب .

(٣) انظر تفصيل هذا العامل في الفقرة الرابعة من الفصل السابع من كتابنا « علم اللغة » .

(١) وأكثر ما يكون ذلك في الأصوات الواقعة في أواخر الكلمات سواء أكانت هذه الأصوات أصوات مد أم أصواتا ساكنة .
 أما أصوات المد ، فقد لوحظ أن وقوعها في آخر الكلمة يجعلها في الغالب عرضة للسقوط ، ويؤدي أحيانا إلى تحويلها إلى أصوات أخرى . وقد كان لهذا العامل أثر كبير في سقوط أصوات المد القصيرة المسماة بالحركات (التي يرمز إليها في الرسم العربي بالفتحة والكسرة والضمة) التي تلحق أواخر الكلمات العربية . ففي جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والعراق والشام وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب ... الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعها ، سواء في ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن في هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلا : « رجع عمرٌ » للدرسة بعد ما خف من عيائه » بدلا من « رجع عمرٌ » إلى المدرسة بعد ما خف من إعيائه » . ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث في اللغة العربية ؛ فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها في الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو) الواقعة في آخر الكلمات . فقد تضاعفت هذه الأصوات في عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء في ذلك ما كان منها داخلا في بنية الكلمة (رمى ، يرمى ... الخ) وما كان خارجا عنها (ضربوا ، ناموا ... الخ) . فيقال مثلا في عامية المصريين : (سام وعيسى ومصطفى أب حسين سافروا يوم الخميس لـجـرج » بدلا من : « سامي وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا » . وما حدث في اللغة العربية تحت تأثير هذا العامل ، حدث مثله في كثير من اللغات الأخرى . فعظم أصوات اللين المتطرفة في اللغة اللاتينية قد انقرض في اللغات المنشعبة عنها (١) .

ووقوع الصوت الساكن (ونعني به ما يقابل صوت المد) في آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحويل أو السقوط ، فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتين (٢) . فقد انقرضت هذه الأصوات في

(١) يستثنى من ذلك الإيطالية ، فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات . انظر تفصيل هذا الموضوع

في الفقرة السادسة من الفصل السابع بكتابنا « علم اللغة » .

(٢) التاء المربوطة حكمها في ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيها بعد .

معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك بالموازنة بين العبارات العربية المدونة في السطر الأول ونظائرها في عامية المصريين المدونة في السطر الثاني .
 محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ، الأولاد يلعبون . الهواء شديدٌ ، إنتظرتُه ساعةً كاملةً .
 محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ، الأولادُ بيّـالـعـبُ ، الهوا شديدٌ ، إنتظرتُ سَاعَ كاملَ .
 ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التي يوقف عليها في عامية كثير من المناطق المصرية ، كـبعض مناطق بني سويف والشرقية ورشيد ، فيقال مثلاً : « أنت يا وُل » ، بدلاً من « أنت يا ولد » ، « فين أخوك محمو » بدلاً من « أين أخوك محمود » ، « إديـلُ خمسـأرو » بدلاً من « أد له خمسة قروش » (١) .

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغات الأخرى . فمعظم الأصوات الساكنة المحتمة بها الكلمات اللاتينية قد انقرضت في النطق الفرنسي أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو إلى أصوات لين (٢) .
 (ب) ووقوع الصوت في وسط الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة في وسط الثلاثي ، فقد تحولت إلى ألف لينة في عامية المصريين وغيرهم ، (فيقال : رأس ، فأس ، فال ، ضانى ... الخ ؛ بدلاً من : رأس ، فأس ، فأل ، ضأن ... الخ) .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الواو والياء الساكنتين في وسط الكلمة في مثل « عين » و « يوم » . فقد تحولتا في بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من أصوات المد : فأولهما تحول إلى صوت يشبه صوت « ح » في اللغة الفرنسية (عين ، خيل ، بين ، زينب ... الخ) ؛ وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت هـ الفرنسي (يوم ، نوم ، فوز ، لوم ... الخ) .

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع في وسط كلمة ثلاثية في كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية ، وبعض عاميات الصعيد ، ولهجات القبائل

(١) سار على هذا الأسلوب كذلك بعض اللغات العربية الفصحى كلغة طيء ، وقد جرت عادة المؤلفين من العرب بتسميته « قطعة طيء » أى قطع اللفظ قبل تمامه . فكان يقال مثلاً في لغتهم « ياأبا الحك » بدلاً من « ياأبا الحكم » . ولم يكن هذا مقصوراً عندهم على المنادى بل كان عاماً في جميع الكلمات (انظر ص ٩٥) .

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع في الفقرة السادسة من الفصل السابع بكتابنا « علم اللغة » .

العربية النازحة إلى مصر، ولهجة العراق... الخ؛ فيقال مثلاً: إِسْم، رَسِم، مَصِر، جَرْن، بَدِر، فَجِل، فَحِل... الخ؛ بدلاً من اِسْم، رِشْم، مَضِر، جَرْن، فِجَل، فَحْل... الخ^(١).

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل في اللغات الهندية الأوروبية^(٢). (ج) ووقوع الصوت في أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف. فمن ذلك ما حدث في بعض المفردات العربية المفتحة بالهمزة؛ إذ تحولت همزتها في بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو («أذن» تحولت في عامية المصريين إلى «ودن»؛ و«أين» تحولت في لهجتهم إلى «فين»، وتحولت إلى «وين» في عامية القبائل العربية النازحة إلى مصر وفي عامية العراق والحجاز؛ و«أدى» تحولت في بعض المواضع في عامية المصريين إلى «ودى» فيقال مثلاً: «ودّاه المدرسة» أي أوصله إليها^(٣)).

١٠ — تناوب الأصوات المتحدة النوع القرية المخرج، وحلول بعضها محل بعض. يتبين من ملاحظة ظواهر التطور في مختلف اللغات الإنسانية أن الأصوات المتحدة النوع، القرية المخرج، تميل بطبيعتها إلى التناوب وحلول بعضها محل بعض. فكل صوت لين عرضة بطبعه لأن ينحرف إلى صوت لين آخر؛ وكل صوت ساكن عرضة بطبعه لأن ينحرف إلى صوت ساكن متحد معه في مخرجه أو قريب منه. وقد كان لهذا القانون آثار ذات بال في انشعاب اللهجات العامية عن العربية وفي تطورها من ناحية الأصوات وقواعد الصرف ووزن الكلمات:

(١) فقد حدث في هذه اللهجات تناوب واسع النطاق بين أصوات المد القصيرة التي يرمز إليها في الرسم العربي بالفتحة والكسرة والضمة. ويمثل هذا التناوب انقلاباً من أهم الانقلابات التي اعتورت اللغة العربية. فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان الكلمات، وانقلبت أشكالها رأساً على عقب، حتى لا نكاد نجد في اللهجات العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربي القديم. فالفتحة قد استبدلت بها الضمة أحياناً والكسرة في كثير من الأحوال (فبدلاً من: يَعموم، يَسجد، يَسمع، عَشر، خَلَص، سَكَت، كَبِير، الكِتَاب... الخ)؛ يقال في عامية المصريين: يُعْوم، يُسجد، يِسمع، عِتر

(١) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية.

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع في الفقرة السادسة من الفصل السابع بكتابنا «علم اللغة».

(٣) ليس هذا مقصوداً على اللغات العامية، بل يوجد له نظير في اللهجات العربية. ففي لغة أهل

البن تبتدل الهمزة واوا في مثل «آتيته» فيقال: واتيته على الأمر مواتة، وهي المشهورة على ألسنة الناس.

أو عُثْر، خَلِص أو خُلِص، سَكِت أو سُكَّت، كَبِير، إلِكتاب ... الخ). -
والكسرة قد استبدل بها الضمة أحياناً والفتحة في كثير من الأحيان (فبدلاً من يَلْطُم
يَضْرَب، يَسْرِق، عِنْد ... الخ؛ يقال في عامية المصريين: يَلْطُم، يَضْرَب، يَسْرَأ،
عِنْد ... الخ). - والضمة قد استبدل بها الفتحة أحياناً والكسرة في معظم الحالات
(فبدلاً من: مُحمد، ثَعْبَان، أُثَى، عَشَّة. يَقْتُل، يَذُم، ظُفِر ... الخ؛ يقال في
عامية المصريين: مَحْمَد، تَعْبَان، إْتْبَايَة، عِتَة، يَنْتِيل، يَزِم. ضَفِر ... الخ).

وحدث كذلك تناسخ في أصوات المد الطويلة نفسها، وخاصة في الألف اللينة
إذ أميلت في لغات بعض القبائل العربية القديمة، وتمال الآن في كثير من لهجات المغرب
ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر وفي بعض اللهجات في بلاد الشرقية وغيرها.

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الهندية الأوروبية^(١).

(ب) وكثير من الأصوات الساكنة المتحدة النوع أو القرية المخرج قد تناسخت
كذلك في اللهجات العامية وحل بعضها محل بعض. فالسين مثلاً قد تحولت إلى صاد
في بعض المواطن («ساخن» تحولت إلى «صاخن» في عامية الشرقية وغيرها و«سلطان»
تحولت إلى «سلطان» في كثير من اللهجات المصرية)، والصاد إلى سين في كثير من الألفاظ
في عامية القاهرة وغيرها (فبدلاً من: يصدق، مصير... الخ؛ يقال: يسدّ... مسير...
الخ)؛ والصاد إلى ظاء في عامية العراق والمغرب وخاصة طرابلس وفي لهجات القبائل
العربية النازحة إلى مصر^(٢) (فبدلاً من: وضوء، يضيّع، يضرِب، يضم ... الخ؛ يقال
وظوء، يظيّع، يظرب، يظم ... الخ)؛ والعين إلى نون في بعض الكلمات في لهجة
العراقيين (فيقال مثلاً «ينطى» بدلاً من «يعطى»)^(٣)؛ واللام إلى ميم في بعض الكلمات
في عامية القاهرة («امبارح» بدلاً من «البارحة»)^(٤)؛ والميم إلى نون أحياناً في عامية
المصريين (فيقال «فاطمة» بدلاً من «فاطمة»)... وهلم جرا.

(١) انظر تفصيل ذلك في الفقرة السابعة من الفصل السابع بكتابنا «علم اللغة».

(٢) نعتي بها القبائل الحاضرة التي تسكن الفيوم وبنى سويف والشرقية والبحيرة... الخ (الفوايد،

الرماح، الحرابي، أولاد علي، الضعفاء، خويلد، سمالوس... الخ).

(٣) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بطاء، وهذه كذلك لهجة قديمة

هي لهجة هذيل، انظر ص ٩٥.

(٤) هذه كذلك لهجة حمير، وقد جاء بها الأثر «ليس من امبر أمصيام في امسفر».

انظر ص ٩٦.

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الهندية الأوروبية (١).

١١ - يتغير مدلول الكلمات تبعاً للحالات التي يكثر فيها استخدامها . فكثرة استخدام العام مثلاً في بلد ما أو في عصر ما في بعض ما يدل عليه تزيل مع تقادم العهد عموم معناه وتقتصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله . وكثرة استخدام الخاص في معان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . وكثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي تؤدي غالباً إلى انقراض معناها الحقيقي وحلول هذا المعنى المجازي محله . واستخدام الكلمة في فن أو صناعة بمعنى خاص يجردها في هذا الفن أو في هذه الصناعة من معناها اللغوي ويقصرها على مدلولها الاصطلاحي (٢). والتطورات التي حدثت في اللهجات العامية تحت تأثير هذا العامل تناولت آلافاً من المفردات العربية ، حتى أنه ليندر أن نجد مفرداً عامياً مطابقاً في مدلوله كل المطابقة للمفرد العربي الذي انحدر منه .

١٢ - يتغير مدلول الكلمة أحياناً تحت تأثير القواعد . فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى انحراف معنى الكلمة وتساعد على توجيهه وجهة خاصة . فتذكر كلمة « ولد » مثلاً في العربية (ولد صغير) ، قد جعل معناها يرتبط في الذهن بالذكور ، ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع ، حتى أصبحت لا تطلق في كثير من اللهجات العامية إلا على الولد من نوع الذكور (٣).

١٣ - قد يتغير مدلول الكلمة في انتقالها من السلف إلى الخلف . فكثيراً ما ينبجم عن هذا الانتقال تطور في معاني المفردات . وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذي يفهمها عليه الجيل السابق . ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات في غير ما وضعت له عن طريق التوسع والمجاز . فقد يكثر استخدام الكلمة في جيل ما في بعض ما تدل عليه ، أو في معنى مجازي تربطه بمعناها الأصلية بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد .

١٤ - وقد تغيرت في اللغات العامية مدلولات كثير من الكلمات لأن الشيء

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع في الفقرة السابعة من الفصل السابع بكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر تفصيل هذا العامل وآثاره في اللغات الأخرى في ١ من الفقرة الثالثة من الفصل الثامن بكتابنا « علم اللغة » .

(٣) انظر تفصيل هذا العامل وآثاره في اللغات الأخرى في ٥ من الفقرة الثالثة من الفصل الثامن بكتابنا « علم اللغة » .

نفسه الذي تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشؤون الاجتماعية المتصلة به وما إلى ذلك . فكلمة « الريشة » مثلاً كانت تطلق على آلة الكتابة أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ؛ فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة في صورة خاصة . و « القطار » كان يطلق في الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم في السفر ؛ ولكن تغير الآن مدلوله الأصلي تبعاً لتطور وسائل المواصلات ؛ فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . و « البريد » كان يطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل ؛ ثم تغير الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة في إيصال الرسائل ؛ فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية في العصر الحاضر .

١٥ - انتقال كلمات جديدة إلى بعض اللهجات العامية من اللغات الأجنبية التي احتكت بها . فقد انتقل إلى كل بلد عربي اللسان كثير من كلمات اللغات التي أتيح له الاتصال بأهلها اتصالاً ثقافياً أو سياسياً أو اقتصادياً . فانتقل إلى لهجة العراق كثير من الكلمات التركية والفارسية والكردية والإنجليزية ؛ وإلى لهجات الشام كثير من الكلمات التركية والفرنسية ؛ وإلى لهجة مصر كثير من الكلمات التركية واليونانية والفرنسية والإيطالية ... وهلم جرا .

١٦ - انتقال أصوات جديدة إلى بعض اللهجات العامية من اللغات الأجنبية التي احتكت بها . فمن ذلك مثلاً صوت بين الشين والجيم المعطشة ينطق به في عامية العراق في مثل كلمة « عربنجي » (سائق العرب) . فمن المحتمل أن يكون هذا الصوت قد انتقل إليها من التركية (١) .

١٧ - دخول قواعد جديدة في بعض اللهجات العامية للحاجة إليها في الكلام أو عن طريق احتكاكها باللغات الأخرى . فقد انتقل مثلاً إلى المصرية والعراقية طريقة النسب التركية (بزيادة جيم وياء) في بعض الكلمات وخاصة ما يدل منها على الحرفة : (عربجي . طرشجي . جزجي ...) ، وطريقة الإضافة في بعض الكلمات بتقديم المضاف إليه على المضاف (كتبخانة ، أتيكبخانة ... الخ) . وانتقل إلى اللهجة العراقية طريقة النعت الفارسية التي يقدم فيها أحياناً النعت على المنعوت (فيقال « خوش ولد » خوش كلمة فارسية معناها حسن ، ومعنى الجملة ولد حسن أو ما أحسنه من ولد) ،

(١) هذا الصوت كان موجوداً في بعض اللهجات العربية القديمة (انظر ص ٩٥) . فمن المحتمل كذلك أن يكون قد انتقل إلى العراقية من هذه اللهجات .

وطريقة تنكير الاسم المفرد بذكر كلمة قبله تدل على الوحدة (« فرد رجل » ؛ « فرد مخالفة » ... الخ) . وانتقل إلى معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية طريقة الإضافة بتوسط كلمة تدل على الملك بين المضاف والمضاف إليه : ففي مصر تتوسط غالباً كلمة « بتاع » المحرفة عن متاع ؛ وفي تونس والجزائر كلمة « إنتاع » أو « تاع » المحرفة كذلك عن متاع ؛ وفي سوريا ولبنان كلمة « تبع » الكتاب بمعنى ؛ وفي المغرب الأقصى كلمة « ديال » ؛ وفي العراق كلمة « مال » للمذكر و « مالة » للمؤنث ؛ (فيقال « الكتاب مالى » ؛ « الكراسة مالتى » ، أى كتابى وكراستى) ^(١) . ودخل في معظم هذه اللهجات كذلك زمن جديد للمضارع للدلالة على الاستمرار . وقد اختلقت هذه اللهجات في الإشارة إلى هذا الزمن ، فبعضها يشير إليه بباء في أول الفعل (« بيكتب » في بعض اللهجات المصرية) ؛ وبعضها يشير إليه بميم في أول الفعل كذلك (« منكيب » في بعض اللهجات المصرية والسورية) ؛ وبعضها يشير إليه بكاف قبل الفعل « كيكتب » في لهجة المغرب) ؛ وبعضها يشير إليه بكلمة « عم » قبل الفعل (« عم يكتب » في كثير من اللهجات المصرية والعراقية) ؛ أو بكلمة « راه » (« راه يكتب » في لهجة المغرب . وتستخدم هذه الأداة كذلك في مصر ولكن للدلالة على الاستقبال وتقلب هاؤها حاء ، فيقال « راح يكتب ») ^(٢) . ومن القواعد المستحدثة كذلك ما تسير عليه اللهجة المصرية وبعض اللهجات العربية في العصر الحاضر من تأخير اسم الإشارة على المشار إليه في بعض التراكيب (الولد دا = هذا الولد) ، وإضافة حرف شين للدلالة على النفي أو توكيده (ما يرضاش = ما يرضى ؛ ما هوش كويس أو مش كويس = ما هو كويس أو طيب) ، وكثرة استعمال التصغير في الصفات بدون مقتض للتصغير ، ويجرى هذا غالباً في الأوصاف الدالة على القلة (صُغَيْر ، أُرَيْب ، أَلَيْل ، رُقَيْع ، أَصْيَر ... بدلا من صغير ، قريب ، قليل ، رفيع ، قصير ...) .

١٨ - انقراض بعض الكلمات لانقراض مدلولها أو قلة استخدامه . فقد انقرض في اللهجات العامية كثير من الأسماء العربية الدالة على أمور بطل استعمالها ؛ ويصدق هذا على أسماء الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية ... التي كانت سائدة عند العرب

(١) انظر في ذلك بعض ملاحظات طريقة لرينان في كتابه :

Renan : Histoire générale des Langues sémitiques, p. 411

(٢) يظهر لى أن هذا الزمن لم ينتقل إل هذه اللهجات من لغات أخرى ، بل تكون فيها بشكل تلقائي للحاجة إليه في التعبير .

في عصورهم الأولى ، ولكنها انقرضت أو لم يعد لها شأن في عصورنا الحديثة ، فانقرضت معها الكلمات الدالة عليها .

١٩ - انقراض بعض الكلمات لثقلها على اللسان أو عدم تلاؤمها مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق ... وما إلى ذلك . وإلى هذا العامل يرجع السبب في انقراض كثير من الكلمات العربية من لغات التخاطب العامة في العصر الحاضر .

٢٥ - انقراض الكلمة لدقة مدلولها ، أو عدم الاحتياج إليه في لهجات المحادثة العادية ، أو قلة دورانه فيها ، أو وجود لفظ آخر مرادف لها . فلهجات المحادثة تقتصر في العادة على الضروري ، وتنفر من الكمالي ، وتنبأ عن مظاهر الترف . وإلى هذا العامل يرجع السبب في انقراض آلاف من الكلمات العربية من لهجات المحادثة الحاضرة ، وفي تجرد هذه اللهجات من أهم خاصة تمتاز بها العربية ، وهي سعة الثروة في المفردات وكثرة المترادفات .



هذا وعلى الرغم من اختلاف هذه اللهجات في ظروفها ، فقد تأثرت في بعض النواحي بعوامل متحدة ، فاتفقت في طائفة من مظاهر التطور . وتبدو وجوه اتفاقها هذا في أمور كثيرة أهمها ما يلي :

١ - تجردها من جميع الحركات التي تلحق آخر الكلمات في العربية الفصحى ، سواء في ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان حركة بناء . فينطق في هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر ، وتلتزم حالة واحدة في الكلمات المعربة بالحروف ، ويعتمد في فهم الأمور التي ترشد إليها في العربية الفصحى علامات الإعراب (وظيفة الكلمة ، علاقة عناصر العبارة بعضها ببعض ... الخ) على سياق الحديث أو على كلمات مستقلة تذكر في الجملة .

٢ - استبدال في هذه اللهجات بالطرق المعقدة الدقيقة التي تسير عليها العربية الفصحى في تركيب الجملة وترتيب عناصرها ، طرق بسيطة ساذجة وأساليب حرة طليقة .

٣ - لم تحتفظ هذه اللهجات إلا بجزء يسير من تراث أمها العربية وثروتها العظيمة في المفردات ، ويتمثل هذا الجزء في الكلمات الضرورية للحديث العادي .

ومن هذه الخواص الثلاث يتبين أن ما تمتاز به العربية الفصحى عن أخواتها السامية قد تجردت منه اللهجات العامية الحديثة . فمسافة الخلف بين لهجاتها الحاضرة واللغات السامية الأخرى أضيق إذن من مسافة الخلف بين هذه اللغات والعربية الفصحى .

(١٥) طوائف اللهجات العامية ومبلغ بعد كل منها عن الفصحى

لم يصل إلينا عن هذه اللهجات قبل القرن التاسع عشر إلا معلومات ضئيلة ، بعضها مستقى من إشارات جاءت في ثانيا كتب القواعد والأدب ، وبعضها من أغان شعبية وردت في مقدمة ابن خلدون وتاريخه ، وبعضها من كتب ألقت بلغة بين العامية والعربية الفصحى ، ككتاب « ألف ليلة وليلة » .

ولم يعن العلماء بدراسة هذه اللهجات دراسة جدية إلا منذ القرن التاسع عشر . وقد قسموها إلى خمس مجموعات تشتمل كل مجموعة منها على لهجات متقاربة في أصواتها ومفرداتها وأساليبها وقواعدها ، ومتفقة في المؤثرات التي خضعت لها في تطورها : إحداها مجموعة اللهجات الحجازية - النجدية (وتشمل لهجات الحجاز ونجد واليمن) ؛ وثانيها مجموعة اللهجات السورية (وتشمل جميع اللهجات العربية ^(١) المستخدمة في سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) ؛ وثالثها مجموعة اللهجات العراقية (وتشمل جميع اللهجات العربية ^(٢) المستخدمة في بلاد العراق) ؛ ورابعها مجموعة اللهجات المصرية (وتشمل جميع اللهجات العربية المستخدمة في مصر والسودان ^(٣)) ؛ وخامسها مجموعة اللهجات المغربية (وتشمل جميع اللهجات العربية ^(٤) المستخدمة في شمال أفريقيا) . وتشتمل كل مجموعة من هذه المجموعات على طائفة كبيرة من اللهجات ؛ وتنقسم

(١) قيدنا هذه اللهجات بالعربية لإخراج اللهجات غير العربية التي يتكلم بها بعض طوائف في سوريا ولبنان . ومن أشهر هذه اللهجات لهجة منحدرة من الآرامية يتكلم بها إلى الوقت الحاضر في ثلاث قرى سورية ، وهي معلولة وجبعدين ومخفا . (انظر صفحتي ٥٣ ، ٥٤) .

(٢) قيدنا هذه اللهجات بالعربية لإخراج اللهجات العراقية المنحدرة من أصل غير سامي كاللهجات الكردية والمنحدرة من أصل سامي غير عربي كاللهجات الآرامية التي لا يزال يتكلم بها إلى الوقت الحاضر في بعض قرى في طور عابدين وبعض بلاد في شرق الموصل وشماله وجبال السكرد والشايطاء الشرقي لبحيرة أورميا (انظر ص ٥٤) .

(٣) قيدنا هذه اللهجات بالعربية لإخراج اللهجات غير العربية المستخدمة في بعض مناطق السودان (انظر الفقرة الرابعة من الفصل الثالث بكتابنا « علم اللغة ») .

(٤) قيدنا هذه اللهجات بالعربية لإخراج اللهجات البربرية التي لا يزال يتكلم بها إلى الوقت الحاضر بعض عشائر في المغرب الأقصى .

كل لهجة إلى عدة فروع ؛ وينشعب كل فرع إلى شعب كثيرة تختلف باختلاف البلاد التي تستخدمه . وإليك مثلاً مجموعة اللهجات المصرية : فهي تنقسم إلى مئات من اللهجات ، وكل لهجة من هذه اللهجات تنقسم إلى عدة فروع وشعب ، تختلف باختلاف البلاد الناطقة بها ؛ حتى أنك لتجد بين القريتين المتجاورتين المتميتين إلى لهجة واحدة خلافاً واضحاً في كثير من مظاهر الصوت والمفردات والتراكيب والأساليب .

ومع كثرة وجوه الخلاف بين هذه المجموعات الخمس فإن المتكلمين بإحداها يستطيعون ، مع شيء من الانتباه ، أن يفهموا كثيراً من حديث أهل المجموعات الأخرى ، لاتفاقها في معظم أصول المفردات وفي القواعد الأساسية ومنحى الأساليب . وأدنى هذه المجموعات إلى العربية الفصحى مجموعتا اللهجات الحجازية والمصرية . أما اللهجات الحجازية فلنشأتها في المواطن الأصلية للعربية الفصحى ، ولأن معظم أهل الحجاز ونجد ينتمون إلى عناصر عربية خالصة . وأما اللهجات المصرية فلأن صراع العربية مع اللسان القبطي الذي كان يتكلم به أهل مصر قبل الفتح العربي لم يكن عنيفاً ولم تلق في أثنائه اللغة العربية مقاومة ذات بال ؛ ومن المقرر أن اللغة التي يتم لها الغلب بدون كبير مقاومة تخرج من صراعها أقرب ما تكون إلى حالتها التي كانت عليها من قبل (١) . هذا إلى أن معظم أهل مصر منحدرون من عشائر عربية الأصل .

وأبعد هذه المجموعات عن العربية الفصحى المجموعتان العراقية والمغربية . أما العراقية فلشدة تأثرها بالآرامية والفارسية والتركية والكردية ، حتى أن قسماً كبيراً من مفرداتها وبعض قواعدها غير عربي الأصل ؛ ولذلك يجد المصري مثلاً صعوبة كبيرة في فهم حديث العراقي (٢) . وأما المغربية فهي أبعد اللهجات العامة جميعاً عن العربية الفصحى . ويرجع السبب في ذلك إلى شدة تأثرها باللهجات البربرية التي كان يتكلم بها معظم السكان قبل الفتح العربي . فقد انحرفت من جراء ذلك انحرافاً كبيراً عن أصولها الأولى في الأصوات والمفردات وأساليب النطق وفي القواعد نفسها (٣) .

(١) انظر تفصيل هذا القانون وآثاره في ١ من الفقرة الثانية من الفصل الرابع بكتابنا «علم اللغة» .

(٢) قضيت بالعراق بضعة أشهر وظفت بكثير من بلاده ، وما كنت لأستطيع التفاهم بسهولة إلا مع المتعلمين الذين كنت أستخدم العربية الفصحى في حديثي معهم .

(٣) من أظهر ما يمتاز به هذه اللهجات من ناحية القواعد أنها تصوغ المضارع المسند إلى جمع المتكلمين على غرار مضارع الغائبين والمخاطبين ، فيقولون « نكتبوا » بكسر فكسر فسكون ، كما يقولون على نفس الوزن « يكتبو » و « تكتبوا » ؛ وأنها تستبدل النون بهمزة المضارع للمتكلم المفرد ، وتصوغه في وزن يختلف عن وزن جمع المتكلمين فيقال « نكتب » بكسر فسكون فكسر ، بدلاً من « أكتب » .

ولهجات البدو في جميع هذه البلاد أفصح كثيراً من لهجات الحضر ، وأقل منها في الكلمات الدخيلة ، وأدنى منها إلى العربية الفصحى . ولذلك نرى أن لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر ^(١) وخاصة العشائر التي لم تبعد كثيراً عن حالتها البدوية القديمة ، أفصح كثيراً من لهجات المصريين ، وأكثر منها احتفاظاً بالأصوات العربية ، وأدق منها في إخراج الحروف من مخارجها . فهي لا تزال محتفظة بأصوات الذال والثاء والظاء التي انقرضت من اللهجات المصرية ، وأوزان كلماتها أقرب ما يكون إلى الأوزان العربية الصحيحة ، ويندر أن نعثر فيها على مفرد غير عربي الأصل .

ولهجات القرى في جميع هذه المناطق أفصح من لهجات المدن وأقل منها في الكلمات الدخيلة ، وأدنى منها إلى العربية الفصحى . ويرجع السبب في ذلك إلى ميل سكان القرى إلى المحافظة وقلة احتكاكهم بالأجانب .

(١٦) لغة الكتابة العربية في العصر الحاضر

وعلى الرغم من تعدد لهجات المحادثة في هذه الأمم على الصورة التي وصفناها ، فإن لغة الآداب والكتابة فيها واحدة ، وهي تمثل في جملتها اللغة القرشية التي نزل بها القرآن ، ولكنها قد تطورت في تفاصيلها تطوراً كبيراً تحت تأثير عوامل كثيرة من أهمها ما يلي :

١ - اقتباس مفردات إفرنجية بعد تعريبها للتعبير عن مخترعات أو آلات حديثة ، أو مصطلحات علمية ، أو نظريات ، أو مبادئ اجتماعية ، أو أحزاب سياسية ... وهلم جرا .

٢ - ترجمة كثير من المفردات الإفرنجية الدالة على معان خاصة تتصل بمصطلحات العلوم والفلسفة والآداب ... وما إلى ذلك ، إلى مفردات عربية كانت تستعمل من قبل في معان عامة . فتجردت هذه المفردات من معانيها العامة القديمة وأصبحت مقصورة على المدلولات الاصطلاحية .

٣ - التأثر بأساليب اللغات الإفرنجية ومناهج تعبيرها وطرق استدلالها في المؤلفات العلمية والقصصية والأدبية وفي الصحف والمجلات ...

(١) نعى بها قبائل العرب التي تسكن الفيوم وبنى سويف والشرقية والبحيرة ... الخ (الفوائد ، الرماح ، الحراشي ، البراءصة ، أولاد علي ، الضعفاء ، خويلد ، سمالوس ... الخ) .

٤ - اقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها ... وما إلى ذلك .

٥ - إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة . فكثيراً ما لجأ الكتاب في البلاد العربية إلى هذه الوسيلة للتعبير عن معان لا يجدون في المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً ، أو لمجرد الرغبة في الإغراب أو في الترفع عن المفردات التي لا كتبها الألسنة كثيراً . وبكثرة الاستعمال بعثت هذه المفردات خلقاً جديداً ، وزال ما كان فيها من غرابة ، واندجحت في التداول المألوف .

(١٧) اللهجة المالطية

تسكنت مالطة في العصور القديمة وفاتحة العصور الوسطى لغات كثيرة من أشهرها الفينيقية والبنونية (القرطاجنية) ^(١) . وهكذا شأن جميع البلاد الصغيرة المستضعفة التي ينتمى أهلها إلى عدة شعوب وتقع أرضها في طريق الغزاة والفاحين ، فتصبح دولة بينهم ، ويحول ذلك كله دون أن يكون لها كيان وطني مستقر ، أو قومية واضحة . فجميع البلاد التي من هذا القبيل لا تستقر على لغة واحدة ، بل تتغير في الغالب لهجتها مع تغير الدولة المسيطرة عليها ، وينال ألسنتها كثير من مظاهر التبديل لكثرة ما ينتقل إليها من لهجات ، وما يعتور نطقها من أساليب .

وآخر لغة انتقلت إلى مالطة كانت اللغة العربية متمثلة في لهجة من اللهجات العامية المغربية السائدة في شمال أفريقيا . غير أن هذه اللهجة قد أحيطت بظروف تختلف كل الاختلاف عن الظروف التي أحاطت بسائر اللهجات العربية الأخرى ؛ فسلكت في تطورها منهجاً يختلف كذلك كل الاختلاف عن منهج أخواتها . وذلك أن انعزالها عن العالم العربي وانتشارها في بلد مسيحي ، وكثرة احتكاكها باللغة الإيطالية المجاورة لها ، وخضوع مالطة لحكم الإنجليز ، وكثرة من يفد إليها ويمر بها من الأجانب ، وانتماء هؤلاء الأجانب إلى شعوب مختلفة وتكلمهم شتى اللغات ... كل ذلك قد وسع من هوة الخلاف بينها وبين اللهجات العربية الأخرى ، فبعدت عنها بعداً كبيراً ، وفقدت كثيراً من مقوماتها ، وتأثرت بطائفة كبيرة من اللغات الأوروبية وخاصة الإيطالية والفرنسية والألمانية والإنجليزية . وانتقلت إليها مجموعة كبيرة من مفردات هذه اللغات ، وامتزجت

هذه العناصر الدخيلة بالعناصر الأصلية كل الامتزاج ، فتألف من مجموع ذلك كله مخلوق عجيب في عالم اللغات ، حتى أن الكلمة الواحدة فيها لتتألف أحياناً من أصلين أحدهما عربي والآخر أعجمي (من ذلك مثلاً « لبيرونا » Liberana أى نجنا أو خلصنا ، فهى مؤلفة من الفعل الفرنسى Liberer بمعنى حرر أو خلص ، والضمير العربى لجماعة المتكلمين) ؛ ويندر أن نعثر على مثل هذا الخلط فى أية لغة أخرى من لغات العالم ^(١) .

ولا يزال اللسان المالطى ، على الرغم من هذا كله ، محتفظاً بكثير من خصائص اللهجات المغربية التى انشعب عنها . ومن أظهر ما بقى فيه من هذه الخصائص طريقة إمالة الألف المتوسطة فى معظم الكلمات (فكلمة « باب » مثلاً ينطق بها فى مالطة بإمالة الألف على طريقة اللهجات المغربية baibe) .

واللهجة المالطية هى اللهجة العربية الفذة التى ارتقت إلى مصاف لغات الكتابة . وقد تم لها ذلك فى القرن التاسع عشر . فمذ ذلك العهد تطبع بها الكتب والصحف والمجلات وتدون بها الرسائل ، وبالجملية تستخدم فى جميع الأغراض التى تستخدم فيها لغات الكتابة . وهى كذلك اللهجة العربية الفذة التى تدون بحروف لاتينية .

ولا تكاد تستخدم هذه اللهجة إلا فى القرى ؛ أما فى المدن المالطية فمعظم الحديث يجرى فيها بالإيطالية أو الإنجليزية ^(٢) .

(١٨) الرسم العربى : تاريخه ومراحله

اجتاز الرسم العربى خمس مراحل :

١ - فأقدم رسم وصلت إلينا اللغة العربية مدونة به كان مشتقاً من الخط المسند ؛ كما تدل على ذلك آثار العربية البائدة التى تقدمت الإشارة إليها ^(٣) . ويرجح الباحثون أن القبائل المعينية التى أشرنا فيما سبق إلى نزوحها من اليمن إلى هذه المناطق الشمالية وتكوينها بها جاليات كبيرة ^(٤) هى التى حملت إليها هذا النوع من الرسم . وقد وصل إلينا من هذا الرسم ثلاثة أنواع متقاربة : أحدها ممثل فى النقوش

(١) يوجد لذلك نظائر فى بعض اللغات الحبشية العامة التى اشتدت تأثرها باللهجات الحامية والسودانية ؛ ومن هذه اللغات الأمهرية (انظر ص ٧١) .

(٢) انظر فى اللهجة المالطية : De Sacy : Grammaire Arabe; et Renan : Langues

Sémitiques 413, 414

(٣) انظر ص ٧٧ .

(٤) انظر ص ٥٨ .

اللحيانية، وثانيها في النقوش الثمودية، وثالثها في النقوش الصفوية. فأما الخط اللحياني فلا يكاد يختلف عن الخط المسند الذي اشتق منه، ويسير مستعرضاً من اليمين إلى الشمال. وأما الخط الثمودي، فهو مشتق كذلك من الخط المسند، غير أنه أقل من الرسم اللحياني نظاماً ورونقاً، أما اتجاهاته فغير ثابتة على حال واحدة ولكنه في الغالب يتجه من أعلى إلى أسفل. وأما الخط الصفوي فيشبه كثيراً الخط اللحياني؛ غير أنه يختلف الاتجاهات: فتارة يقرأ من اليمين إلى الشمال، وأخرى من الشمال إلى اليمين^(١). — وحروف الهجاء في جميع هذه الأنواع كانت ترسم متفرقة. وكانت لا ترمز إلا إلى الأصوات الساكنة في الكلمة، أما أصوات المد، سواء في ذلك الطويل منها والقصير، فقد أغفلت هذه الخطوط الثلاثة الرمز إليها إغفالا تاماً. هذا إلى أنها كانت مجردة من الإعجام (النقط)؛ فكان بعض حروفها يستخدم للرمز إلى أكثر من صوت واحد، بدون أن تتخذ أية علامة لتمييز الأصوات التي يرمز إليها بعضها من بعض، كما يتخذ الرسم العربي في العصر الحاضر طريقة الإعجام للتمييز بين الحروف المتحدة الصورة والمختلفة النطق كالباء والتاء والشاء والنون والياء.

٢ — ثم أخذ الرسم النبطي — وهو نوع من أنواع الرسم الآرامي كما تقدمت الإشارة إلى ذلك^(٢) — . يتغلب في تدوين اللغة العربية على هذا الرسم القديم، وينتقص من مناطق نفوذه ومواطن استخدامه شيئاً فشيئاً حتى قضى عليه. وذلك لأن الرسم النبطي كان يمثل حضارة من أرق الحضارات السامية في ذلك العهد وأوسعها نفوذاً وهي حضارة الآراميين. وأقدم أثر عربي وصل إلينا بعد هذا التطور هو نقش النمارة الذي تقدمت الإشارة إليه في الفقرة الثالثة من هذا الفصل^(٣). فهو مدون بالرسم النبطي في أشكاله الحديثة التي تتصل فيها الحروف بعضها ببعض. ويتفق هذا الرسم مع الخطوط اللحيانية والصفوية والثمودية في اقتصاره على الرمز إلى الأصوات الساكنة في الكلمة وفي خلوه من الإعجام.

٣ — ثم ظهر في كتابة اللغة العربية نوع ثالث من الرسم مشتق من الرسم النبطي السابق ويمثل للرسم العربي الحاضر في أقدم أدواره. وبهذا النوع من الرسم دون نقشا

(١) انظر صفحتي ٧٧ . ٧٨ .

(٢) انظر ص ٤٩ .

(٣) انظر ص ٧٩ إلى ص ٨١ .

زبد وحوران اللذان تقدمت الإشارة إليهما في الفقرة الثالثة من هذا الفصل (١). وتقرب صورة الحروف في هذا الرسم من صورة الحروف التي نستخدمها الآن لدرجة لا يجد معها من يعرف الرسم العربي الحاضر كبير صعوبة في قراءة كلماته . ويرجع كثير من العلماء أن هذا النوع قد اجتاز مراحل كثيرة قبل أن يستقل هذا الاستقلال عن الخط النبطي وقبل أن تكمل له هذه الصورة . غير أنه لم يعثر بعد على آثار تمثل هذه المراحل .

ويتفق هذا الرسم مع النوعين السابقين في اقتصاره على الرمز إلى الأصوات الساكنة في الكلمة وفي تجرده من الإعجام . ويظهر أنه لم يكن ليستخدم إلا في النقوش الأثرية وما إليها .

٤ - ثم تأثر الرسم العربي بالرسم السرياني ، ودخلت فيه إصلاحات كثيرة منذ القرن السابع الميلادي . فتحول إلى خط سريع تدون به المكاتبات العادية لا النقوش وحدها كما كان شأن الرسم السابق . ودخل فيه نظام الإعجام للرمز إلى أصوات لانظير لها في اللغات السامية الشمالية التي نشأ فيها الخط السامي القديم (ثدض طغ) وللتمييز بين الحروف المتحدة الصورة والمختلفة النطق (ب تنى ، ج ح خ ، ز ، س ش ... الخ).

ولكنه ظل طوال هذه المرحلة مقتصرًا على الرمز إلى الأصوات الساكنة ومجرداً من علامة للتمييز بين الحرف المشدد والمخفف .

٥ - ثم أدخل في الرسم العربي نظام الرمز إلى أصوات المد الطويلة ، واستخدم في ذلك ثلاثة أحرف وضعت في الأصل للرمز إلى ثلاثة أصوات وسط بين أصوات المد والأصوات الساكنة ، وهي الهمزة والياء والواو . فأصبحت هذه الحروف مزدوجة الاستخدام : ترمز أحياناً إلى ما وضعت في الأصل للرمز إليه (أ كتب ، يكتب ، وعد) ، وأحياناً إلى أصوات المد الطويلة (كاتب ، دليل ، ملوك) . وأدخل فيه كذلك نظام الحركات ، وهي علامات تشير إلى تشديد الحرف وإلى تحركه بصوت مد قصير أو خلوه من الحركة . وقد استخدم في ذلك طريقتان . إحداهما تشبه الطريقة السريانية النسطورية ، فتستخدم النقط للرمز إلى هذه الأمور ، وهذه الطريقة لم يتح لها الانتشار ولا البقاء أمداً طويلاً . وثانيتهما ظهرت حوالي القرن الثامن من الميلاد وشاع استخدامها

وسار العمل عليها إلى وقتنا الحاضر . وهي تشبه الطريقة السريانية اليقونية ، فترمز إلى هذه الأمور بحروف أو أجزاء من حروف يرسم بعضها فوق الحرف وبعضها تحته (فالفتحة ألف ترسم مستعرضة فوق الحرف ، والكسرة ياء راجعة ترسم تحته ، والضمة واو ترسم فوقه ، والسكون هاء ترسم فوقه كذلك ، والشدة هي الجزء الأول من السين أو الشين يرسم فوق الحرف للإشارة إلى أنه يرمز إلى صوتين متحدين أولهما ساكن) . وينسب مؤرخو العرب اختراع هذه الطريقة الأخيرة إلى أبي الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ الموافقة لسنة ٦٨٨ ميلادية . ومهما يكن من مبلغ الصحة في هذه النسبة ، فمن المقطوع به أن معظم هذه الإصلاحات قد دخل الرسم العربي في القرن الأول للهجرة . غير أنه يظهر أن إصلاحات هذه المرحلة وإصلاحات المرحلة السابقة لم تكن قد كملت بعد في العهد الذي رسم فيه المصحف العثماني ، أو لم يكن استخدامها قد انتشر حينئذ كل الانتشار ، أو لم يكن الصحابة ممن رسموا المصحف على علم تام بها (١) ، أو أنهم قد تخرجوا من إدخالها في رسم القرآن : فجاءت المصاحف العثمانية مجردة من الإعجام والشكل ، ورسمت فيها حروف كثيرة بصورة مضطربة خاطئة ، كزيادة الياء في « بأيد » ، والألف في « لا أذبحنه » و « لا أوضعوا خلاكم » ، والواو في « جزاؤ الظالمين » ؛ وحذفت منها الألف في كثير من الكلمات (الرحمن ، السموات ، يقتلونكم ، للكافرين ، ميشقم ، بالظالمين ، استطعوا ، وهاجروا وجهدوا ، ومنفع للناس ، اليتيم ، قنتين ... الخ) ؛ ورسم فيها بعض التاءات المربوطة مفتوحة (نعمت الله ... الخ) ؛ واستبدلت فيها حروف بحروف أخرى (والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) . (٢)

ولم يدخل الإعجام والشكل في رسم المصاحف إلا في عصر متأخر ، بعد أن كثرت الأخطاء وشعر الناس بشدة الحاجة إلى الضبط . وكانوا في المبدأ يتخرجون من زيادة شيء على أحرف القرآن حسب ما وردت في المصحف العثماني . ولذلك كانوا يدونون

(١) وإلى هذا يعيل ابن خلدون إذ يقول : « فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الأحكام والإنقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع . وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة في الإجادة ، فغالف الكثير من رسوماتهم ما اقتضته صناعة الخط عند أهلها ، ثم اتقن التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسم أصحاب الرسول . . . » (مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠) .

(٢) لكثرة ما يختلف فيه المصحف العثماني عن الرسم العادي ، وللحرص على حصر مواطن هذا الخلاف والإبقاء عليها تبركا بما رسم الصحابة ، ألف العلماء في ذلك مؤلفات كثيرة من أشهرها كتاب المقنع لأبي عمرو الداني من علماء المغرب (انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠) .

الأصل بلون من المداد، والحركات وما إليها بلون آخر. ولكنهم لم يجدوا بأساً من رسم النقط التي تميز الحروف المتحدة الصورة (بتث... الخ) بنفس المداد التي تكتب به الحروف؛ لأن هذه النقط لم تكن معتبرة زائدة عن الأصل، بل مجرد علامات مميزة له. وفيما عدا الإعجام والشكل، ظلت المصاحف إلى يومنا هذا محافظة على ما ورد في رسم المصحف العثماني تبركا به^(١).

وأقدم أثر إسلامي منقوش وصل إلينا متضمناً بعض مظاهر من الإصلاحات التي أدخلت على الرسم العربي في المرحلتين الأخيرتين هو حجر كشف في مصر ومحفوظ الآن بدار الآثار العربية. وتدل عبارته على أنه كان نصيباً على قبر رجل يدعى عبد الرحمن بن خير أو جبر أو جابر أو جبير الحجري أو الحجازي. ويرجع تاريخه إلى سنة ٣١ للهجرة؛ فمن المحتمل إذن أن يكون القبر لجندى من جنود عمرو بن العاص أول عربي من المهاجرين الأولين إلى مصر من مسلمي العرب. وفيما يلي نص هذا النقش^(٢):

(١) بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر
(٢) لعبد الرحمن^(٣) بن خير^(٤) الحجري^(٥) اللهم اغفر له

(١) وكان العرب حين ظهور الإسلام يكتبون على الأديم الأحمر وعسب النخل والعظام والخزف والحجر الأبيض والخشب. ثم استخدم الرق حينما اشتدت الحاجة إلى نقل المصاحف. وبعد اتصال العرب بأهل سورية استعملوا القرطاس الشامي الذي كان من أهم مواد الكتابة في العصر العباسي. وفي نهاية القرن الثاني للهجرة شاع استعمال الورق في أشكاله القديمة. أما استعمال الورق الغربي فلم ينتشر في الشرق إلا في نهاية القرون الوسطى.

(٢) نقلنا هذه الصورة عن كتاب الدكتور ولفنسن «تاريخ اللغات السامية» بعد مقابلتها بالأصل، وإصلاح ماورد فيها من خطأ، ومع ملاحظة تعقيبات الأستاذ ليمان المدونة بصفحة ٢٧٩ من هذا الكتاب. ولم نزد على أصل النقش إلا إعجام بعض الحروف التي وردت مهمة فيه.

(٣) ورد مكان هذا الاسم بكتاب الدكتور ولفنسن اسم «عبد الله» وتكرر هذا مرتين: مع أن كلمة «عبد الرحمن» واضحة في النقش كل الوضوح.

(٤) وردت هذه الكلمة وكلمات أخرى كثيرة في هذا النقش مجردة من الإعجام والرمز إلى أصوات المد الطويلة؛ ولذلك قرئت على أوجه كثيرة. فالأستاذ فييت مدير دار الآثار العربية بمصر قرأها «خير» بفتح الحاء وتشديد الياء المكسورة؛ ويرى الأستاذ ولفنسن أنه يمكن قراءتها «جبر» بفتح الجيم وسكون الباء؛ ويرى الأستاذ ليمان أنه يمكن قراءتها «جابر» أو «جبار» أو «جبير». وعقب على ذلك ليمان بما نصه: «وهذا النقش الخطير يستحق أن يبعث عن صاحبه. وكنت قد عثرت على اسم شخص معاصر لعمرو بن العاص هو عبد الرحمن ابن جبير في كتاب فتوح مصر لعبد الحكم. فليس بعيداً أن يكون هو صاحب هذا النقش» انظر ص ٢٧٩ من كتاب ولفنسن «تاريخ اللغات السامية».

(٥) قرأ الأستاذ فييت هذه الكلمة «الحجري». ويرجح الدكتور ولفنسن أنها «الحجازي». والسبب في هذا الخلاف هو تجرد الكلمة في النقش من الإعجام ومن الإشارة إلى أصوات المد الطويلة.

- (٣) وأدخله في رحمة منك واتنا معه
- (٤) استغفر له إذا قرأ هذا الكتب
- (٥) وقل امين وكتب هذا
- (٦) لكتب (الكتاب) في جمدي (جمادى) الا
- (٧) خر (الآخرة) من سنت (سنة) احدى و
- (٨) ثلثين (وثلاثين).

هذا ، ويستخدم الرسم العربى فى العصر الحاضر عند جميع الأمم الناطقة بالعربية ، ما عدا أهل مالطة فلمجتهم ترسم بحروف لاتينية كما تقدم بيان ذلك (١) .
وقد استخدم الرسم العربى كذلك فى تدوين لغات أخرى غير العربية : كالفارسية والتركية (قبل التغيير الأخير) ولغة مدغشقر وزنجبار وبعض اللغات الهندية .
واستخدم الرسم العربى كذلك فى تدوين اللغة الإسبانية عند بعض الطوائف التى امتزج بدمائها الدم العربى أو انحدرت من سلالات عربية . ويطلقون على هذا الرسم اسم « الجاميا » أو « الجاميادو » Algamia, Algamiado (٢) .

وقد دونت بعض مؤلفات عربية برسم غير عربى . فدونت بعض مؤلفات اليهود العربية برسم عبرى ، وبعض الكتب العربية القديمة برسم سريانى اشتهر باسم الهارسونى ؟
Harsuni (٣) ثم لسا من قال ؟

نرشوني

(١٩) صعوبة القراءة العربية ووجوه إصلاح الرسم

لا تكاد تدون الحركات فى العصر الحاضر إلا فى الكتب الأولية التى تستخدم فى تعليم النشء مبادئ القراءة والكتابة . أما فيما عدا ذلك فقد جرت العادة غالباً أن تدون الكلمات فى الكتابة والطبع عارية عن الشكل . ومن أجل ذلك أخذ بعض الباحثين على الرسم العربى بعض مآخذ من أهمها ما يلى :

١ - أنه لا يستطيع أحد أن يقرأ نصاً عربياً قراءة صحيحة ويشكل جميع حروفه شكلاً صحيحاً إلا إذا كان ملئاً بقواعد اللغة العربية وأوزان مفرداتها إلماماً تاماً ،

(١) انظر ص ١٢٩ .

(٢) V. Langues du Monde P. 117.

(٣) V. Langues du Mouae P. 112.

وفاهما معنى ما يقرؤه . ويردد من يأخذ هذا المأخذ على الرسم العربي ما قاله قاسم أمين من أنه في معظم اللغات الأوروبية يقرأ الناس قراءة صحيحة ما تقع عليه أبصارهم وتتخذ القراءة وسيلة للفهم ؛ أما نحن فلا نستطيع أن نقرأ قراءة صحيحة إلا إذا فهمنا أولاً ما نريد قراءته .

٢ - أن النص العربي الواحد عرضة لأن يقرأ قراءات متعددة بعيدة عن اللغة الفصحى . وذلك أنه قد حدث تناوب واسع النطاق في أصوات المد القصيرة (التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة) في اللهجات العامية كما تقدم بيان ذلك (١) ؛ حتى أننا لانكاد نجد كلمة باقية في هذه اللهجات على وزنها العربي الصحيح . وتختلف هذه الأوزان باختلاف اللهجات (خيسر ، خسِر ، يغمِل ، يغمَل ... الخ) . فالنص العربي المجرد من الشكل عرضة لأن يقرأه أهل كل لهجة حسب منهج لهجتهم في وزن الكلمات .

٣ - أنه من المتعذر مع هذا الرسم قراءة أسماء الأعلام (أسماء الأماكن والبلاد والبحار والجبال والأناسى ... الخ) قراءة صحيحة . ولذلك تضطر بعض المعجمات والمؤلفات إلى تهجي حروف الكلمات التي من هذا القبيل ، والنص على حركة كل حرف منها ؛ فتقول مثلاً « صفين بكسر الصاد وتشديد الفاء المكسورة » « الغفارى بكسر الغين ونخفيف الفاء » ... وهلم جرا .

وقد قدمت عدة اقتراحات لسد مواطن النقص السابق ذكرها .

فتقدم بعضهم باقتراحات ساذجة هدامة لا تكاد تستحق عناء المناقشة . فمن ذلك

(١) استبدال الحروف اللاتينية ومنهج الرسم اللاتيني بالحروف العربية ومنهج الرسم العربي .

ولا يقوم هذا الاقتراح إلا على مجرد الرغبة الآثمة في تقليد الغربيين ؛ إذ ليس ثمة

ما يدعو إلى اصطناع الحروف اللاتينية . وإن كان لابد من السير على طريقة الرسم

اللاتيني بصدد أصوات المد القصيرة ، فلا يقتضينا ذلك أكثر من اختراع ثلاثة أحرف

ترسم في صلب الكلمة بدل الفتحة والكسرة والضمة كما سنذكر ذلك في بعض الاقتراحات

الآتية . وأكثير من ذلك هدماً لكيان اللغة العربية ما ذهبت إليه طائفة في علاج الرسم ،

(٢) إذ اقترحت إلغاء الإعراب وإلزام السكون أواخر الكلمات ، حتى تضيق مسافة الخلف

بين رسم الكلمة ونطقها في اللهجات العامية المستخدمة في المحادثة ، فتسهل على الناس

القراءة ويتخلص الرسم العربي من بعض عيوبه . وقد كفانا أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا مثونة الرد على هذا الاقتراح بما عقب به عليه في مجلة الشؤون الاجتماعية إذ يقول : « وهذا رأى مطعون فيه من وجحين : أما الأول فإنه لا يحل من المسألة إلا بعضها دون البعض الآخر ؛ لأن ضبط حركات الحروف ليس ضرورياً في الإعراب فحسب ؛ بل هو أشد ضرورة في بنية الكلمة . وهذا الضبط من جوهر اللغة ؛ فإذا أهملنا الإعراب وأهملنا الشكل ولم نأت بطريقة تقوم مقامه ظل الناس يلفظون الكلمات على غير وجهها الصحيح كما هم الآن يفعلون . وأما الوجه الثانى فإن في هذا الرأى إهداراً لصورة اللغة العربية وقضاء على أهم مميزاتها وذلك ما لا نزن أحداً يرضاه ، خصوصاً متى أمكن تسهيل تعليم اللغة وشيوعها من غير الالتجاء إلى العبث بسلامتها ومميزاتها » (١).

واقترح بعضهم إدخال الشكل في بنية الكلمة حتى لا يتخطاه نظر القارئ ؛ وذلك بأن تخترع حروف للرمز إلى أصوات المد القصيرة (التي يرمز إليها الآن بالفتحة والكسرة والضمة) وتدون هذه الحروف في صلب الكلمة في مواضعها . فلتدوين كلمة « كَتَبَ » مثلاً يرسم بعد كل من الكاف والتاء والباء الحرف الذى سيخترع للإشارة إلى ما تشير إليه الفتحة في رسمنا الحاضر . وهذا هو المنهج الذى يسير عليه الرسم الأوروبى Kataba . وينتصر لهذا الاقتراح عدد كبير من الباحثين على رأسهم أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا (٢) .

واقترح آخرون أن يكون لكل حرف من حروف الهجاء العربى أربع صور مختلفة : صورة في حالة تحركه بالفتح ؛ وأخرى في حالة تحركه بالكسر ؛ وثالثة في حالة تحركه بالضم ؛ ورابعة في حالة تسكينه . وهذا فى مجمله هو المنهج الذى يسير عليه الرسم

(١) مجلة الشؤون الاجتماعية عدد فبراير سنة ١٩٤١ . هذا وكنا نود لو اقتصر أستاذنا الجليل على ما تقدم ، ولم يعقب عليه بما قد يفهم منه بعض الناس أن مثل هذه الاعتبارات لا ينبغي أن تحول دون تحقيق التيسير الذى يتضمنه هذا الاقتراح .

(٢) نشر هذا الرأى فى مجلة الموسوعات سنة ١٨٩٨ ثم عاد فأشار إليه بمجلة الشؤون الاجتماعية بعدد فبراير سنة ١٩٤١ . غير أنه عقب عليه فى صفحة ١١ من هذه المجلة الأخيرة بمأخذه : « ولست متمسكاً بالطريقة التى اقترحتها منذ زمان بعيد . ولكننى راض بأية طريقة أخرى تؤدى إلى الغاية التى نهدفها من توحيد لغة الكتابة ولغة الكلام فى الجملة ليسهل تعليمها من ناحية وليوجد حد مشترك من اللغة بين المتعلمين وغير المتعلمين » . غير أنه يظهر لنا أن هذه الغاية لا يكاد يتحقق شئ منها بإدخال الشكل فى رسم الكلمة ؛ وأن الفائدة التى يحققها هذا الإصلاح لا تكاد تعدو تسهيل القراءة واتقاء الخطأ فى ضبط الكلمة المكتوبة حسب وزنها فى اللغة الفصحى .

الحبشي (١).

وترى جماعة الاكتفاء بالتزام الشكل في المطبوع والمكتوب حتى يستطيع كل فرد أن يقرأ ما يقع عليه نظره قراءة صحيحة (٢).

والذى أراه أن الصعوبة التى يشتمل عليها الرسم العربى لا يكاد يخلو من مثلها ، بل مما هو أشد منها ، أى نوع من أنواع الرسم . فاللبس الذى يحدثه أحيانا الرسم العربى ليس شيئا مذكورا بجانب اللبس الذى يحدثه الرسم الإنجليزى مثلا ، وخاصة فى النطق بأصوات المد Vowels : a, e, i, o, u, ie, io, ei, oi, ea, ee ... etc . فكثيرا ما يختلف النطق بالصوت الواحد من هذا النوع وغيره تبعا لاختلاف الكلمات التى يرد فيها . حتى أنه لا يستطيع قراءة معظم الكلمات الإنجليزية قراءة صحيحة بمجرد النظر إلى حروفها ؛ بل لا بد فى ذلك أن يكون القارئ قد عرف نطق الكلمة من قبل عن طريق سماعها من إنجليزى . كما أنه لا يستطيع كتابتها كتابة صحيحة بمجرد سماعها ؛ بل لا بد فى ذلك أن يكون قد حفظ حروفها من قبل عن ظهر قلب (٣) . — وفى الحق أن الرسم العربى ليعد من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطا فى القواعد ومطابقة للنطق .

أما وجوه الإصلاح التى أشرنا إلى بعضها فيما تقدم فيظهر لنا أن ضررها أكبر من نفعها . فعظمها يطيل رسم الكلمة أو يزيد من حروفها ، وفى هذا إسراف فى الوقت والمجهود والنفقات المادية وشؤون الطبع . . . وما إلى ذلك . هذا إلى أن كل تغيير جوهري يدخل على الرسم من شأنه أن يحول — عاجلا أو آجلا — بين الأجيال

(١) قدمت أنا هذا الاقتراح فى مجلس علمى جرى فيه الحديث عن هذا الموضوع ، ووافقت عليه كثير من الحاضرين . ولم يتقدم به فيما أعلم أحد من قبل ، وتفضل هذه الطريقة الطريقة السابقة بأنها تحقق الغرض المنشود مع إبقاء عدد حروف الكلمة على ما هو عليه ، فتوفر بذلك قسما كبيرا من الوقت والمجهود والنفقات المادية فى الورق وجمع الحروف وأجور العمال . . . وما إلى ذلك من الأمور التى تقتضيها الطريقة السابقة . فكلمة « كتب » مثلا ترسم ثلاثة أحرف حسب هذه الطريقة ، على حين أنها ترسم ستة حسب الطريقة السابقة .

غير أنى عقت على ذلك فى نفس المجلس بأن مناقشة هذا الاقتراح وما إليه لا تكون إلا بعد التسليم بضرورة إصلاح الرسم العربى من هذه الناحية ، وصرحت بأننى لا أسلم مطلقا بهذه الضرورة ، وبأن كل إصلاح فى هذا السبيل — مهما بدا وجيها — فإن ضرره سيكون أكبر من نفعه .

(٢) لا يخفى ما يترتب على ذلك من إسراف فى الوقت والمجهود والورق ، ومن صعوبات وانتقالات اليد فى الكتابة وفى سبك الحروف وجمعها . . . وهلم جرا .

(٣) انظر تفصيل هذا الموضوع وما يتصل به فى ١ من الفقرة الرابعة من الفصل السادس بكتابنا

« علم اللغة » .

القادمة والانتفاع بالتراث العربي . حقا إنه يمكن إتقاء ذلك بالالتجاء إلى إحدى محاولتين ؛ ولكن كليهما توقع في صعوبة تزيد كثيراً عن الصعوبة التي تعمل على إزالتها . أما إحداهما فإن يتعلم كل فرد نوعين من الرسم العربي : الرسم القديم الذي يتيح له الانتفاع بنتاج الفكر العربي من النشأة إلى العصر الحاضر ؛ والرسم الحديث الذي يقرأ به ما يدون بعد هذا الإصلاح ويستخدمه في كتابته . ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الارتباك ، وإطالة الزمن الذي تعلم فيه القراءة والكتابة ، وانفرادنا من بين سائر الأمم بأعجوبة في ميادين الرسم والتعليم . وأما الأخرى فإن يُعتمد إلى جميع ما كتب أو طبع بالرسم العربي فيعاد تدوينه وفق هذا الرسم الحديث ، ولا يخفى أن مشروعاً هذا شأنه تنوء به الجهود الإنسانية وتعجز الخزائن عن تمويله .

على أنه من اليسير اتقاء وجوه اللبس التي أشرنا إليها بدون الالتجاء إلى أى إصلاح من الإصلاحات الآنفة الذكر . فمن الممكن التغلب على هذه الصعوبة بالتزام شكل الكلمة التي من شأنها أن تشير اللبس عند أواسط المتعلمين إذا تركت من غير شكل . أما الكلمات التي يدل السياق على شكلها ، أو يكفي إلمام بمبادئ القواعد العربية للنطق بها على وجهها الصحيح ، أو لا يمكن أن ينطق بها في صورة أخرى ، فمن العبث الالتجاء فيها إلى الشكل .

(٢٠) مخارج الأصوات العربية وصفاتها

للأصوات العربية نحو خمسة عشر مخرجا ، وهي .

(١ - ٤) المخارج الجوفية والحلقية ، وعددها أربعة مخارج : الجوف مع الحلق لأحرف المد الثلاثة ، فهي تخرج من الصدر والحلق وتنتهي إلى خارج الفم . - وأقصى الحلق للهمزة والهاء ؛ والهمزة أدخل في ذلك من الهاء . - ووسط الحلق للعين والحاء ؛ والعين أدخل في ذلك من الحاء . - وأدنى الحلق للغين والحاء ؛ والغين أدخل في ذلك من الخاء .

فالصدر مع الحلق يتكون منهما مخرج لثلاثة أحرف ، والحلق وحده يشتمل على ثلاثة مخارج لكل مخرج منها حرفان .

(٥ - ١٣) المخارج اللسانية ، وهي تسعة مخارج : أقصى اللسان مع ما فوقه من الحنك

للقاف والكاف ؛ غير أن الكاف أسفل من القاف وأقرب منها إلى الفم . - ووسطه مع ما يقابله من أعلى الحنك للجيم والشين والياء التي ليست حرف مد ؛ غير أن الجيم أبعدا عن الفم والياء أقربها إليه . - وجانبه مع الأضراس الطواحن الثلاث للضاد : - وجانب طرفه الواقع بعد مخرج الضاد إلى منتهاه مع ما يقابل هذا الجانب من الحنك للام . - وظهر طرفه مع لثة الثنيتين العلين للراء . - وظهر طرفه مع لثة الثنيتين العلين ومع الخيشوم للنون (فالخرج اللساني للراء والنون واحد ، غير أن الراء أدخل في ظهر اللسان من النون ولا تعتمد على الخيشوم كما تعتمد عليه النون) . - وفوق طرفه مع أصول الثنيتين العلين للطاء والذال والظاء . - وفوق طرفه مع الثنيتين السفليين للصاد والسين والزاي .

فللسان ثمانية عشر حرفا موزعة على تسعة مخارج .

(١٤ ، ١٥) المخارج الشفوية ، وعددها مخرجان : باطن الشفة السفلى مع طرف الثنيتين العلين للقاء . - وما بين الشفتين للباء والميم والواو التي ليست حرف مد ، غير أن الواو تخرج من بين الشفتين مع انفتاحهما ، والميم والباء تخرجان مع انطباقهما . وتختلف الميم عن الباء في أن الأولى تعتمد على الخيشوم في حين أن الثانية لا تعتمد عليه .

هذا ، والوسيلة السريعة لمعرفة مخرج أى حرف هي أن تأتى بهمة قبله ثم تنطق به ساكنا أو مشدداً ، فيث ينقطع الصوت يكون مخرج الحرف (١) .



وأما صفات الأصوات العربية فترجع إلى ثلاث عشرة صفة :

(١ ، ٢) الجهر والهمس . ويقصد بالجهر قوة اعتماد الحرف على مكان خروجه فيمتنع جريان النفس معه ، ويقصد بالهمس ضد ذلك ، أى ضعف اعتماد الحرف على

(١) استخدم المحدثون للوقوف على مخارج الحروف في صورة دقيقة أجهزة خاصة تسكمنها عنها بتفصيل في الفقرة التاسعة من التمهيد بكتابنا « علم اللغة » .

انظر كذلك في موضوع مخارج الحروف ، وسبب حدوث الصوت ، وتشريح الحنجرة واللسان ، والأسباب الجزئية لاسكل حرف من حروف العرب ، ولبعض الحروف غير العربية ، وما يشبه الحروف من الأصوات التي تحدثها الأفعال عند وقوعها ، انظر في هذا كله بحثا طريفا للرئيس ابن سينا عنوانه « أسباب حدوث الحروف » نسخته وصححه ووقف على طبعه الأستاذ محب الدين الخطيب نقلا عن نسخة المتحف البريطاني والخزانة التيمورية (المطبعة السلفية ، الطبعة الثانية ١٣٥٢ هـ) .

مكان خروجه فيجرى معه النفس . والأصوات المهموسة عشرة يجمعها قولك : « فثته شخص سكت » . والأصوات المجهورة ما عداها وهي تسعة عشر صوتا .

(٣ - ٥) الشدة والرخاوة والتوسط بينهما . ويقصد بالشدة تمام انحصار الصوت عند إسكانه ، وبالرخاوة تمام جريه عند إسكانه ، والتوسط هو منزلة بين تمام الانحصار وتمام الجرى . وحروف الشدة ثمانية يجمعها قولك : « أجذك قطبت » ، ومن هذه الحروف الثمانية خمسة حروف تسمى أحرف القلقلة إذا كانت ساكنة ويجمعها قولك « قطبجد » . وحروف التوسط ثمانية كذلك ، يجمعها قولك « لم يروعنا » . وحروف الرخاوة ما عدا ذلك .

(٦ ، ٧) الإطباق والانفتاح . الإطباق هو انحصار الصوت بين اللسان وما يحاذيه من الحنك نتيجة لانطباق اللسان على الحنك . والانفتاح ضد الإطباق ، وأحرف الإطباق أربعة وهي الصاد والضاد والطاء والظاء . وأحرف الانفتاح ما عدا ذلك .

(٨ ، ٩) الاستعلاء والانخفاض أو الاستفال . الاستعلاء هو الصعود والارتفاع في أعلى الحنك ، والانخفاض أو الاستفال ضده . وحروف الاستعلاء هي حروف الإطباق والحاء والعين والقاف . وحروف الانخفاض هي ما عدا ذلك .

(١٠ ، ١١) الذلاقة والصمت أو الإصمات . الذلاقة هي خفة الصوت والصمت ضده . وحروف الذلاقة ستة يجمعها قولك : « مر بنفل » . والسبب في خفة هذه الحروف أن ثلاثة منها من طرف اللسان وهي اللام والراء والنون ، وثلاثة من الشفة وهي الفاء والباء والميم ^(١) . وحروف الصمت هي ما عدا ذلك .

(١٢) الصغير وهو صوت يشبه صغير الطائر يحدثه الهواء الخارج من الفم عند النطق بحروف الصاد والسين والزاي .

(١٣) اللين وهي صفة حروف المد الثلاث (الألف والياء والواو) .

(٢١) العلاقة بين أصوات الكلمات العربية ومعانيها

محاكاة الأصوات ، الاشتقاق وأنواعه

تبدو في اللغة العربية بعض روابط بين أصوات كثير من الكلمات وما تدل عليه . وترجع أهم هذه الروابط إلى الطائفتين الآتيتين :

(١) لا توجد كلمة عربية الأصل رباعية أو خماسية خالية من حروف الزيادة إلا وهي مشتملة على حرف أو أكثر من حروف الذلاقة . فتمت وجدت كلمة من هذه الطائفة مجردة من حروف الذلاقة حكم بأنها دخيلة في كلام العرب .

١ - روابط طبيعية أساسها محاكاة الأصوات . فكثير من الكلمات الدالة على أصوات الإنسان والحيوان والأشياء ، وبعض الكلمات الدالة على الأفعال التي يحدثها الإنسان أو غيره ، تحاكي أصواتها في صورة ما أصوات الظواهر التي تعبر عنها .

(١) فمن الكلمات الدالة على أصوات الإنسان : القهقهة ، والتمطق (حكاية صوت المتذوق إذا صوت باللسان) ، والدندنة (كلام تسمع نغمة ولا تفهمه) ، والتغمغم (الصوت بالكلام الذي لا يبين) ، والضوضاء (اختلاط الأصوات) ، والصراخ ، والزققة ، والنحنحة والتنحنح ، والهمهمة (صوت يخرج تردد الزفير) ، والرنين (الصوت الرقيق يخرج المريض) ، والزفير ، والشهيق ، والتأوه ، والحشرجة ، والفخاخ (الصوت الضعيف للنائم) ، والغطيط (صوته القوى) ، والشخير ، والاصطكاك ، والقرقرة ، والكريز (صوت يخرج المجهود والمخنق) ، والقرقرة (صوت يخرج من الأمعاء) ... وما تصرف من هذه الكلمات وما إليها مثل قهقه ودندن وتنحنح وزفر وشهق وتأوه وغط ... وهلم جرا .

(ب) ومن الكلمات الدالة على أصوات الحيوان : رغاء الناقة وبغامها ، وهدير الجمل وقرقرته ، وصهيل الفرس وضبحه إذا عدا وحممته عند الجوع والاستئناس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ، وثغاء الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب وتضوره وتلعلمه عند جوعه ، ونباح الكلب وضغأؤه إذا جاع ، ووقوقته إذا خاف ، وهريه إذا أنكر شيئاً أو كرهه ، وضباح الثعلب ، ومواء الهرة ، وهرصرة البازي ، وقعقة الصقر ، وهدير الحمام ، وسجع القمري ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وفجيج الحيات بفيها وكشيشها بجلدها ، وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، ونقيق الضفدع ، وطنين الذباب ، والبعوض ... وما تصرف من هذه الكلمات وما إليها ، مثل هدر وقرقر وصهل وحمم ونهق وزأر وعوى وتلعلم ونبح وزقزق ونعق ... وهلم جرا .

(ح) ومن الكلمات الدالة على أصوات الأشياء : الخريز للماء ، والقرقرة (صوت الآنية إذا استخرج منها الشراب) ، والنشيش (صوت غليان الشراب) والشخب (صوت اللبن عند حله) ، والحسيس والمعمعة (صوت النار) والأزيز (صوت الرجل عند الغليان) وهزير الريح ، وهزيم الرعد ، وجعجة الرحي ، وصريز القلم والباب ،

وقلقة القفل ، وخفق النعل ... وما تصرف من هذه الكلمات مثل خر وبقبق وقرقر وجعجع وخفق وطنطن ... وهلم جرا .

(ى) ومن الكلمات الدالة على الأفعال التي يحدثها الإنسان أو غيره : القطع والقطف والقطم والقضم والقط والقد ، والفرى والفرز ، والكسر والدق والقرع والهد ... وما تصرف من هذه الكلمات مثل قطع وقطف وقضم وقطم ودق وكسر وقرع وهد ... وهلم جرا (١) . - وقد لوحظ أن المعنى العام في كثير من هذه الأفعال وما إليها يتوقف على صوتين فقط من أصوات الفعل الثلاثة وأن الصوت الثالث تقتصر وظيفته على تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة . فالمعنى العام للتفرقة مثلاً يؤدي في العربية بصوتى الفاء والراء ، ويضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع التفرقة والمادة التي حدثت فيها : فرى ، فرم ، فرض (فرض الخشبة حزها) ، فرص (للفضة) ، فرث (للكرش وما إليه) ، فرج ، فرق ، فرز ... الخ . والمعنى العام للقطع يؤدي بصوتى قاف وطاء (أو صوت قريب من الطاء كالذال والضاد) ، ويضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع القطع والمادة التي حدث فيها : قطع ، قطف ، قطم (عض وذاق أو قطع) ، قضم ، قط (قط القلم قطع رأسه عرضاً) ، قد (قد القميص قطعه) ... الخ . والصوتان اللذان يدلان على المعنى العام في هذه الطائفة من الأفعال يمثلان في الغالب ، في صورة ما ، صوت الفعل ، أى ما يحدثه الفعل نفسه من صوت عند وقوعه (٢) .

والعلاقة الطبيعية التي توجد في هذه الطوائف الأربع بين أصوات الكلمة العربية ومدلولها يوجد مثلها في جميع اللغات . ويرجع السبب في هذه العلاقة إلى النشأة الأولى للغة الإنسان . فالرأى الراجح أن اللغة الإنسانية قد نشأت من محاكاة الإنسان للأصوات التي تصدر من الحيوانات والأشياء وللاصوات التي تحدثها الأفعال عند وقوعها (٣) . فلا غرابة إذن أن يبقى في كل لغة بعض كلمات تمثل الأصل الأول الذي انحدرت منه اللغات .

جميع الكلمات التي

(١) انظر أمثلة أخرى لهذه الطائفة والطوائف الثلاث السابقة في الباب العشرين من كتاب فقه اللغة للشعالي صفحات ٢٠٢ — ٢١٦ .

(٢) انظر آخر ص ١٢ و ص ١٣ .

(٣) انظر الفقرة الثالثة من الفصل الأول بكتابنا « علم اللغة » .

٢ - علاقة وضعية غير مؤسسة على محاكاة الأصوات . وتبدو هذه العلاقة في مظاهر كثيرة من أهمها ما يلي :

(١) الاشتقاق العام : يرتبط كل أصل ثلاثي في اللغة العربية بمعنى عام وضع له ؛ فيتحقق هذا المعنى في كل كلمة توجد فيها الأصوات الثلاثة مرتبة حسب ترتيبها في الأصل الذي أخذت منه . فالمعنى العام للعلم مثلاً وهو إدراك الشيء وظهوره ووضوحه يرتبط بأصوات العين واللام والميم ، فيتحقق في كل كلمة توجد فيها هذه الأصوات الثلاثة مرتبة على هذه الصورة مهما تخللها أو سبقها أو لحقها من أصوات أخرى لينة أو ساكنة ؛ فيتحقق في كلمات : عِلْمٌ ، عَلِمْنَا .. أَعْلَمُ ، نَعْلَمُ ... ، اَعْلَمُ ، اعْلَمِي ... ، عَلَّمُ ، عَلِّمُوا ... ، يُعَلِّمُ ، يُعَلِّمُوا ... ، تَعَلَّمَ ، تَعَلَّمُوا ... ، تَعَلَّمْ ، تَعَلَّمُوا ... ، عَلِمَ ، عَلِمَات ، علم ، عَلِمَ ، عَلَّمَا ، علماء ، عالمون ، علوم ... ، متعلِّم ، متعلِّم ، مُعَلِّم ، مُعَلِّم ، معلوم ، عالم ، عالمون ... وهلم جرا . وعلى هذه الرابطة يقوم أكبر قسم من متن اللغة العربية . ويطلق علماء الصرف اسم الاشتقاق على ناحية من نواحي هذه الرابطة ، وهي الناحية التي تبدو فيما يسمونه بالاشتقات (أفعال الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول واسم الزمان واسم المكان واسم الآلة ...) . ويطلق بعض الباحثين في فقه اللغة العربية على هذه الناحية نفسها اسم الاشتقاق الأصغر لتمييزها من الاشتقاقين الكبير والأكبر اللذين سنتكلم عنهما (١) .

ومن أنواع هذا الاشتقاق نوعان لم يتوسع فيهما العرب كل التوسع ؛ ولكن رأى بجمع فؤاد الأول للغة العربية استخدامهما قياساً لشدة الحاجة إليهما في مصطلحات العلوم والفنون معتمداً في ذلك على مذهب بعض النحاة واللغويين :

(أحدهما) الاشتقاق من أسماء الأعيان . وقد استخدمه العرب في مئات من الألفاظ ، كاشتقاقهم من أسماء الذهب والفضة والجص والزفت ... كلمات مذهب ومفضض ومجصص ومزفت ... ؛ وكاشتقاقهم من أسماء الحجر والناقة والنسر والأسد وبغداد ... كلمات استبحر الطين (إذا يمس وصار كالبحر) ، واستنوق الجمل (إذا حاكى الناقة) ، واستنسر البعاث (إذا حاكى النسر) ، واستأسد الرجل (أي حاكى

(١) لم يعن أحد بوضع اسم لجميع نواحي هذه الرابطة . والأفضل عندي أن يطلق عليها اسم الاشتقاق العام كما سميت في عنوان هذه الفقرة .

الأسد)، وتبغدد (انتسب إلى بغداد أو تشبه بأهلها) ...؛ وكاشتقاقهم من أسماء التاج والحناء والباب والبحر والعفريت والشيطان والنمر والقوس والنعل والتراب والحصباء والخطب والخشب والسماد والجورب والغل واللجام والجن ... كلمات توّجه (إذا ألبسه التاج)، وحناء (خضبه بالحناء)، وبوّب الكتاب (جعله أبواباً) وباب له يبوب (صار بواباً له) وتبوب بواباً (اتخذته)، وأبحر (ركب البحر)، وتعفرت وتشيطان (صار كالعفريت أو الشيطان)، وتنمر (تشبه بالنمر)، وتقوس (صار معه قوس) وتقوس ظهره (إذا انحنى كالقوس)، وتنعل وانتعل (لبس النعل)، وترب المكان (كثر فيه التراب) وتربت يده وأترب (إذا افتقر والتصق بالتراب) والمتربة (الفقر المدقع)، وحصبه (رماه بالحصباء)، وحطب واحتطب (جمع الحطب) ومكان حطيب (يكثر فيه الحطب)، وتخشب (صار كالخشب)، وسمد الأرض (وضع فيها السماد)، وجوربه (ألبسه الجورب)، وغله السجان (وضع الغل في يده أو رقبته) وغلت يداه ويد مغلوله، وألجم الدابة، وتجنّ اللبن (صار كالجن) ... وهلم جرا.

ولكثرة استخدام العرب لهذا النوع من الاشتقاق، وشدة الحاجة إليه في العلوم والفنون أجاز مجمع فؤاد الأول استخدامه قياساً عند الضرورة. وفيما يلي نص قراره بهذا الصدد: «اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان^(١). والمجمع يحيز هذا الاشتقاق للضرورة في العلوم^(٢)».

(وثانيهما) المصدر الصناعي، وهو ما يتكون بزيادة ياء النسب والتاء على اللفظ للتعبير عن المعنى الحاصل بالمصدر. ولم يستخدم العرب هذا المصدر إلا في بضعة عشرات من الكلمات منها الجاهلية والأعرابية واللصوصية والرجولية والربوبية والألوهية والرهبانية والفروسية والأريحية. وتوسع فيه من بعدهم الفلاسفة والعلماء وبخاصة أرباب اللغة منهم كابن سيده والزمخشري وغيرهما.

(١) أورد أستاذنا المغفور له الشيخ أحمد الاسكندري في مجلة المجمع مئات من أسماء الأعيان التي اشتق منها العرب (الجزء الأول ٢٣٦ — ٢٦٨)؛ وقد ذكرنا طرفاً من هذه الأسماء فيما سبق.

(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع ٣٦، ٢٣٢ — ٢٦٨. وعلى أساس هذا القرار يجوز مثلاً أن نشق من أسماء النحاس والزرنيخ والبلور والكهرباء والمغناطيس والنشا ... كلمات منحس ومزرنخ ومبلر أو متبلر ومكهرب وممقطس ومنشا ... وأن نشق من كلمات الماء والماس والجنس ... كلمات استماه البخار إذا تحول إلى ماء واستماس الفحم، أي الكربون (إذا صار من ضغط طبقات الصخور ماساً) واستجص الحجر (إذا صار بالحرق جصاً) ... وهلم جرا.

ولشدة الحاجة إلى هذا المصدر في التعبير عن كثير من حقائق الفلسفة والعلوم والفنون، رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية أن يكون قياسياً وأصدر قراره التالي: «إذا أريد صنع مصدر من كلمة يزداد عليها ياء النسب والتاء^(١)».

(ب) الاشتقاق الكبير: ترتبط بعض مجموعات ثلاثية من الأصوات ببعض المعاني ارتباطاً مطلقاً غير مقيد بترتيب، فتدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبط بها كيفما اختلف ترتيب أصواتها.

فمن ذلك مثلاً أصوات: ج ب ر، ق س و، ن ج د، ر ك ب، س ل م... وهلم جرا.

فأصوات: ج ب ر تدل على القوة والشدة كيفما اختلف ترتيبها في الكلمة. فيوجد هذا المعنى في جميع تراكيبها الستة وهي: جبر (جبرت العظم والفقير إذا قويتها، والجبروت القوة، والجبر الأخذ بالقهر والشدة...)؛ وجرب (ومنه رجل مجرب إذا مارس الأمور فاشتدت شكيمته، ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه، والشيء إذا حفظ قوى واشتد)؛ وبجر (ومنه الأبحر والبحيرة وهو القوى السرة)؛ وبرج (ومنه البرج لقوته ومناعته، والبرج وهو نقاء بياض العين وصفاء سوادها، ومن الواضح أن ذلك يكسبها قوة)؛ ورجب (ومنه رجبت الرجل إذا عظمت وقويت أمره، ومنه رجب لتعظيمهم إياه عن القتال فيه، ومنه كذلك الرُّجْبَة وهو ما تسند إليه النخلة لتدعيمها وتقويتها، والترجيب وهو ضم أعذاق النخلة إلى سفاتها وشدها بالخصوص: أنا عُدَيْقُهَا المُرْجَب...). وربج (ومنه الرِّبَا جى وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله فهو يعظم نفسه ويقوى أمره).

وأصوات ق س و تدل كذلك على القوة والاجتماع كيفما اختلف ترتيبها. فيوجد هذا المعنى في تراكيبها الخمسة المستعملة، وهي: قسو (ومنه القسوة وهي شدة القلب واجتماعه)؛ وقوس (ومنه القوس لشدها واجتماع طرفيها)؛ ووقس (ومنه الوقس وهو ابتداء الجرب لأنه يجمع الجلد ويفلحه)؛ ووسق (ومنه الوسق للحمل، وذلك لاجتماعه وشده، ومنه كذلك استوسق الأمر أى اجتمع: «والليل وماوسق» أى جمع)؛ وسوق (ومنه السَّوْقُ لأنه استحثاث وجمع المسوق بعضه إلى بعض، ومنه كذلك السَّوْقُ لما فيه من جمع واختلاط وشدة).

وأصوات ن ج د تفيد القوة كيفما اختلف ترتيبها في الكلمة . فيتحقق هذا المعنى في تقاليها الخمسة المستعملة وهي : نجد (النجد والإنجاد الإعانة ، والنجد الشجاع الماضي فيما يعجز غيره ، والنجد ما أشرف من الأرض وارتفع ، وفي ارتفاعه قوة ولو لمن عليه ، والنجدة القتال وفيه قوة ، والنجدة كذلك الفزع ، والفزع يغلب عنده المرء ففيه قوة) ؛ وجند (الجند العسكر والأعوان وبهم تكون القوة) ؛ وجدن (الجدن حسن الصوت وهو مما يفتخر به ويؤثر في النفس وفي هذا قوة ، وأجدن استغنى بعد فقر ، وفي الاستغناء قوة) ؛ ودنج (الدناج إحكام الأمر ، وإحكام الأمر يقوى به صاحبه ، وتراب دانج أى تأثيره الرياح ، وإذا أثارت أثر فيها وغيرها وفي ذلك قوة) ؛ ودجن (الدجن المطر الكثير وفيه قوة ، والدجنة الظلمة ، والظلمة ترهب ففيها قوة) .

وأصوات ر ك ب تدل على الإجهاد والمشقة كيفما اختلف ترتيبها . فيوجد هذا المعنى في جميع تراكيبها الستة ، وهي : ركب (ركب الفرس وركب متن الأخطار وركبه الدين ... تتضمن جميعها معنى الإجهاد والمشقة) ؛ وركب (كربه الأمر غمه وأحزنه ، كرب الأرض قلبها ففيه معنى المشقة وبذل الجهد) ؛ وبرك (برك الجمل استناخ وفي ذلك مشقة وجهد) ؛ وربك (ربكه في الطين فارتبك إذا غرسه فيه فلم يستطع التخلص منه وفي ذلك مجاهدة وإرغام) ؛ وبكر (بكر بكور الغراب ، وبكر إلى الأمر ، وبكرت بكيرا أسرع وبادر وفيه معنى الجهد والمشقة) ؛ وكبر (كبر الأمر عظم ، وفي كبر الشيء وجسامته إزعاج للنفس ومشقة لها) .

وأصوات س ل م تدل على الإصحاب والملاينة كيفما اختلف ترتيبها . فيتحقق هذا المعنى في تراكيبها الخمسة المستعملة ؛ وهي : سلم (ومنه السلامة والسليم ، وذلك أن السليم ليس فيه عيب يعترض النفس) ؛ ولمس (ومنه الأملس والمساء . ولا يخفى ما في هذه المادة من معنى الملاينة) ؛ ولمس (ومنه اللمس وهو لا يتحقق إلا إذا مرت اليد على الملموس ولم يعترضها حائل ، فعنى الملاينة واضح فيه كل الوضوح) ؛ وسمل (السمل الثوب الخلق ، وذلك لأنه ليس عليه من الوبر ما على الجديد ، فإذا مرت اليد لم يستوقفها عنه حدة المنسج ولا خشونة الملمس . والسمل الماء القليل ، وفيه معنى الملاينة والضعف عن قوة المضطرب) ؛ ومسمل (ومنه المسمل والمسيل وهو ما يجري فيه الماء ، ولا يخفى ما فيه من معنى الملاينة والانقياد) .

ويرجع الفضل في توضيح هذه الطائفة من الروابط إلى ابن جنى ، وقد عقد لها فصلا

على حدة في كتابه الخصائص، وأطلق عليها اسم «الاشتقاق الأكبر»^(١). ولكن كثيراً من محدثي الباحثين يؤثرون تسميته بالاشتقاق الكبير، ويطلقون اسم الأكبر على النوع التالي.

وقد بالغ بعضهم بصدد هذا النوع من الاشتقاق فزعم أنه يطرد في معظم المواد. والحق أنه لا يبدو في صورة واضحة إلا في طائفة يسيرة من المواد. ومحاولة تطبيقه في غيرها يقتضي كثيراً من التكلف والتعسف، أو الخروج باللفظ عن مدلوله الأصلي، أو التشبث بملاسات ضعيفة واهية. وقد وضع هذا الأمر في نصابه جلال الدين السيوطي في كتابه «المزهر» إذ يقول: «وهذا الاشتقاق ليس معتمداً في اللغة ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب... هذا إلى أن حروف اللغة العربية قليلة وأنواع المعاني المتفاهمة لا تكاد تنتهي... فلو خصوا كل معنى بحروف معينة فلم يدلوا مثلاً على معنى الإكرام والتعظيم إلا بما ليس فيه شيء من حروف الإيلام والضرب لمنافاتها لها لضايق نطاق الأمر ولاحتاجوا إلى ألوف حروف لا يجدونها»^(٢). ففي اعتبار المادة دون هيئة التركيب من فساد اللغة ما بينت لك. ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين بعض التراكيب المتحدة معنى مشترك بينها هو جنس لأنواع موضوعاتها؛ ولكن التحيل على ذلك في جميع مواد التراكيب كطلب لعنقاء مغرب. ولم تحمل الأوضاع البشرية إلا على فهم قريبة غير غامضة على البديهة. فذلك أن الاشتقاقات البعيدة جداً لا يقبلها المحققون»^(٣).

(>) الاشتقاق الأكبر : ترتبط بعض مجموعات ثلاثية من الأصوات ببعض

(١) انظر الخصائص صفحات ٤ - ١٥ ، ٥٢٥ - ٥٣١ . وقد اعترف ابن جنى أن أستاذه أبا علي الفارسي (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ) قد فطن من قبله إلى هذه الروابط ولكنه لم يتوسع في شرحها ولم يضع لها اسماً خاصاً ، وفي ذلك يقول : « هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا ، غير أن أبا علي رحمه الله كان يستعين به ويخلد إليه مع إعواز الاشتقاق الأصغر ، لكنه مع هذا لم يسمه ... وإنما هذا التلقب لنا نحن ... الخ » . ويظهر أن الخليل نفسه (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) قد فطن إلى هذا من قبل الفارسي .

(٢) الصواب أن يقول : « فلو خصوا كل معنى بحروف معينة ، فلم يدلوا مثلاً على معنى الإكرام والتعظيم إلا بكلمة لا تجتمع حروفها الثلاثة في أي أصل يدل على معنى آخر مناف لهذا المعنى لضايق نطاق الأمر ولاحتاجوا إلى ألوف حروف لا يجدونها » . - وذلك لأن وجود حرف أو حرفين من كلمة تدل على معنى ما في كلمة أخرى تدل على معنى آخر لا يتعارض مع نظرية ابن جنى .

(٣) المزهر جزء أول صفحتي ١٦٤ ، ١٦٥ بتلخيص وتصرف في العبارة . انظر كذلك في هذا الموضوع مجلة المجمع اللغوي الجزء الأول ٣٨١ وتوابعها والجزء الثاني ١٩٩ - ٢٠١ ، ٣٤٥ - ٢٥٥

المعاني ارتباطاً غير مقيد بنفس الأصوات بل بنوعها العام وترتيبها فحسب ، فتدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبطة به متى وردت مرتبة حسب ترتيبها في الأصل ، سواء أبقيت الأصوات ذاتها أم استبدل بها أو ببعضها أصوات أخرى متفقة معها في النوع. ونعني بالاتفاق في النوع أن يتقارب الصوتان في المخرج أو يتحدا في جميع الصفات ما عدا الإطباق (١).

فمن أمثلة التقارب في المخرج تناوب الميم والنون في مثل امتقع لونه وانتقع ، واللام والنون في مثل أسود حالك وحانك وفلان خامل الذكر وخامنه ، والراء واللام في مثل هدر الحمام وهديل ، والواو والميم في مثل أوشاج وأمشاج أى ضروب مختلطة متداخلة ، والباء والميم في مثل ضربة لازب وضربة لازم وكبحت الفرس وكحتته ، والباء والdal في مثل قاب قوسين وقاد قوسين ، والهمزة والهاء في مثل درأ عنه ودره (٢) ، والعين والحاء في مثل بعثرت المتاع وبحثرت ، والقاف والكاف في مثل القهبة والكهبة (وهي البياض الضارب إلى الغبرة) وكشط الجلد وقشطه ، والسين والثاء في مثل ساخت الأرض وثاقت ، والفاء والثاء في مثل فوم وثوم (٣) وثروة وفروة أى مال كثير ، والصاد والضاد في مثل ناض وناض إذا تحرك (٤).

ومن أمثلة الاتفاق في الصفات ما عدا الإطباق تناوب الصاد والسين في مثل ساطع وصاطع ، والصراط والسرط ، وسخره في العمل وصخره ، وخطيب مسقع ومصقع ، وضمقر وسقر ، والصدغ والسدغ (٥).

ويرجع السبب في كثير من ظواهر هذا التناوب إلى اختلاف القبائل في النطق بأصوات الكلمة . فعادة كشط مثلاً كانت تنطقها قريش بالكاف على حين أن أسداً وتيميا كانت تنطقها بالقاف .

وقد يختلف في هذا الباب مدلولوا الكلمتين أحدهما عن الآخر بعض الاختلاف مع بقاء المعنى العام للبادء مشتركاً فيهما . فمن ذلك أز وهز ، وعسف ، وأسف ، وقرم

(١) انظر في مخارج الحروف وصفاتها صفحات ١٣٨ - ١٤٠ .

(٢) ومن هذا أخذ المدره وهو لسان القوم ونائبهم الذي يتكلم عنهم .

(٣) وقد قرئ بهما قوله تعالى « وفومها وعدسها ... » الآية .

(٤) ومنه قوله تعالى ولات حين مناص .

(٥) وذلك لاتفاق السين والصاد في الهمس والصغير والرخاوة . وقد كثر في العربية هذا التناوب

إذا وقع بعد السين خاء أو طاء أو عين أو غين أو قاف .

وقلم، وجرف وجلف وجنف، وغرب وغرف، وجبل وجبن وجبر، وغدر وختل...
 وهلم جرا. — فالأزّ معناه الإزعاج والإقلاق^(١)، فهو مشترك مع الهزّ في المعنى العام
 للمادة؛ وإن كان أقوى منه في الدلالة على هذا المعنى وأعظم منه وقعاً في النفس عند ما
 يراد التعبير عن آثار نفسية ذات بال. — والأسف يشترك مع العسف في أنه يعسف
 النفس وينال منها؛ ولكنه أقوى في هذا المعنى من العسف. — والقصرمة الفقرة تُحَزّزُ
 على أنف البعير، وقريب منه قلبت الظفر، لأن هذا انتقاص للظفر وذاك انتقاص
 للجلد. — وجرف الشيء كسحه وأزاله، وجلف القلم أزال جلفته، وجنف جنفا ظلم
 ومال عن الحق: ففي هذه المواد معنى الانحراف والميل، وإن اختلف بعضها عن بعض
 في مواطن استعمالها وماتعلق عليه. — وغرف الماء واغترفه إذا أخذه من مكانه؛
 والغرب دلو عظيمة يغرف بها من الماء: فالكلمتان تشتركان في المعنى العام لهذه
 المادة. — وتستعمل تراكيب جبل وجبن وجبر في معاني الالتئام والتماسك، وإن اختلفت
 المعاني الخاصة باختلاف التراكيب: فالجبل فيه معنى الشدة والقوة والالتئام؛ وجبن
 الرجل إذا استمسك وتوقف وتجمع؛ والجبن الماء كول فيه تماسك العناصر وتجمعها
 والتئامها؛ وجبرت العظم ونحوه إذا لأمته فالتأم وتماسكت أجزاؤه. — والغدر والختل
 يتفقان في معنى الخيانة والخذاع، وإن اختلف استعمال كل منهما ومدلوله عن الآخر
 بعض الاختلاف.

وقد أطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا الباب جميعه اسم «الاشتقاق الأكبر».
 ووقف عليه ابن جنى نحو فصلين من فصول كتابه الخصائص وضرب له أمثلة كثيرة
 ولكنه لم يضع له اسماً على حدة. وقد أدخله تحت قانون عام سماه «تصاقب الألفاظ
 لتصاقب المعاني» أو «الكلمات المتصاقبة الحروف متصاقبة المعاني»، أي أن تقارب
 الحروف في كلمتين يدل على تقارب معناهما، أو «الحرفان المتقاربان يستعمل أحدهما
 مكان صاحبه»^(٢).

(٢٢) النحت في اللغة العربية

وهو أن تنتزع أصوات كلمة من كلمتين فأكثر أو من جملة للدلالة على معنى مركب
 من معاني الأصول التي انتزعت منها.

(١) ومن هذا قوله تعالى «... أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزا».

(٢) انظر الخصائص ٤٧٨ — ٤٨٢، ٥٣٧ — ٥٤٣.

وقد جاء النحت في اللغة العربية على عدة وجوه أهمها الوجوه الثلاثة الآتية :

١ - نحت من جملة للدلالة على التحدث بهذه الجملة ، نحو بسم الله وحمل وحول وحسبل وسعمل وحيعل ودمعز وطلبق وجعقد وبأبأ ... ، إذا قال بسم الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ، والسلام عليكم ، وحى على الصلاة حى على الفلاح ، وأدام الله عزك ، وأطال الله بقاءك ، وجعلت فداءك ، وبأبى أنت .. ونحو البسملة والحمدلة والحوقة ... وهلم جرا .

ولم يرد هذا النوع إلا في كلمات قليلة معظمها مستحدث في الإسلام .

٢ - نحت من علم مؤلف من مضاف ومضاف إليه (مركب إضافي) للنسب إلى هذا العلم أو للدلالة على الاتصال به بسبب ما ، نحو عشمتى وعبدرى وعقبسى وتيملى ومرقسى في النسب إلى عبد شمس وعبد الدار وعبد القيس وتيم اللات وامرىء القيس ؛ ونحو تعشمت الرجل وتعقبسى ... إذا ارتبط بعبد شمس أو بعبد قيس بخلف أو جوار أو ولاء ... وما إلى ذلك .

وهذا النوع قليل كذلك في اللغة العربية ، ولم يكند يسمع إلا في الأمثلة السابقة .

٣ - نحت كلمة من أصليين مستقلين أو من أصول مستقلة للدلالة على معنى مركب في صورة ما من معانى هذين الأصليين أو هذه الأصول .

وهذا النوع شائع أيما شيوع في اللغات الهندية - الأوروبية وخاصة الحديث منها ، حتى أن ما يرجع من مفردات هذه اللغات إلى أصل واحد لقليل بالنسبة إلى ما يرجع منها إلى أصليين أو عدة أصول . ولكنه نادر جدا في فصيلة اللغات السامية على العموم . وهذا من أهم الفروق التي تميز هاتين الفصيلتين إحداهما عن الأخرى كما ذكرنا ذلك بتفصيل في كتابنا « علم اللغة » (١) .

ولا تختلف في ذلك اللغة العربية عن أخواتها السامية . فالمفردات العربية المنزعة من أصليين مستقلين أو من أصول مستقلة لا تتجاوز بضع عشرات ، ومعظمها لم يظهر فيه النحت إلا عن طريق ظنى يبدو فيه أحيانا كثير من صنوف التعسف والتحليل . وفيما يلي بعض أمثلة من هذه المفردات :

ذهب الخليل إلى أن « لن » منزعة من « لا » و « أن » وأنها تضمنت بعد تركيبها معنى لم يكن لأصليها مجتمعين .

وكان الفراء يقول في «هلم» إن أصلها «هل» (هل لك في كذا؟) و«أم» (بمعنى أقصد وتعال^(١)). وقيل إنها مركبة من «هاء التثنية» و«لسم» بمعنى ضم. وقال بعض العلماء في «أيان» إنها منتزعة من «أى آن» فحذفت همزة آن وجعلت الكلمتان كلمة واحدة متضمنة معناهما^(٢)؛ وفي «لسم» الجازمة إن أصلها «لا» و«ما» فحذفت الألف وشددت الميم؛ وفي «لسكن» إنها منتزعة من «لا» و«كاف الخطاب» و«إن» الخفيفة أو الثقيلة، فحذفت همزة إن وجعلت الكلمات الثلاث كلمة واحدة للدلالة على معنى الاستدراك^(٣)؛ وفي «ليس» إن أصلها «لا» و«أيس» (وأيس هو فعل الكينونة في كثير من اللغات السامية وإن كان قد انقرض في العربية). وزعم قوم أن كثيراً من الكلمات الرباعية والخماسية تألفت على هذا النحو^(٤). فقالوا مثلاً في «دحرج» إن أصلها «دحر جري»؛ وفي «هرول» إن أصلها «هرب وولى»؛ وفي «بمثر» أو «بعثر» إن أصلها «بحث» أو «بعث» و«أثار».

ولا يخفى ما في هذا المذهب من تحايل وتعسف وتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها اللغات الإنسانية بصدد الكلمات الدالة على الحدث وتصريفها بعضها من بعض^(٥).

(٢٣) اختصاص بعض الأوزان العربية بالدلالة على أمور خاصة

يكثر ورود بعض الأوزان في اللغة العربية، أو يطرد ورودها فيها، للدلالة على معان خاصة. فمن ذلك أوزان أفعال الماضي والمضارع والأمر وأوزان اسم الفاعل وصيغ المبالغة^(٦) والصفة المشبهة واسم المفعول وأفعال التفضيل والتعجب واسم الآلة^(٧) والمصدر واسم الزمان والمكان وجموع التكسير...

(١) الصاحبي لابن فارس ص ١٤٦.

(٢) انظر الصاحبي لابن فارس ص ١١٤.

(٣) انظر الصاحبي لابن فارس ص ١٤١.

(٤) من هؤلاء ابن فارس، انظر الصاحبي ص ٢٢٧.

(٥) انظر في موضوع النحت المزهر للسيوطي ٢٣٢ - ٢٣٤ والصاحبي لابن فارس ٢٢٧.

(٦) رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية صيغة من صيغ المبالغة وهي صيغة فعال بتشديد العين؛

ونص قراره بهذا الصدد مايلي: «يصاغ فعال للمبالغة من مصدر الفعل الثلاثي اللازم والمتعدى»..

انظر الجزء الثاني من مجلة الجمع ص ٣٥، و ٥٣ - ٦٢.

(٧) رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية ثلاثة الأوزان الشيرة في اسم الآلة وهي مفعول ومفعلة

ومفعال (بكسر فسكون ففتح فيها جميعاً). وإليك نص قراره بهذا الصدد: «يصاغ قياساً من الفعل =

ومن هذه الأوزان ما لا يقتصر على الإشارة إلى مجمل مدلول الكلمة، بل يشير كذلك إلى بعض تفاصيل تتعلق بهذا المدلول. وسندكر فيما يلي بعض أمثلة من هذه الأوزان الخاصة:

ويجىء مصدر «فَعَّالَة» من الثلاثي للدلالة على الحرفة أو شبيها كالصناعة والحياكة والتجارة والإمارة والسفارة والنقابة. وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذا المصدر معتمداً في ذلك على مذهب سيديويه والأخفش وابن مالك ومتابعيهم، فأصدر في دورته الأولى القرار التالي: «يصاغ للدلالة على الحرفة أو شبيها من أى باب من أبواب الثلاثي مصدر على وزن فَعَّالَة بالكسر (١)».

ويجىء مصدر «فَعَّالَان» من الثلاثي للدلالة على التقلب والاضطراب كالغليان والغثيان والخفقان والطيران والدوران والجولان. وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذا المصدر في بعض الأفعال معتمداً في ذلك على مذهب سيديويه والأخفش وابن مالك ومتابعيهم، فأصدر في دورته الأولى القرار التالي: «يقاس المصدر على وزن فَعَّالَان لفعل اللازم مفتوح العين إذا دل على تقلب واضطراب (٢)».

ويجىء مصدر «فَعَّلَ وَفَعَّال» من الثلاثي للدلالة على المرض كالوجع والسقم والبرص، وكالسعال والزكام والمشاء. وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية فَعَّلَ للمرض في بعض الأفعال معتمداً في ذلك على مذهب سيديويه والأخفش وابن مالك ومتابعيهم، فأصدر في دورته الأولى القرار التالي: «يقاس من فَعَّلَ اللازم المفتوح العين مصدر على وزن فَعَّال للدلالة على المرض (٣)». ويرى بعض النحويين واللغويين أن مصدراً فَعَّلَ من الثلاثي مكسور العين قياسى كذلك في الدلالة على المرض (٤).

ويجىء مصدر «فُعَّال وَفُعَّيل» للدلالة على الصوت كما الصراخ والدعاء والمواء والعواء، وكالعويل والضجيج والصهيل والزئير. وقد قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية بهذا الصدد أنه «إذا لم يرد في اللغة مصدر لفَعَّلَ اللازم مفتوح العين الدال على صوت

= الثلاثي على وزن مفعول ومفعلة للدلالة على الآلة التي يعالج بها الشيء. — ويوصى المجمع باتباع صيغ المسموع من أسماء الآلات، فإذا لم يسمع وزن منها لفعل جاز أن يصاغ من أى وزن من الأوزان الثلاثة المتقدمة» (انظر الجزء الأول من مجلة المجمع ٣٥، ٢١٧ — ٢٢١).

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٤، ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٤، ٢٠٨، ٢٠٩.

(٣) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٤، ٢٠٩، ٢١٠.

(٤) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحة ٢١٠.

يجوز أن يصاغ له قياساً مصدر على وزن فُعَال أو فَعِيل^(١) .

ويجىء مصدر « فَعِيل » أحياناً للدلالة على السير كالرحيل والذميل والرقيل .

ويجىء مصدر « فَعَال » للدلالة على الامتناع كإلباء والجماح والشراد .

وتأتى أحياناً بعض مصادر الثلاثي على وزن « تَفْعَال » بفتح أوله للدلالة على كثرة الحدث والمبالغة فيه نحو التطواف والترداد والتسيار والتجوال والتهدار .

وتدل المصادر الرباعية المضعفة على معنى التكرار نحو الزعزعة والقلقلة والصائلة والقعقة والجرجرة والقرقرة^(٢) .

وتأتى « الفَعَالِي » في المصادر والصفات للدلالة على معنى السرعة نحو البشكى والجزى والولقى^(٣) .

ويدل مصدر « فَعْلَة » من الثلاثي على الوحدة كضرب ضربة وأكل أكلة .

ويدل مصدر « فِعْلَة » من الثلاثي على الهيئة كجلس جلسة الأسد ، و « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة » .

وتجىء صيغة « فَعَال » في غير المبالغة من اسم الفاعل للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشيء كالزجاج والبقال والنجار والحداد . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة في هذا المعنى ، معتمداً في ذلك على رأى المبرد ، فأصدر قراره الآتى : « يصاغ فعال قياساً للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشيء . فإذا خيف لبس بين صانع الشيء وملازمه كانت صيغة فعال للصانع وكان النسب بالياء لغيره فيقال زجاج لصانع الزجاج وزجاجى لبائعه »^(٤) .

رتجىء في الغالب صيغة « فُعَال وفُعَالَة » في الأسماء للدلالة على فضلات الأشياء وما يرفض منها ويلقى ، نحو الفتات والبصاق والخنار (وهو بقية الشُّكْر) والرفات والحطام والردال ، وكالنخاعة والنخامة والقوارة (وهو اسم لما يقع عند التقوير) وخشارة الشيء (وهو ما يبقى منه) وقلامة الظفر والكساحة والكساسة والسبابة والقمامة والزبالة والحشالة (الردىء من كل شيء) والنفاية (وهو ما يبقى بعد الاختيار) والبراية (ما برى من العود وغيره) والنفاضة (ما سقط من الوعاء وغيره إذا نفض)

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) انظر الخصائص لابن جنى ص ٥٤٤ .

(٣) انظر الخصائص لابن جنى صفحتى ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

(٤) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٥ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

والكمادة (ما بقى فى أسفل القدر) والصبابة (بقية الماء) والعفافة (ما بقى فى الضرع من اللبن) والثالة (بقية المساء أو غيره) والسحالة ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما) ... وهلم جرا (١) .

وتجىء صيغة « مفعلة » من أسماء الأعيان الثلاثية للدلالة على المكان الذى يكثرفيه الشئ حيواناً كان أم نباتاً أم جماداً ، كالمأسدة والمسبعة والمذابة والموعلة للموضع الكثير الأسد والسباع والذئب والوعول . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة معتمداً فى ذلك على مذهب الأخفش وظاهر مذهب سيبويه ، فأصدر قراره الآتى : « تصاغ مفعلة قياساً من أسماء الأعيان الثلاثية الأصول للمكان الذى تكثرفيه هذه الأعيان سواء أكانت من الحيوان أم من النبات أم من الجماد (٢) » .

وتجىء صفة « فعّلان » للدلالة على أمور تتصل بالجوع والعطش وأضدادهما وملحقاتهما مثل جوعان وعطشان وغرثان وريان وسكران .

وتجىء صفة « أفعل » للدلالة على الألوان نحو أحمر وأبيض وأسود وأزرق وأخضر ... وهلم جرا .

وتجىء صفة « ففعل » للدلالة على الأوصاف الثابتة اللازمة للنفس كشریف ونيل وكبير وحقير ووضع وصغير .

وتدل صيغ جمع التكسير التى على وزن « أفْعُلْ وأفْعَال وأفْعِلَة وفِعْلَة » على جمع قليل العدد كأذرع وأثواب وأعمدة وصميمة .

وتدل بقية صيغ جمع التكسير على جمع كثير العدد كحُمُر وعُمُد وغُرَف وَحِجَج وقضاة وسحرة وقتلى وديبة وركع وقراء وصعاب ونُمُور وغلّمان وحُمّلان وجبناء وأغنياء وجواهر وصحائف وموام (جمع مومة للفلاة الواسعة) ويتامى وسكارى وبرائن ومخارج ومفاتيح (٣) .

(١) انظر المزهري للسيوطى الجزء الثانى صفحتى ٦٤ ، ٦٥ ، والمصباح المنير ص ١٠٧٤ ، والمعجم فى بقية الأشياء لأبى هلال العسكري . — وقد جاء لفظ « النقاوة » (وهو المختار من الشئ) على هذا الوزن من باب حمل الشئ على ضده كما أشار إلى ذلك المصباح ص ١٠٧٤ .

(٢) انظر الجزء الثانى من مجلة المجمع صفحات ٣٥ ، ٥٠ — ٥٣ .

(٣) اختلف فى الفرق بين جوع الكثرة والقلة ، فقيل لئنهما مختلفان مبدأً وغايةً ؛ فالقلة من ثلاثة إلى عشرة ، والكثرة من عشرة إلى ما لا نهاية . وقيل لئنهما مختلفان غاية لا مبدأ ؛ فالقلة من ثلاثة إلى عشرة فقط والكثرة من ثلاثة إلى ما لا نهاية . وهذا إذا كان الاسم ثلاثياً وله صيغة الجمع . أما إذا كان زائداً على الثلاثة أو ثلاثياً وليس له إلا جمع واحد نحو أسباب وكتب فجمعه مشترك بين =

وتجىء صيغة **فَعَل** «يفعل» وما تصرف منها في الأمور الدالة على الفرح والحزن وتوابعهما، والامتلاء والخلو وملحقاتهما، والألوان، والعيوب، والحلية، والخوف، والمرض: كفرح وطرب وبطر وأشر وغضب وحزن؛ وكشبع وروى وسكر وعطش وظمى وصدى؛ وكحمر؛ وكعور وعمش؛ وكخيد وهيف ولمى؛ وكفزع وفرق (خاف)؛ وكمرض وسقم... الخ.

وتجىء صيغة **فَعَّل** «يفعل» وما تصرف منها في الأمور الدالة على الأوصاف الثابتة كشرف وحسن ووسم وحلم وكبر وجروء وسهل وصعب وجبن وصغر وسفه وقبح وحقر ووضع... وهلم جرا.

وتجىء صيغة **أَفْعَل** «أفعل» المزيد وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها التعدية كأقمت محمداً وأقعدته وأقرأته؛ وملكية الشيء كألبن وأتمر وأفلس (صار ذا لبن وتمر وفلوس)؛ والدخول في المكان والزمان كأشأم وأعرق وأصبح وأمسى (دخل في الشام والعراق والصباح والمساء)؛ والاستحقاق كأحصد الزرع (أى استحق الحصاد)؛ وتعريض الشيء لأمر ما كأرھنت المتاع وأبعته (عرضته للرهن والبيع)؛ والتكهن كأحفرت الأرض أى مكنته من حفرها. وقد رأى بجمع فؤاد الأول للغة العربية أن هذه الصيغة قياسية في المعنى الأول وهو التعدية معتمداً في ذلك على مذهب سيبويه والأخفش والفارسي، فأصدر قراره الآتي: «يرى المجمع أن تعدية الفعل الثلاثي اللازم بالهمزة قياسية» (١).

وتجىء صيغة **فَاعِل** «فاعل» المزيد وما تصرف منها للدلالة على المشاركة في الفعل بين اثنين فأكثر كقاتل وضارب؛ وعلى الموالاة كتابع الصوم وواليته.

وتجىء صيغة **فَعَّل** «فعل» وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها التكثير في الفعل كقتل وطوف وغلق؛ والتعدية كعلم وفرح؛ وصيرورة الشيء شيئاً بشيء آخر كقوس محمد وحجر الطين أى صار شبه القوس في الانحناء وشبه الحجر في الصلابة؛

القليل والكثير. وكثيراً ما تستعمل صيغة القلة في العدد الكثير؛ وقد تستعمل صيغة الكثرة في القليل نحو ثلاثة قروء. وأما جمع السلامة مذكوره ومؤنثة فيرى بعضهم أنه جمع قلة. وإلى هذا ذهب ابن السراج، ويقال إنه مذهب سيبويه. والصحيح أنه مشترك بين القليل والكثير وقد ورد بهما في القرآن: قال تعالى «واذكروا الله في أيام معدودات» والمراد بها أيام التشريق وهي قليلة؛ وقال كتب عليكم الصيام... أياماً معدودات» وهذه كثيرة. انظر بعض تعليقات طريفة في هذا الموضوع بمعجم المصباح المنير صفحات ١٠٧٥-١٠٧٧.

ونسبة الشيء إلى أصل الفعل كزكيت فلاناً وعدلته وفسقته وكفرته أى نسبته إلى الزكاة والعدالة والفسق والكفر، والتوجه إلى الشيء كشرقت وغربت؛ واختصار حكاية الشيء كهلل وسبح ولبي وأمن؛ وقبول الشيء كشفعته أى قبلت شفاعته.

وتجىء صيغة «انفعل» وما تصرف منها للدلالة على المطاوعة كقطعته فانقطع وكسرتة فانكسر. وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة فى المعنى السابق فأصدر قراره الآتى: «كل فعل ثلاثى متعد دال على معالجة حسية فطاووعة القياسى «انفعل»؛ ما لم تكن فاء الفعل واوا أو لاما أو نونا أو ميا أو راء ويجمعها قولك «ولنر» فالقياس فيها افتعل، (١).

وتجىء صيغة «افتعل» وما تصرف منها لعدة معان أهمها الاتخاذ كاختتم واختدم (أى اتخذ خاتماً وخادماً)؛ والاجتهاد والطلب كاكْتَسَب واكْتَسَب (أى اجتهد وطلب الكسب والكتابة)؛ والتشارك كاختصم فلان وفلان واختلفا؛ والإظهار كاعتظم (أى أظهر العظمة)؛ والمبالغة فى معنى الفعل كافتدر (بالغ فى القدرة)؛ ومطاوعة الثلاثى كعدلته فاعتدل وجمعته فاجتمع. وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة فى مطاوعة الثلاثى المتعدى الدال على معان حسية إذا كانت فاءه واوا أو لاما أو نونا أو ميا أو راء. وقد ذكرنا قراره بهذا الصدد فى الصيغة السابقة.

وتجىء صيغة «تفعل» وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها مطاوعة فعل مضارع العين كنبهته وكسرتة فتكسر؛ والاتخاذ كتوسد ثوبه أى اتخذه وسادة؛ والتكلف كتصبر أى تكلف الصبر؛ والتجنب كتخرج وتهجد أى تجنب الحرج والهجوم؛ والتدريج كتجرع الماء وتحفظ العلم أى شرب الماء جرعة بعد أخرى وحفظ العلم مسألة مسألة. — وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة فى مطاوعة فَعَّل ما لم يكن تضعيفه للتعدية فقط، فأصدر قراره الآتى: «قياس المطاوعة لفَعَّل مضارع العين «تفَعَّل» والأغلب فيما ضعف للتعدية فقط أن يكون مطاوعة ثلاثية (١)».

وتجىء صيغة «تفاعل» وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها التشريك بين اثنين فأكثر كتجاذبا وتخاصما؛ والتظاهر بالفعل كتجاهل وتغابى؛ وحصول الشيء بالتدريج كتزايد النيل وتواردت الإبل؛ ومطاوعة فاعل كباعده فتباعد. وقد أصدر

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع ٣٦، ٢٢٢—٢٢٣.

(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٦، ٢٢٣، ٢٢٤.

يجمع فؤاد الأول للغة العربية بصدد هذه الصيغة القرار الآتي : « فاعل الذي أريد به وصف مفعوله بأصل مصدره مثل باعدته يكون قياس مطاوعه تفاعل كتباعد (١) » .
وتجىء صيغة « استفعل » وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها الطلب كاستغفر الله أى طلب غفرانه ؛ والصيرورة الحقيقية أو المجازية كاستبحر الطين واستنسر البغات ؛ واعتقاد صفة الشيء كاستحسن كذا واستصوبه ؛ واختصار حكاية الشيء كاسترجع إذا قال إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ والقوة كاستهتر واستكبر إذا قوى هتاره وكبره . — وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة في المعنيين الأولين فأصدر قراره التالي : « يرى المجمع أن صيغة استفعل قياسية لإفادة الطلب والصيرورة (٢) » .

وتجىء صيغة « تفعلل » وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة منها مطاوعة فعلل وما ألحق به كدحرجته فتدحرج وجلببته فتجلبب . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة في المعنى المذكور فأصدر قراره التالي : « فعلل وما ألحق به قياس المطاوعة منه على تفعلل نحو دحرجته فتدحرج وجلببته فتجلبب (٣) » .
وأكثر ما تجىء صيغتا « افعل » و« افعلال » للمبالغة في الألوان والعيوب نحو احمر واحمار واعور واعوار .

وتستخدم في الغالب صيغة « افعوعل » وما شاكلها في الأفعال للدلالة على المبالغة والتوكيد نحو اخشوشن الرجل في معيشتة إذا بالغ في خشونة مأكله وملبسه ونحوهما ، واعشوشبت الأرض إذاكثر عشبها وعمها فلم يترك بها مكاناً خالياً ، واحلولى الزمان إذا ذهب منغصاته وبدت مسراته .

وتجىء صيغة « فَعَعَال » المبنى على الكسر للدلالة على الأمر (اسم فعل الأمر) كحذار ونظار وحضار وشتات ودراك وتراك (٤) .

(٢٤) الاشتراك اللفظي في اللغة العربية

تكلمنا بتفصيل فيما سبق عن الترادف وهو إطلاق عدة كلمات على مدلول واحد (٥) .

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٣) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحتى ٣٧ ، ٢٢٥ .

(٤) انظر المزهر للسيوطى الجزء الثانى ص ٧١ وتوابعها .

(٥) انظر ص ١٠٧ وتوابعها .

وسندكر هنا كلمة فيما يقابل الترادف ، وهو الاشتراك اللفظي ، وذلك بأن يكون للكلمة الواحدة عدة معان تطلق على كل منها على طريق الحقيقة لا المجاز . وذلك كلفظ « الخال » الذي يطلق على أخى الأم ، وعلى الشامة في الوجه ، وعلى السحاب ، وعلى البعير الضخم ، وعلى الأكمة الصغيرة . . . ، وكلفظ « إنسان » الذي يطلق على الواحد من بنى آدم ، وعلى ناظر العين ، وعلى الأنملة ، وعلى حد السيف ، وعلى السهم ، وعلى الأرض التي لم تزرع . . . ، وكلفظ « الأرض » الذي يطلق على ما يقابل السماء ، وعلى النفضة والرعدة ، وعلى الزكام . . .

وقد اختلف الباحثون في مبلغ ورود المشترك اللفظي في اللغة العربية . فذهب بعضهم إلى إنكاره بتاتا ، وعمل على تأويل أمثله تأويلا يخرجها من هذا الباب ، كأن يجعل إطلاق اللفظ في أحد معانيه حقيقة وفي المعاني الأخرى مجازا . وعلى رأس هذا الفريق ابن درستويه (١) .

وذهب فريق آخر إلى كثرة وروده وضرب له عددا كبيرا من الأمثلة . ومن هؤلاء الأصمعي والخليل وسيبويه وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري وابن فارس وابن مسعدة والثعالبي والمبرد والسيوطي . وقد وقف بعض أفراد هذا الفريق على سرد أمثلة المشترك مؤلفات على حدة (٢) .

والحق أن كلا الفريقين قد تنكب جادة الحق فيما ذهب إليه . فمن التعسف محاولة إنكار المشترك إنكاراً تاماً وتأويل جميع أمثله تأويلا يخرجها من هذا الباب . وذلك أنه في بعض الأمثلة لا توجد بين المعاني التي يطلق عليها اللفظ الواحد أية رابطة واضحة تسوغ هذا التأويل ، كما يظهر هذا من التأمل في الأمثلة التي أوردناها في صدر هذه الفقرة .

غير أنه لم يكثر ورود المشترك في اللغة العربية على الصورة التي ذهب إليها الفريق الثاني . وذلك أن كثيراً من الأمثلة التي ظن هذا الفريق أنها من قبيل المشترك اللفظي يمكن تأويلها على وجه آخر يخرجها من هذا الباب .

فمن هذه الأمثلة ألفاظ نقلت عن معناها الأصلية إلى معان مجازية أخرى لعلاقة ما ، فاعتبرت لذلك من المشترك وهي ليست منه . وإليك مثلاً لفظ « الهلال » الذي يطلق

(١) انظر الجزء الأول من مزهر السيوطي ص ١٨٥ .

(٢) من أشهر من وقف على المشترك مؤلفات خاصة من القدماء الأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد .

على هلال السماء، وهلال الصيد (وهو آلة تشبه الهلال يعرقل بها حمار الوحش)، وهلال النعل (ذؤابته المشبهة للهلال)، وهلال الإصبع المطيف بالظفر، والحية إذا سلخت، والجلل الهزيل من كثرة الضراب، وباقي الماء في الحوض. فمن الواضح أنه قد وضع في الأصل للدلالة على المعنى الأول، وأن إطلاقه على ما عداه من المعاني من قبيل المجاز لوضوح علاقة المشابهة بينها وبين هلال السماء في صورته أو ضآلته. وكل ما هنالك أنه قد كثر استخدامه في هذه المعاني، فلم يلاحظ فيها وجه المجاز وأصبح إطلاقه عليها في قوة استخدام الشيء في حقيقته^(١). وما قيل في لفظ الهلال يقال مثله في كثير من الأسماء الأخرى التي ظن هذا الفريق أنها من قبيل المشترك اللفظي^(٢)، ويقال مثله كذلك في الحروف التي تحتل أكثر من مدلول واحد، وفي أفعال الماضي والمضارع التي تستعمل في الخبر تارة وفي الدعاء تارة أخرى.

ومن الأمثلة التي ذكرها هذا الفريق ألفاظ أخرى جاءها الاشتراك من عوارض تصريفية. وذلك كأن تؤدي القواعد الصرفية إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان في صيغة واحدة، فينشأ عن ذلك تعدد في معنى هذه الصيغة تؤدي إلى جعلها من قبيل المشترك وهي ليست منه إلا في الظاهر. وإليك مثلاً لفظ «وجد»: فإنه يجيء ماضياً من الوجدان بمعنى العلم بالشيء أو العثور عليه (فيقال وجدت الضالة إذا عثرت عليها، ووجدت زيدا كريماً إذا علمته كذلك)؛ ومن الموجدة بمعنى الغضب (فيقال وجدت عليه إذا غضبت)؛ ومن الوجد بمعنى الحب الشديد (فيقال وجد به وجداً إذا هويه وتفانى في حبه). ولفظ «الغروب»: فإنه يجيء مصدراً لغربت الشمس مثلاً، وجمعاً للغروب وهو الدلو العظيمة.

فاذا نحن حذفنا من قائمة الأمثلة التي ذكرها هذا الفريق ما يمكن أن يحذف على

(١) وفي ذلك يقول أبو علي الفارسي على ما رواه عنه ابن سيدة: «اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ينبغي ألا يكون قصداً في الوضع ولا أصلاً، ولكنه من لغات تداخلت أو أن تكون لفظة تستعمل لمعنيين ثم تستعار لشيء فتكثر وتغلب وتصير بمنزلة الأصل». (المخصص لابن سيدة ج ١٣ ص ٢٥٩).

(٢) من ذلك مثلاً لفظ «الحوت» الذي يطلق على السمك وعلى برج من بروج السماء (شكله على صورة الحوت)؛ ولفظ «العين» الذي يطلق على الحاسة وعلى عين الماء وعلى أفضل الأشياء وأحسنها وعلى النقد من الذهب والفضة؛ ولفظ «الحل» الذي يطلق على الجذع من ولد الضأن وعلى برج من بروج السماء وعلى السحاب الكثير الماء... وهلم جرا.

ضوء الملاحظات السابقة وما إليها، فربما لا يبقى في باب الاشتراك اللفظي بمعناه الصحيح إلا بضع مفردات.

وقد نشأ الاشتراك بمعناه الصحيح في اللغة العربية من عوامل كثيرة أهمها العاملان الآتيان:

١ - اختلاف اللهجات العربية القديمة . فبعض أمثلة المشترك جاءها الاشتراك من اختلاف القبائل العربية في استعمالها، ثم جاء جامعو المعجمات فضموا هذه المعاني بعضها إلى بعض بدون أن يعنوا في كثير من الأحوال برجع كل معنى إلى القبيلة التي كانت تستخدمه . وبعض أمثله كانت تختلف معانيه كذلك في الأصل باختلاف القبائل، ولكن معانيه المختلفة قد انتقلت فيما بعد إلى لغة قريش على النحو الذي شرحناه في الفقرات السابقة (١)، فأصبح يطلق فيها على جميع هذه المعاني.

٢ - التطور الصوتي . فقد ينال الأصوات الأصلية للفظ ما بعض التغيير أو الحذف أو الزيادة وفقاً لقوانين التطور الصوتي التي تسكلمنا عنها بتفصيل في كتابنا « علم اللغة (٢) »، فيصبح هذا اللفظ متحداً مع لفظ آخر يختلف عنه في مدلوله .

(٢٥) التضاد في اللغة العربية

وهو أن يطلق اللفظ على المعنى وضده، كلفظ « الجون » الذي يطلق على الأبيض والأسود؛ و « الجلل » المستعمل في الجليل والهين، (هذا مصاب جلل؛ كل مصيبة تخطأتك جلل . فهو في المثال الأول بمعنى العظيم وفي الثاني بمعنى الهين)؛ و « أسر » المستعمل في الإخفاء وضده (فأسرهما يوسف في نفسه ولم يبيدها لهم، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب : فهو في المثال الأول بمعنى الإخفاء ويحتمل المعنيين في المثال الثاني)؛ و « الصارخ » للمستغيث والمغيث؛ و « البين » بمعنى الفراق والوصل؛ و « الخشيب » من السيوف الذي لم يصقل، وهو أيضاً الذي أحكم عمله وفرغ من صقله؛ و « المسجور » الذي يطلق على المملوء والفارغ؛ و « الزاهق » الذي يطلق على المتناهي في الزمن وعلى شديد الهزال؛ و « البسل » بمعنى الخلال والحرام؛ و « الرجاء » المستعمل في الرغبة والخوف... وهلم جرا .

(١) انظر ص ٨٨ وتوابعها وصفحتي ١١٠، ١١١ .

(٢) انظر الفصل السابع من كتاب علم اللغة .

فالتضاد نوع خاص من أنواع الاشتراك اللفظي السابق ذكره . ولذلك اختلف الباحثون بصدد وروده اختلافهم في المشترك اللفظي .

فقال قوم بعدم وروده في العربية وعملوا على تأويل أمثله تأويلاً يخرجها من هذا الباب . ومن أشهر هؤلاء ابن درستويه ، فقد ذهب إلى جحد الأضداد جميعها وكتب في ذلك تأليفاً خاصاً سماه « إبطال الأضداد »^(١) . وروى ابن سيدة في كتابه « المخصص » أن أحد شيوخه كان كذلك « ينكر الأضداد التي حكاها أهل اللغة وأن تكون لفظة واحدة لشيء وضده »^(٢) .

وذهب فريق آخر إلى كثرة وروده ، وضرب له عدداً كبيراً من الأمثلة . ومن هؤلاء الخليل وسيبويه وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري وابن فارس وابن سيدة وابن دريد والثعالبي والمبرد والسيوطي^(٣) . فقد أحصى كل من السيوطي وابن سيدة من الأضداد ما ينيف على المائة . بل إن بعض أفراد هذا الفريق قد وقف مؤلفات على حدة لسرد أمثلة التضاد . ومن هؤلاء قطرب والأصمعي وابن السكيت والصغاني وأبو بكر بن الأنباري والتوزي وأبو البركات بن الأنباري وابن الدهان^(٤) . ومن أشهر هذه المؤلفات وأنفسها كتاب الأضداد لابن الأنباري الذي أحصى فيه من هذا النوع ما زاد على الأربعمائة .

وكلا الفريقين قد تنكب جادة القصد فيما ذهب إليه .

فمن التعسف إنكار التضاد ومحاولة تأويل أمثله جميعاً تأويلاً يخرجها عن هذا الباب كما فعل الفريق الأول . وذلك أن بعض أمثله لا تحمل أى تأويل من هذا القبيل . حتى أن ابن درستويه نفسه ، وهو على رأس المنكرين للتضاد ، قد اضطر إلى الاعتراف

(١) لم يصل إلينا لسوء الحظ هذا الكتاب ، ولذلك لم نقف على وجه اليقين على الأسس التي اعتمده عليها ابن درستويه في مذهبه .

(٢) المخصص لابن سيدة ج ١٣ ص ٢٥٩ س ٨ .

(٣) انظر المخصص لابن سيدة ج ١٣ ص ٢٥٨ — ٢٦٧ ؛ وفتح اللغة للثعالبي الفصل السادس عشر من الباب الثلاثين ص ٣٢٨ ، والمزهر للسيوطي جزء أول ١٨٦ — ١٩٤ .

(٤) انظر كتاب « الأضداد » لقطرب ، و « الأضداد » للحسن بن محمد بن الحسن الصغاني (كلاهما في مخطوطات مكتبة برلين) ؛ و « كتاب الأضداد » للأصمعي ، و « الأضداد » لابن السكيت (كلاهما في مخطوطات مكتبة فينا) ، و « كتاب الأضداد » لأبي بكر بن الأنباري (وهو مطبوع متداول ومن أنفس ما وصل إلينا في هذا الموضوع) . وذكر المبرد والسيوطي كتاباً في الأضداد لعبد الله ابن محمد بن هارون التوزي . وذكر السيوطي في كتابه المزهر كتباً في الأضداد لأبي البركات بن الأنباري ولابن الدهان .

بوجود النادر من تلك الالفاظ إذ يقول : « وإنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني ، فلو جاز لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين أو أحدهما ضد للآخر لما كان ذلك إبانة بل تغمية وتغطية ، ولكن قد يحىء الشيء النادر من هذا لعل ... (١) » .

غير أنه لم يكثر وروده في اللغة العربية على الصورة التي ذهب إليها الفريق الثاني . وذلك أن كثيراً من الأمثلة التي ظن هذا الفريق أنها من قبيل الأضداد يمكن تأويلها على وجه آخر يخرجها عن هذا الباب .

ففي بعض الأمثلة قد استعمل اللفظ في ضد ما وضع له لمجرد التفاؤل كالمفاضة في المكان الذي تغلب فيه الهلجنة ، فقد سميت بذلك تفاؤلاً بالسلامة (٢) ، وكالسليم الملدوغ (٣) ، وكالريان والناهل للعطشان .

وفي بعضها قد استعمل اللفظ في ضده لمجرد التهمك أو لاتقاء التلفظ بما يكره التلفظ به أو بما يمجج الذوق أو بما يؤلم المخاطب . وذلك كإطلاق لفظ العاقل على المعتوه أو الأحمق ، والخفيف على الثقيل ، والأبيض على الأسود ، والمالآن على الفارغ (٤) ، والمولى على العبد ، والبصير على الأعمى وهلم جرا .

وقد يحىء التضاد في الظاهر من انتقال اللفظ عن معناه إلى معنى آخر مجازي لنسكتة بلاغية أو لعلاقة ما . وذلك كما في قوله تعالى : « نسو الله فنسيهم » ، فالفعل الثاني غير مستعمل في معناه الأصلي ، لأن الله لا يجوز عليه السهو ، بل مستعمل في معنى الإهمال والترك المقصود على سبيل الاستعارة ؛ وقد حسن هذه الاستعارة ما تحققة من مشاكلة بين اللفظين وتجانس بين الجزاء والعمل . ومن هذا القبيل كذلك لفظ « الكأس » الذي يطلق على الظرف وعلى المظروف أى على الإناء وما يملؤه . وقد يكثر استخدام الكلمة في ضد مدلولها عن هذا الطريق فيتناسى فيها وجه المجاز . ويصبح إطلاقها على ما يقابل مدلولها الأصلي في قوة استخدام اللفظ في حقيقته (٥) .

وقد يحىء التضاد في الظاهر من دلالة الكلمة في أصل وضعها على معنى عام يشترك

(١) المزهر للسيوطي الجزء الأولى ص ١٨٥ .

(٢) هذا على أنها مأخوذة من فاز إذا نجا وسلم ، ويصح أن تكون مأخوذة من فوز بتشديد الواو إذ مات لأنها مظنة الموت (انظر المصباح المنير) .

(٣) من هذا ما نستخدمه في الأخبار عن شخص مريض إذ نقول : « إنه في عافية » .

(٤) يقال في مصر بعد شرب القهوة وما إليها إذ يطلب رفع الكوب الفارغ « خذ المالن » .

(٥) وقد فطن إلى ذلك أبو على الفارسي كما تقدم بيان ذلك في فقرة المشترك اللفظي (انظر

التعليق الأول بصنعة ١٥٩) .

فيه الضدان ، فتصلح لكل منهما لذلك المعنى الجامع . وهذا ما يسميه أحياناً علماء الأصول بالمشتراك المعنوى . وقد يغفل بعض الناس عن ذلك المعنى الجامع فيظن الكلمة من قبيل التضاد . ومثال ذلك « القرء » فى إطلاقه على الحيض والطمهر ؛ لأن معناه فى الأصل الوقت المعتاد ، ومن ثم يستعمل فى الحيض والطمهر لأن كليهما وقت معتاد للمرأة ؛ و « الزوج » فى إطلاقه على الذكر والأنثى ؛ و « الصريم » فى إطلاقه على الليل والنهار (لأن معناه فى الأصل ما ينصرم عن شىء آخر وهذا يصدق على الليل والنهار لأن كليهما ينصرم عن صاحبه) ؛ و « شرى » و « باع » فى إطلاق كل منهما على البيع والشراء (لأن أصل معناه المبادلة وهى متحققة فى كلا الإجراءين) ؛ و « الشمر » فى إطلاقها على أوائل الشهر وأواخره (لأن معنى « السرار » ما يصل بين الشهر السابق والشهر اللاحق ؛ وهذا يصدق على أوائل الشهر وعلى أواخره) ؛ و « الصارخ » فى إطلاقه على المغيث والمستغيث (لأن المغيث يصرخ بالإغاثة والمستغيث يصرخ بالاستغاثة ، فمعنى اللفظ متحقق فى كليهما) . ولعل من هذا القبيل لفظ « الجون » فى إطلاقه على الأبيض والأسود . فالظاهر أنه معرب لفظ « كون » الفارسى ، ومعناه فى الأصل اللون ، وهذا يصدق على الأبيض كما يصدق على الأسود^(١) . ولعل منه كذلك لفظ « الجمل » فى إطلاقه على العظيم والحقير . فالظاهر أنه موضوع للغاية فى الشىء فيصدق على الأمرين معاً ، كما ذهب إلى ذلك ابن حبيب البصرى .

وقد يجىء التضاد فى الظاهر من اختلاف مؤدى المعنى الواحد باختلاف المواقع . وذلك مثل كلمة « فوق » التى قالوا إنها قد تستعمل فى ضد معناها الأصلى فتأتى بمعنى دون ، كما فى قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها » أى فما دونها . والحق أنها فى هذا المثل وما إليه تدل على معناها الأصلى ؛ إذ تفسير الآية ما يفوق الذبابة حقارة . فهى لم تستخدم بمعنى دون ، وإنما جاءها هذا المدلول من مؤدى معناها الأصلى فى مثل هذه الآية . ومن هذا القبيل قولنا « فتحت القنطرة » إذ نريد به أحياناً التعبير عن فتحها لمرور السفن وأحياناً التعبير عن قفلها بعد مرورها ؛ وقولنا « قفلت القنطرة » إذ نريد به أحياناً التعبير عن قفلها بعد مرور السفن وأحياناً التعبير عن فتحها لمرورها . وذلك أن فتح القنطرة للسفن يستلزم قفلها فى وجه المارة ، كما أن قفلها بعد مرور السفن يستلزم فتحها فى وجههم . فاستعمال « فتح » فى القفل و « قفل » فى الفتح فى

(١) انظر القاموس المحيط جزء ٤ ، والألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدى شير ص ٤٩ .

مثل هذين التعبيرين ليس من استعمال اللفظ في ضد معناه ، وإنما هو استعمال للفظ فيما يؤدي إليه معناه الأصلي وما يترتب عليه بالنسبة للبارة .

وقد تأتي بعض الأضداد من عوارض تصريفية . وذلك بأن تؤدي القواعد الصرفية إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان في صيغة صرفية واحدة ، فينشأ عن ذلك لبس في معنى الصيغة المشتركة يؤدي إلى عدها من باب الأضداد وهي ليست منه في شيء . فمن ذلك لفظ «مرتد» الذي يقال للذي يرتد للشيء وللشيء يُرْتَد . فمثل هذا اللفظ ينبغي أن يخرج من عداد الأضداد ، لاختلاف الأصل الذي اشتق منه . فهو إذا كان للفاعل فأصله مرتد ، وإن كان للمفعول فأصله مرتد ، واتحاد اللفظين جاء من الإدغام . ومن هذا القبيل ألفاظ المزداد والمختار والممتاز والمبتاع والمصطاد وهلم جرا .

فإذا نحن حذفنا من قائمة الأضداد التي ذكرها ابن الأنباري وأضرابه ممن بالغوا في إثبات التضاد ما يمكن أن يحذف على ضوء الملاحظات السابقة وما إليها ، فربما لا يبقى في باب التضاد بمعناه الصحيح إلا بعض مفردات .
وقد نشأ التضاد بمعناه الصحيح في اللغة العربية من عوامل كثيرة أهمها العاملان الآتيان :

١ — اختلاف اللهجات العربية . فبعض الألفاظ قد جاءها التضاد من اختلاف القبائل في استخدامها ، وذلك كلفظ « وثب » المستعمل عند مضر بمعنى طفر وعند حمير بمعنى قعد^(١) ؛ وكلفظ « السدقة » : فإنها كانت عند تميم بمعنى الظلمة وعند قيس بمعنى الضوء ؛ وكلفظ « سجد » : فإن معناه انتصب عند قبيلة طيء وانحنى وتطامن إلى الأرض عند باقي القبائل ؛ وكلفظ « لمق » : ففي لغة بني عقيل يقال لمقت الشيء ألمقه لمقا إذا كتبه ، وفي لغات سائر قيس يقال لمقته إذا حوته .

(١) يروون بهذا الصدد قصة طريفة في ذاتها ، وإن كان الظاهر أنها من صنع اللغويين . ولمنخصها أن رجلا من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صعصعة (وفي رواية أنه زيد بن عبد الله بن دارم) وفد على ذي جدين ملك حمير ، فألفاه في متصيد له على جبل مشرف ، فسلم عليه فقال له الملك : « تب » يريد اجلس . فظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل . فقال : « ليعلم الملك أنني سامع مطيع » ؛ ثم وثب من الجبل فهلك . فقال الملك : « ما شأنه » . فقالوا له : « أبيت اللعن ، إن الوثب في كلام نزار الطفر » . فقال الملك : « ليست عربيتنا كعربيتهم » . انظر الصحاح لابن فارس ص ٢٢ ؛ والمزهر للسيوطي الجزء الأول ص ١٩١ .

٢ — التطور الصوتي. قد ينال الأصوات الأصلية للفظ ما بعض التغيير أو الحذف أو الزيادة وفقاً لقوانين التطور الصوتي التي تكلمنا عنها بتفصيل في كتابنا « علم اللغة »^(١)؛ فيصبح متحداً مع لفظ آخر يدل على ما يقابل معناه^(٢).
✕

(٢٦) المجاز والكناية والنقل

واستخدام الجمل في غير أبوابها في اللغة العربية

يكثُر في اللغة العربية استعمال الألفاظ والتراكيب في غير ما وضعت له لأغراض بلاغية كتوضيح المعنى والمبالغة في تقريره والإيِّبانه عنه، أو الإشارة إليه في قليل من اللفظ، أو عرضه في صورة جذابة... وهلم جرا. ويبدو هذا الاستعمال في عدة مظاهر يرجع أهمها إلى الأبواب الأربعة المدونة في عنوان هذه الفقرة.

١ — فيستخدم اللفظ أحياناً في غير ما وضع له لتشبيه أمر بأمر في صفة ما. ويسمى هذا « مجازاً بالاستعارة ». وهو استعارة « تصريحية » إن كانت في الاسم وذكر المشبه به مثل « يخرجهم من الظلمات إلى النور »، و « مكنية » إن حذف المشبه به ورمز إليه بخاصة من خواصه مثل « يغمر كرمه المعوزين »، و « تبعية » إن كانت في غير الاسم مثل « يلتهم العلم التهاماً ».

ويستخدم اللفظ أحياناً في غير ما وضع له لعلاقة أخرى غير المشابهة بين المعنيين كالعلاقة السببية والمسببية والمجاورة والسككية والجزئية واعتبار ما كان عليه الشيء أو ما يؤول إليه... وهلم جرا؛ ويسمى هذا « مجازاً مرسلًا »، نحو « له على يد » أي

(١) انظر الفصل السابع بكتابنا « علم اللغة ».

(٢) انظر في موضوع التضاد كلمة المرحوم محمد الحُضري بك في كتابه الأصول صفحتي ١٧٤، ١٧٥؛ والمحاضرة التي ألقاها في مؤتمر اللغة والآداب العربية الذي انعقد في تونس عام ١٣٥٠ هـ السيد محمد طاهر ابن عاشور شيخ الإسلام المالكي بالديار التونسية (نشرت في الجزئين ٦، ٧ من المجلد السادس لمجلة الهداية التي تصدر في القاهرة، عامي ١٣٥٢، ١٣٥٣ هـ)؛ وكلمة نفيسة للأستاذ الدكتور منصور فهمي بك مدير دار الكتب الملكية وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية (نشرها بالجزء الثاني من مجلة المجمع صفحات ٢٢٨ — ٢٤٤). ومن أشهر من كتب في هذا الموضوع من المستشرقين العلامة الألماني « ردا سلوب » الذي ألف رسالة نشرها عام ١٨٧٣ في جوتنجن بعنوان

Th. M. Redslob : Die Arabischen Wörter mit en tgegengesetzten Bedeutungen، والعلامة فردريك جيز F. Giese الذي كتب بحثاً في الأضداد، جمع فيه ماورد من ألفاظ الأضداد في الشعر الجاهلي، وعنوانه Untersuchungen über die Addâd auf grund von Stellen in Altarabischen Dichtern.

نعمة سببها اليد ، و « ينزل لكم من السماء رزقا » أى مطرا يتسبب عنه الرزق ، و « إني أراى أعصر خمرا » أى عنبا يؤول إلى خمر ...

ويستخدم التركيب أحيانا فى غير ما وضع له لتشبيه حالة بحالة ، كأن تقول « رمى عصفورين بحجر واحد » قاصدا التعبير عن تحقيقه غرضين بعمل واحد ، و « هو يقدم رجلا ويؤخر أخرى » قاصدا التعبير عن تردده بين الإقدام والإحجام فى أمر ما ، و « هو ينفخ فى غير فهم ، ويخط على الماء » قاصدا التعبير عن عقم أعماله وعدم جدواها . ويسمى هذا المجاز فى عرف علماء البيان « استعارة تمثيلية » .

وقد يسند الفعل إلى غير محدثه لتحقيق لغرض بلاغى ، ويسمى هذا فى عرف علماء البيان « المجاز العقلى » ، وذلك كقولك « بنى الأمير المدينة » و « قتل القائد خمسين ألفاً من جيوش الأعداء » .

٢ - وتطلق العبارة أحيانا ويراد بها ما يترتب على مدلولها ويلزمه . ويسمى هذا « كناية » فى عرف علماء البيان ، وذلك كقولك فى الكناية عن الرقة وشدة التأثير : « مس الحرير يدمى بسانه » ، وعن الترف : « نؤوم الضحى » ، وعن السكرم : « الين يتبع ظله » ، وعن العظمة : « المجد يمشى فى ركابه » ، وعن الفاقة : و « يفترش الغبراء ويلتحف السماء » ، وعن الندم : « يقلب كفيه » (١) .

٣ - وقد يغلب استعمال اللفظ فى غير ما وضع له على طريق من الطرق السابقة حتى ينسلخ عن معناه الأصيل أو يكاد ، ولا ينصرف الذهن عند إطلاقه إلا إلى هذا المعنى الجديد . ويطلق علماء البيان على هذه الظاهرة اسم « النقل » . ويبدو النقل فى العربية فى عدة صور أهمها الصور الأربع الآتية :

(أ) أن يغلب استعمال اللفظ فى معنى على سبيل المجاز لعلاقة المشابهة أو غيرها حتى يصير المعنى المجازى هو الذى ينساق إليه الذهن عند إطلاق اللفظ . وذلك ككلمة « الفصاحة » . فإن معناها الأصيل صفاء اللب وذهاب رغوته ، ثم شاع استعمالها فى صفاء القول وحسن بيانه لعلاقة المشابهة بين المعنيين ، حتى أصبح المعنى المجازى هو المتبادر من اللفظ عند إطلاقه .

(ب) أن يغلب استعمال اللفظ الموضوع فى الأصل لمعنى كلى يتناول عدة جزئيات فى جزئى خاص من هذه الجزئيات ، حتى يصير هذا المعنى الجزئى هو المتبادر منه عند

(١) انظر تفاصيل الأمور السابقة جميعها فى مؤلفات علم البيان .

الإطلاق؛ وذلك ككلمة « الرث » : فإن معناها الأصلية الخسيس من كل شيء ، ثم غلب استعمالها في الخسيس مما يلبس ويفرش ، حتى أصبح هذا المعنى وحده هو الذى ينساق إليه عند إطلاق اللفظ (١) .

(ح) أن يغلب استعمال اللفظ الدال على معنى خاص فى مدلول عام على طريق التوسع ، حتى يصير هذا المعنى العام هو المتبادر من اللفظ عند إطلاقه ؛ وذلك كلفظ « البأس » : فإن معناه الأصلية الحرب ، ثم غلب استعماله فى كل شدة ، حتى أصبح هذا المعنى العام هو المتبادر إلى الذهن (٢) .

(و) أن ينقل اللفظ نقلاً مقصوداً من معناه الأصلية اللغوية إلى معنى اصطلاحى علمى أو مدنى لعلاقة ما بين المعنيين ، فلا يتجه الذهن عند استخدامه فى هذه الشؤون الاصطلاحية إلى غير معناه الحديث . ومن ذلك ألفاظ الصلاة والصوم والزكاة والحج ... عند الفقهاء ؛ والفاعل والمفعول والظرف والجار والمجرور والحال والتمييز ... عند النحويين ؛ والإبدال والقلب والإعلال .. عند علماء الصرف ؛ والمقدمة والنتيجة والقضية والقياس ... عند المناطقة .

٤ - وكثيراً ما تتحول الجمل عن أبوابها الأصلية لأغراض بلاغية . فتستخدم الجمل الإخبارية فى أمور أخرى غير الإخبار كالإتماس أو الأمر نحو « تجمئنى غداً » ، أو العتاب أو التأنيب نحو « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ؛ أو التحسر أو الفخر أو المدح أو الاستترحام ... وهلم جرا . - وتتحول جمل الأمر والنهى عن أبوابها فتستخدم مثلاً فى الدعاء أو التهديد أو التعجيز ... وما إلى ذلك ؛ كقوله تعالى : « ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا » ، « اعملوا ما شئتم » ، « ايتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » . - وتتحول جمل الاستفهام عن بابها فتستخدم مثلاً فى الأمر أو التهديد أو الاستبطاء أو الإنكار أو التعجب أو التهمك أو الفخر أو المدح أو تقرير المعنى وتوكيده ... وما إلى ذلك ، كقوله تعالى : « فهل أتمم متهمون ؟ » ، « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ » و « اصطفى البنات على البنين ؟ » ؛ وكقول الشاعر : « وهل بفتى مثلى على حاله نكر ؟ » . وكقول الآخر : « أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟ »

(١) انظر ١ من الفقرة الثالثة من الفصل الثامن بكتابنا « علم اللغة » .

(٢) نفس المرجع السابق .

وتتحول الجمل الدعائية عن بابها فتستخدم للدلالة على التعجب أو زيادة التنبية أو
توكيد الكلام . . . وما إلى ذلك ، نحو « قاتله الله ما أشعره » « ومن يعيش ثمانين حولا
لا أبالك يسأم » ، « فهو لا تنمى رميته ماله لا عُدَّ من نفره » .
« هوت أمه ما بيعت الصبح غاديا وماذا يؤدى الليل حين يؤوب (١) »

وقد كان للأبواب السابقة جميعاً فضل كبير في سمو الأساليب العربية ، وشدة
تأثيرها في النفوس ، وقوة بلاغتها ، وحسن بيانها ، ومرونة تعبيرها ، ومطابقتها لمقتضيات
الأحوال ، وما وصلت إليه من مكانة منقطعة النظير في ميادين الشعر والخطابة والنثر
الفني ومختلف فروع الآداب .

وللهجاء والنقل على الأخص أثر جليل في اتساع العربية ونموها وقدرتها على التعبير
على المعقولات المحضنة ومعنويات الأمور . فبكثير من الألفاظ العربية الدالة على المعاني
الكلية والظواهر النفسية منقولة في الأصل من الأمور الحسية عن طريق المجاز ، ثم
شاع استعمالها في معانيها الجديدة حتى أصبح إطلاقها عليها من قبيل الحقيقة اللغوية .
وبفضل المجاز والنقل اتسعت اللغة العربية للعلوم والفنون على اختلاف أنواعها
وللحضارة على كثرة مظاهرها ، فمضت بالعلوم الشرعية واللغوية والطبيعية والرياضية
وعلوم النفس والاجتماع ، وصارت لسان الفلسفة والسياسة والقصص والصناعة والفن
ومختلف ضروب المعاملات : وبالجمل لم تقف أمام أى مظهر من مظاهر العلم أو الحضارة
وقفة المتعثر الحائر ، بل خاضت في مختلف مناحي القول ، وقويت على التعبير عن شتى
مظاهر التفكير .

هذا ، وقد اختلف العلماء في شأن المجاز ومبلغ وروده في اللغة العربية . فذهب فريق
على رأسه أبو إسحاق الأسفرايني إلى إنكاره بالمعنى الذى شرحناه ، وزعم أن العرب
قد وضعت الألفاظ لمختلف المعانى التى استخدمت فيها ، سواء فى ذلك المعانى التى نسميها
حقيقية والمعانى التى نسميها مجازية . فالعرب فى نظر هؤلاء قد وضعت كلمة « الأسد »
للحيوان المفترس وللرجل الشجاع ، ووضعت كلمة « الغيث » للنبات كما وضعتها للطر .
وحجة هذا المذهب أن المجاز تجوز باللفظ عن وضعه الأصيل إلى غيره ، وهذا يستدعى

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتب « علم المعانى » فقد جرت العادة بالكلام عنه فى هذا العلم ، مع
أنه بموضوعات علم البيان ألصق .

منقولاً عنه متقدماً ومنقولاً إليه متأخراً . وليس في لغة العرب تقديم وتأخير ؛ بل إن العرب قد نطقت في كل زمان ومكان بالحقيقة كما نطقت بالمجاز . . . فجعل أحد المعاني حقيقة والآخر مجازاً ضرب من التحكم^(١) . — وهذا المذهب ظاهر الفساد ؛ وقد بلغ دليله في الوهن والمغالطة درجة لا يستحق معها عناء المناقشة^(٢) .

وذهب فريق آخر ، على رأسه ابن جنى ، إلى أن التجوز هو الغالب في اللغة العربية . وقد لجأ هذا الفريق إلى التعسف في تأييد مذهبه ، فعمد إلى كثير من التراكيب العربية الواردة عن طريق الحقيقة واحتمال في تأويلها على صورة متكلفة تجعلها من قبيل المجاز وإليك مثلاً مما وصل إليه ابن جنى في هذا السبيل إذ يقول : « إعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة ، ألا ترى أن نحو « قام زيد » معناه كان منه هذا القيام ، أى هذا الجنس من الفعل . ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام . وكيف يكون ذلك وهو جنس ، والجنس يطلق على جميع الماضي وجميع الحاضر وجميع الآتى من كل من وجد منه القيام . ومعلوم أنه لا يجتمع لإنسان واحد في وقت واحد ولا في أوقات القيام كله الداخل تحت الوهم : هذا محال . فحينئذ « قام زيد » مجاز لا حقيقة على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيهه القليل بالكثير . . . ومن ذلك أيضاً قولك : « خرجت فإذا الأسد » . ذلك أنك لا تريد أنك خرجت وجميع الأسد التي يتناولها الوهم على الباب : هذا محال . وإنما أردت فإذا واحد من هذا الجنس على الباب ، فوضعت لفظ الجماعة على الواحد مجازاً . . . ومن ذلك أيضاً « جاء الليل » و« انصرم النهار » وكذلك « ضربت زيدا » لأن المضروب بعضه لا جميعه . . . »^(٣) . — ولا يقل هذا المذهب فساداً عن المذهب السابق ؛ والحجج التي اعتمد عليها أنصاره في تأييده والتي تقدم لك مثال منها ، تحمل هي نفسها دليل تعسفه وبطلانه .

والحق أن المجاز بالمعنى الذى شرحناه قد كثر وروده في اللغة العربية ، خلافاً لما يزعمه الفريق الأول ، وأن العرب قد توسعوا فيه ، وخاصة في الشعر والنثر الفنى والخطابة وفي لغة الآداب على العموم . ولكن من التعسف المبالغة في مبلغ وروده ومحاولة إدخال معظم التراكيب العربية في باب المجاز كما فعل الفريق الثانى .

(١) نقلاً عن المزهري للسيوطي جزء أول صفحتي ١٧٤ ، ١٧٥ مع بعض تصرف في العبارة .

(٢) عني بالرد عليه — مع أنه لا يستحق عناء ذلك — السيوطي في مظهره . انظر الجزء الأول

ص ١٧٤ وتوابعها .

(٣) نقلاً عن المزهري للسيوطي الجزء الأول صفحتي ١٧٠ ، ١٧١ .



وقد اختلف العلماء كذلك في قياسية المجاز والنقل . فبعضهم بالغ في تضيق الدائرة ، فلم يبح استعمال لفظ في معنى مجازي إلا إذا كان العرب قد استعملوه في هذا المعنى . فبمقتضى هذا المذهب لا يجوز لنا نقل لفظ من معناه الأصلي إلى معنى مجازي لم ينقله إليه العرب ، وإن كان بين المعنيين علاقة من تلك العلاقات المقررة في علم البيان . فلا يجوز أن نستعير لفظ « الغضنفر » مثلاً للرجل الشجاع إلا إذا ثبت أن العرب استعاروه له كما استعاروا له لفظ « الأسد » .

ولا يخفى ما في هذا المذهب من فساد ، وما يترتب على الأخذ به من تضيق لمجال القول ، وإيصاد لمناحي البيان ، وقضاء على العربية بالجمود والعجز عن التعبير عما يجد في شؤون الحضارة والاجتماع والعلوم والفنون .

ومعظم العلماء يرى قياسية المجاز والنقل . فيبيح استعمال اللفظ في غير ما وضع له على طريق المجاز ، أو نقله من معناه الأصلي إلى معنى اصطلاحى متى تحقق بين المعنيين علاقة من العلاقات المقررة في علم البيان والتي جرت عادة العرب أن يعتمدوا عليها في تعبيرهم المجازي .

وعلى هذا المنهج سار القدامى من العلماء والأدباء ، وتابعهم المحدثون في مختلف العصور وشتى الأمم الناطقة بالضاد . وبفضل هذا المنهج اتسع فن البيان العربى ، وأحرزت اللغة ثروة كبيرة ، واتسعت للعلوم والفنون ومختلف مظاهر الحضارة كما سبق بيان ذلك (١) .

ويزيد هذا المذهب تأييداً ما يسلكه أئمة اللغة فيما جمعوه من المعجمات . « فإنهم يقصدون في كتبهم لبيان المعانى الحقيقية . ولو كان استعمال اللفظ على سبيل المجاز موقوفاً على النقل لدعاهم الاحتفاظ بهذا الفن من البيان أن يلتزموا ، بعد بيان المعانى الحقيقية ، ذكر المعانى التى استعمل فيها العرب اللفظ على وجه المجاز ؛ وما رأيناهم يفعلون . ولا يقصد الزمخشري بتعرضه في كتاب « أساس البلاغة » للمعانى المجازية بعد الحقيقية أن يقصر المجاز على تلك الألفاظ ، ولا أن يحجر على الناس التصرف في تلك الألفاظ بنقلها إلى معان لم ينقلها إليها العرب ؛ وإنما قصده التنبيه على جانب عظيم من أساليب البلغاء وتصرفاتهم في المعانى ليقتندى بها الناشئون (٢) » .

(١) انظر ص ١٦٨ .

(٢) من مقال للأستاذ الخضر حسين بالجزء الأول من مجلة المجمع اللغوى ص ٢٩٥ .

غير أن صحة استعمال اللفظ في غير ما وضع له لا تتوقف على وجود العلاقة فحسب ، بل تتوقف كذلك على توافر الشروط التي يشترطها علماء البيان بصدد هذه العلاقة إن كانت لهم شروط بصدها . فهم لا يكتفون مثلاً « في إطلاق اسم الشيء على ضده بعلاقة التضاد حتى يفيد معنى لطيفاً ، كالتهميم في تسمية قبيح المنظر قرأ ، أو التفاؤل كتسمية الصحراء مفازة ، أو اللسيح سليماً . ولا يجوزون تسمية الشيء باسم ما كان له ثم انقطع حتى صار الشيء متلبساً بضد ما كان عليه ، كمن صار إلى الشيخوخة ، ليس لك أن تطلق عليه اسم الطفل مراعيّاً علاقة أنه كان طفلاً . فإن سميته طفلاً لصغر عقله أو قلة تجاربه ، فقد خرجت من علاقة التضاد إلى علاقة المشابهة . ولا يكتفون في إطلاق الجزء على الكل بعلاقة الجزئية ، حتى يكون للجزء مزيد اختصاص بالمعنى الذي يقصد من الكل ، نحو « عين » تستعمل في الجاسوس ، لأن للعين مزيد اختصاص بحرفة التجسس (١) .

وللذوق السليم كذلك « مدخل في الحكم على بعض الاستعمال المجازي بالرد أو القبول . فإطلاق الحلواء على البنين لا يخلو من علاقة المشابهة ، ولكن الذوق يمجّه كما يمج استعارة ماء الملام (٢) .

هذا ، وقد كثر استخدام العرب لبعض المفردات في غير ما وضعت له ، فاشتبه أمرها على كثير من جامعي المجمعات ، فعدوا بعض المعاني المجازية من قبيل الحقائق اللغوية ، ولم يعن بالترفة بين معاني الكلمة الحقيقية ومعانيها المجازية إلا عدد قليل ، من أشهرهم الزمخشري في كتابه « الأساس (٣) » .

(١) انظر المرجع السابق صفحتي ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٦ . وقد استخدم المجاز الأول المتنبي في قوله :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل
واستخدم المجاز الثاني أبو تمام في قوله .

لا تسقني ماء الملام فأنني صب قد استعذبت ماء بكائي

(٣) انظر في موضوع المجاز والنقل والكنابة الجزء الأول من مجلة المجمع اللغوي صفحات ٢٩١

— ٣٠٣ ، والصاحبي لابن فارس ١٦٧ — ١٧٠ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ؛ والمزهر للسيوطي الجزء الأول ١٦٩ — ١٧٧ ، ٢٠٤ — ٢٠٩ .

(٢٧) أساليب اللغة العربية

واختلافها باختلاف الموضوعات ، الخيال في العربية ومادته

تسير أساليب اللغة وفقاً لقواعد كثيرة يرجع أهمها إلى ثلاث طوائف :
إحداها القواعد المتعلقة باستخدام المفردات والتراكيب في معانيها الأصلية
والخروج بها عن هذه المعاني ؛ وهي القواعد التي يسير عليها الأسلوب العربي بصدده
الحقيقة والتشبيه والمجاز والكناية والنقل ... وما إلى ذلك . ولشرح هذه النواحي
ومواطن استخدام كل منها وشروطه أنشئ علم خاص هو « علم البيان » . وقد عرضنا
لمسائله في الفقرة السابقة بالقدر الذي يتصل بموضوع هذا الكتاب .

وثانيها القواعد المتعلقة بمطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال ؛ وهي القواعد التي
يسير عليها الأسلوب العربي بصدده تأكيد الكلام وإطلاقة ، والإطناب في القول
والإيجاز فيه ومساواته لما يراد التعبير عنه ، وطرق استخدام الجمل الإخبارية والإنشائية ،
وفصل الجمل بعضها عن بعض أو وصلها ، وقصر الحكم وتخصيصه ، وذكر جميع عناصر
العبارة وحذف بعضها ، وتقديم بعض هذه العناصر على بعض ، وتعريفها وتكثيرها ...
وهلم جرا . ولشرح هذه القواعد وأسباب تحقيقها لبلاغة الكلام ومطابقته لمقتضى
الحال أنشئ علم خاص هو « علم المعاني » .

وثالثها القواعد المتعلقة بما تتضمنه العبارات العربية أحياناً من محسنات لفظية
ومعنوية لا تتصل باستخدام الألفاظ والجمل فيما وضعت له وفي غير ما وضعت له
ولا تتوقف عليها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ؛ وذلك كالقواعد الخاصة بالجناس
والمقابلة والتورية والطباق وحسن التعليل وتوكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه وتجاهل
العارف .. وهلم جرا . ولشرح هذه القواعد ومواطن استخدامها ووجوه تجميلها للعبارة
أنشئ علم خاص هو « علم البديع ^(١) » .

وإن إلمامه بهذه الطوائف من القواعد لكافية في الدلالة على سمو الأساليب العربية ،
ودقتها في الإفادة ، ومرونتها في التعبير ، وحرصها على جمال اللفظ وبلاغة القول ،
وتوخيلها الوصول إلى الغرض عن أقرب الطرق ، وأوضحها بياناً ، وأشدّها أثراً في
النفوس ، وأكثرها ملاءمة لمقتضيات الأحوال .

(١) يذهب فريق من العلماء إلى أن المحسنات البديعية يتصل بعضها بموضوع علم البيان ، وبعضها
الآخر بموضوع علم المعاني ، ولذلك رأى عدم الحاجة إلى علم البديع وتوزيع موضوعاته بين هذين العلمين .

هذا، وتختلف الأساليب العربية تبعاً لاختلاف فنون القول وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ، النثر الأدبي ، الرسائل ، الخطابة ، القصة ، التاريخ ، القانون ، تدوين العلوم ... الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه في طبيعته وموضوعاته وأغراضه البيانية ، وخطته في الاستدلال ، وصلته بمناحي الإدراك والوجدان ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يخترعونه من اصطلاحات ، وينشئونه من مناهج ، ويقتبسونه من اللغات الأخرى من طرق وأفكار ... وهلم جرا . وغنى عن البيان أن الاختلاف في هذه الأمور وما إليها يؤدي حتماً إلى اختلاف كل فن من هذه الفنون عما عداه في أساليبه . وقد اتسعت في اللغة العربية مسافة الخلف بين هذه الفنون ، وخاصة في العصور الحديثة ، حتى تميزت أساليب كل منها تميزاً واضحاً عن أساليب ما عداه : فبمجرد سماع عبارة عربية يستطيع بسهولة ، على ضوء أسلوبها ، معرفة الفن الذي تتصل به ، والحكم عليها إن كانت شعراً أم خطابة أم رسالة أم مقالا صحفياً أم بحثاً علمياً ... إلى غير ذلك .

ومن أهم هذه الفنون ما يسمونه « فنون الأدب » وهي فنون الشعر والنثر الفني والرسائل والقصة والخطابة وما إلى ذلك . وتمتاز هذه الفنون عما عداها بأن ما يتخذها غيرها مجرد وسيلة تتخذها هي من أهم غاياتها ، وتوجه نحوه أكبر قسط من العناية ، ففي جميع الشعب الأخرى (العلوم ، الفلسفة ، التاريخ ...) يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما في هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضاً في ذاته ويوجه إلى تجويده أكبر قسط من المجهود . فأهم ما يقام له وزن في « فنون الأدب » هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، وبلاغة التعبير .

وتنقسم « فنون الأدب » نفسها أقساماً كثيرة ، أهمها الشعر وملحقاته ، والنثر الفني والرسائل ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن إخوته في طبيعته وموضوعاته ، وأغراضه ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والإدراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما ناله على أيديهم من تطوير وتجديد . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها أساليبه الخاصة ، وميزاته اللغوية ، وخصائصه في النظم والوزن ، والتأليف والموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل ، وطريقة الاستدلال ، وعرض الحقائق .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن إخوته أنه يتجه أولاً بالذات إلى مخاطبة الوجدان

والعواطف لا الإدراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسي هو الإيحاء بالحقائق والإحساسات ، لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان . ولذلك يسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر في عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات في غير ما وضعت له عن طريق المجاز والكنائية ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق ، وكره التعمق في الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات في أوزان خاصة فليس شرطاً أساسياً في الشعر : فإذا توافرت الصفات السابقة في كلام منشور اعتبر شعراً في الاصطلاح الأدبي ؛ وإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق في توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الإيحاء والتأثير ، فإنه لا يعد شعراً على الرغم من أوزانه وقوافيه .

هذا ، وما تقدم في هذه الفقرة وفي الفقرة السابقة يتبين مبلغ انتفاع الأساليب العربية بالخيال ، ومدى استخدامه في مختلف الموضوعات ، وأثره في دلالة الألفاظ . أما مادة هذا الخيال ، أى المعين الذى تقتبس منه عناصره ، فقد اختلفت باختلاف البيئات والأمم والعصور: فتأثرت في كل بيئة بمقوماتها الطبيعية والاجتماعية ، وما تشتمل عليه من شؤون ، وتوحى به من اتجاهات ؛ وفي كل أمة بنظمها الخاصة ، وأساليب حياتها ، وما وصلت إليه في سلم الارتقاء المادى والمعنوى ؛ وفي كل عصر بنزعاته العامة ، ودرجة حضارته ، وما جرى فيه من أحداث ... كما ترى ذلك مفصلاً في كتب « أدب اللغة العربية » و « تاريخ الأدب العربى » .

❖ (٢٨) الدخيل فى اللغة العربية : العرب والأعجمى والمولد

يراد بالدخيل ما دخل اللغة العربية من مفردات أجنبية ، سواء فى ذلك ما استعمله العرب الفصحاء فى جاهليتهم وإسلامهم ، وما استعمله من جاء بعدهم من المولدين . وقد اصطلاح المحدثون من الباحثين على أن العرب الفصحاء هم عرب البدو من جزيرة العرب إلى أواسط القرن الرابع الهجرى وعرب الأمصار إلى نهاية القرن الثانى الهجرى (ويسمون هذه العصور « بعصور الاحتجاج » كما سبقت الإشارة إلى ذلك)^(١) ، وأن المولدين هم من عدا هؤلاء ولو كانوا من أصول عربية . ويطلق على القسم الأول من الدخيل ، وهو ما استعمله فصحاء العرب اسم « المعرب » ؛ وعلى القسم الثانى منه ،

وهو ما استعمله المولدون من ألفاظ أعجمية لم يعربها فصحاء العرب اسم « الأعجمي المولد » .

والعامل الرئيسى فى دخول هذه المفردات يرجع إلى ما أتىح للشعوب الناطقة بالعربية من قبل الإسلام ومن بعده من فرص للاحتكاك المادى والثقافى والسياسى بالشعوب الأخرى ، وما نجم عن هذا الاحتكاك وعن التطور الطبيعى للحضارة العربية من ظهور مستحدثات لم يكن للعرب ولا للغتهم عهد بها من قبل فى ميادين الاقتصاد والصناعة والزراعة والتجارة والعلوم والفلسفة والآداب والدين ومختلف مناحى السياسة والاجتماع (١) .

فقد توثقت العلاقات المادية والسياسية منذ أقدم العصور بين العرب وجيرانهم الآراميين فى الشمال عن طريق التجارة والهجرة والرحلات وامتزاج بعض قبائل أرامية بالعالم العربى فى الحجاز نفسه أو على تخومه . وكان من آثار ذلك أن انتقل إلى اللغة العربية كثير من مفردات اللغة الآرامية ، وخاصة المفردات المتصلة بمظاهر الحياة الحضرية وما إليها من الأمور التى لم تكن مألوقة فى البيئة العربية الأولى ، والألفاظ المتعلقة بمنتجات الصناعة وشئون التفكير الفلسفى وما وراء الطبيعة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك (٢) .

ولم يكن ما أتىح للعرب من فرص للاحتكاك بجيرانهم الآراميين فى الشمال شيئاً مذكوراً بجانب ما أتىح لهم من فرص للاحتكاك بجيرانهم اليمنيين فى الجنوب . فقد كانت العلاقات الثقافية والاقتصادية والدينية على أقوى ما يكون بين الشعبين . وقد هاجر فضلاً عن ذلك ، إلى بلاد العرب ، منذ عصور سحيقة فى القدم ، كثير من القبائل اليمنية ، وخاصة قبائل معين وخزاعة والأوس والخزرج ، وتألفت منهم هناك جاليات قوية امتزجت بالعرب كل الامتزاج . وكانت الرحلات العربية إلى بلاد اليمن للتجارة وغيرها لا يكاد يخلو منها . فصل من فصول السنة . ومع أن هذا الاحتكاك قد انتهى بتغلب العربية على اليمنية ، فقد انتقل فى أثناءه إلى اللغة الغالبة كثير من مفردات اللغة المغلوبة (٣) .

(١) انظر النواميس العامة التى يخضع لها انتقال المفردات من لغة إلى لغة بالفقرة الثانية من الفصل

السادس بكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر ص ٩٧ وتوابعها .

(٣) انظر ص ٩٨ .

وقد نشأ بين الأحباش والعرب ، وخاصة عرب اليمن في الجنوب ، منذ أقدم العصور روابط وثيقة في ميادين السياسة والثقافة والاقتصاد ، وأتيح للشعبيين ولغتيهما مجال واسع للاحتكاك والتبادل الثقافي . فانتقل عن هذا الطريق كذلك إلى اللغة العربية عدد غير يسير من مفردات اللغة الحبشية .

ثم أدت الفتوح العربية بعد الإسلام إلى احتكاك العرب وامتزاجهم بكثير من الشعوب التي لم يتصلوا بها من قبل أو كان اتصالهم بها ضيق النطاق محدود الآثار . وقد نجم عن هذا الاحتكاك وعن التطور الطبيعي للحضارة العربية أن ظهرت مستحدثات كثيرة لم يكن للعرب عهد بها من قبل في ميادين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والإنتاج الفكري . فانتقل من جراء ذلك إلى اللغة العربية وإلى اللغات العامية المنتشرة منها عدد كبير من مفردات اللغات الفارسية والسريانية واليونانية والتركية والكردية والقبطية والبربرية والقوطية . وقد ظهرت آثار اللغات الثلاثة الأولى في ألسنة فصحاء العرب أنفسهم في العصور التي اصطلاح على تسميتها « بعصور الاحتجاج » ، وكان أظهرها أثراً الفارسية فالسريانية ، وأقلها أثراً اللغة اليونانية ، إذ لم ينتقل منها إلى العربية بشكل مباشر في هذه العصور إلا قليل من المفردات ، وإن كان قد انتقل إليها كثير منها عن طريق اللغة السريانية (انجيل ، اسطوانة ، أسقف ، ناموس ، اسفنج ... الخ) . أما اللغات الخمس الأخيرة فلم تؤكد تطهر آثارها بصورة واضحة إلا في لغات المولدين وفي اللهجات العامية المنشعبة عن العربية في العراق والشام ومصر وبلاد المغرب .

وقد أتيح للغة العربية ولهجاتها العامية في أثناء الحروب الصليبية فرص للاحتكاك باللغات الأوروبية الحديثة . فانتقل إليها على أثر ذلك بعض مفردات من هذه اللغات . وفي العصور الحاضرة كثرت فرص هذا الاحتكاك وتنوعت أسبابه تبعاً لتوثق الروابط الاقتصادية والسياسية والثقافية بين شعوب أوروبا والأمم الناطقة بالعربية ، وتبادل البعثات العلمية ، وكثرة عدد الجاليات الأوروبية في الشرق ، وترجمة منتجات الفرنجة إلى اللغة العربية . فانتقل من جراء ذلك إلى لغة الكتابة العربية وإلى اللهجات العامية مجموعة كبيرة من مفردات اللغات الأوروبية في شؤون السياسية والاجتماع ومنتجات الصناعة ومصطلحات العلوم والفنون ... وما إلى ذلك .

هذا ، وكثير من الكلمات الأعجمية التي دخلت اللغة العربية يوجد لها نظائر في

مفردات هذه اللغة أو يمكن أن يشتق لها نظائر من مفرداتها . وقد كثير دخول هذا النوع من الكلمات في اللغة العربية عندما توغل الباحثون في ترجمة العلوم اليونانية والهندية ، وكان الفصحاء قد انقرضوا من الأمصار ، وتولى الترجمة بعض مستعربة الأعاجم ممن لم تستحكم مرثمتهم في العربية ، فعجزوا عن ترجمة بعض الألفاظ الأعجمية مع وجود مرادف لها في العربية ، ودونوا من أسماء الحيوان والنبات ما لا تعرفه العرب بأسمائها الأعجمية ، واستعمل فلاسفة الإسلام وأطبائهم هذه الألفاظ ، وخاصة من كان منهم من سلالات أعجمية كالفارابي والرازي وابن سينا .

غير أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على الألفاظ المولدة ، بل تتحقق كذلك في بعض المفردات الأعجمية التي استعملها فصحاء العرب أنفسهم في جاهليتهم وإسلامهم . فقد جرى على ألسنتهم كلمات أعجمية كثيرة لم تدع إليها حاجة ماسة لوجود نظائرها في لغتهم ، وإنما دعت إليها عوامل الاحتكاك اللغوي .

وبعض هذه المفردات المعربة أخذ يتغاب على مرادفه العربي شيئاً فشيئاً حتى قذف به في زوايا النسيان . فمن ذلك مثلاً ألفاظ الورد والرجس والياسمين والمسك والتوت والبادنجان والكوسج والهون والطاجن والإبريق والديدبان والرصاص والميزاب واللوبياء والسكر والفانلوج . فقد قضت هذه الألفاظ أو كادت تقضى على نظائرها العربية وهي الحَوْجَم والعَبهر والسَمسِق والمشوم والفرصاد والحدج والإيْط والمهراس (أو المِنْجَار) والمقلّي والتامورة والعين والصرْفان والمَشْعَب والدَّجْر والمِشْبَرْت والسرطراط (١) . ولعل اتصال هذه المفردات وما إليها بأمور اختص بها الأعاجم ، أو برزوا فيها ، أو امتازوا بإنتاجها وكثرة استخدامها ، أو كان ارتباطها بمظاهر حضارتهم أو ثق من ارتباطها بمظاهر الحضارة العربية . . . لعل ذلك وما إليه كان له بعض الأثر في انتقال هذه المفردات إلى ألسنة العرب وتغلّبها على نظائرها في لغتهم ، ولعل خفة بعضها وثقل نظائرها العربية على اللسان كان لهما كذلك شيء من الأثر في انتقالها وتغلّبها .

على حين أن بعضها — على عكس ذلك — قد ضعف عن منافسة مرادفه العربي فقل استعماله ، فمن ذلك مثلاً ألفاظ البوصى والجردقة والقيروان والسجنجل والمَوْزَج والقومس . فقد قل استعمال هذه المفردات لضعفها عن منافسة نظائرها العربية وهي السفينة والرغيف والجماعة من الخيل والمرأة والخلف والأمير .

(١) انظر الجزء الأول من مجلة الجمع اللغوي ٣٢٦ ، ٣٢٧ والجزء الأول من المزهري للسيوطي

* * *

ومن المقرر أن الكلمات المقتبسة تخضع للأساليب الصوتية في اللغة التي اقتبستها، فتتشكل في الصورة التي تتفق مع هذه الأساليب، وينالها من جراء ذلك بعض التحريف في أصواتها وأوزانها وطريقة نطقها، وتبعد في جميع هذه النواحي أو في بعضها عن صورتها الأولى (١). وهذا هو ما حدث للكلمات التي اقتبستها العربية في مختلف عصورها عن اللغات الأخرى.

وباستقراء مظاهر التحريف التي لحقت الكلمات الأعجمية المعربة (أى التي جرت على ألسنة الفصحاء من العرب في عصور الاحتجاج) يتبين أنها ترجع إلى نوعين: تحريف في الأصوات، وتحريف في الأوزان.

أما التحريف في الأصوات فيمكن يحدث تارة بزيادة أصوات ساكنة أو لينة (أصوات مد طويلة أو قصيرة) لم تكن في بنية الكلمة الأعجمية؛ وتارة بحذف أصوات من بنيتها؛ وتارة باستبدال أصوات ببعض أصواتها الأصلية؛ وكثيراً ما كان ينال الكلمة الواحدة جميع هذه التغيرات أو معظمها. — والأصوات الساكنة التي كان يستبدل غيرها بها كانت في الغالب من الأصوات التي لا توجد في اللغة العربية. ففي معظم الكلمات استبدل بالأصوات التي من هذا النوع أصوات عربية قريبة منها في المخرج؛ وفي كلمات قليلة استبدل بها أصوات بعيدة عنها في المخرج. فالصوت الذي بين الجيم والكاف مثلاً g استبدل به أحياناً صوت الجيم العربية، وأحياناً صوت الكاف، وأحياناً صوت القاف: الكريج أو القريج أو القربق (وهو الحانوت)؛ والصوت الذي بين الفاء والباء v استبدل به أحياناً صوت الفاء وأحياناً صوت الباء: فرند السيف أو برنده. — وبعض الكلمات الأعجمية نالها هذا الإبدال بدون ضرورة صوتية تدعو إليه. فمن ذلك مثلاً أصوات اللين الطويلة (الالف والياء والواو) والقصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) التي استبدل بعضها ببعض في كثير من الكلمات المعربة. ومن ذلك أيضاً بعض الأصوات الساكنة كصوت الشين الذي استبدل به السين في مثل إسماعيل وسراويل ودست ونيسابور (٢)؛ وصوت الهاء الذي استبدل به الجيم في مثل كوسج (٣) (وهو الذي لا شعر على عارضيه). ولعل وقوع الهاء في مثل الكلمة

(١) انظر شرح هذا القانون في الفقرة الثانية من الفصل السادس بكتابنا «علم اللغة».

(٢) أصل هذه الكلمات إسمائيل وسراويل ودشت ونيسابور.

(٣) وأصلها «كوسه».

الآخيرة في موضع لم تألف العربية وضعها فيه (آخر الكلمة) هو الذي عرضها لهذا الإبدال (١).

وأما التحريف في الأوزان فكان نتيجة للتحريف في الأصوات . وذلك أن زيادة أصوات على الكلمة أو حذف بعض أصواتها الأصلية ، أو تغيير بعض أصواتها اللينة (الحركات أو حروف المد الطويلة) بأصوات لينة أخرى ، كل ذلك يؤدي لاحالة إلى انحراف وزنها عن وضعه القديم . وقد أدى هذا الانحراف بكثير من الكلمات العربية أن أصبحت أوزانها على غرار الأوزان العربية ؛ وذلك مثل كلمات درهم وبهرج ودينار وديباج وجورب ؛ فقد أصبحت بفضل ما دخلها من التغيير على أوزان كلمات عربية مثل هجرع (وهو الأحق) وسهلب (الرجل الطويل) وديماس (وهو الحمام) وجهنور (وهو الفرس الذي ليس بغليظ الصوت ولا أغنه) . وبعض الكلمات المعربة ظلت أوزانها عربية عن الأوزان العربية ، إما لأنه لم يدخلها تغيير في هذه الناحية ، وإما لأن ما دخلها من التغيير لم يصل بها إلى حدود هذه الأوزان : خراسان ، آجر... الخ.

وكثير من الكلمات الدخيلة قد تغير كذلك مدلوله في العربية عما كان عليه في لغته الأولى . فبعضها قد خصص معناه العام وقصر في العربية على بعض ما كان يدل عليه (٢) ؛ وبعضها عمم مدلوله الخاص فأطلق على أكثر مما كان يدل عليه ، وبعضها استعمل في غير ما وضع له لعلاقة ما بين المعنيين ؛ وبعضها انحط إلى درجة وضعية في الاستعمال فأصبح من فحش الكلام وهجره مع أنه ما كان يستعمل في لغته الأصلية على هذا الوجه ؛ وبعضها سما إلى منزلة راقية فأصبح من نبيل القول ومصطفاه .

وقد عني علماء اللغة بتمييز الكلمات الدخيلة وحصرها ، وألف بعضهم في ذلك مؤلفات على حدة (٣) . ويظهر مما كتبوه بهذا الصدد أن الكلمات المعربة ، وهي التي

(١) يندر وجود الأسماء العربية المنتهية بهاء ، ويلاحظ أن التاء المربوطة ترمز إلى صوت آخر غير صوت الهاء وإن كان يوقف عليها بالهاء .

(٢) من ذلك مثلا « الجون » فإن معناه في الفارسية اللون على العموم ، ولكنه قصر في العربية على الأبيض والأسود .

(٣) انظر في ذلك مثلا شهاب الدين الخفاجي : « شفاء العليل فيما ورد في كلام العرب من الدخيل » ؛ وأبا منصور الجواليقي : « العرب من الكلام الأعجمي » .

استعملها الفصحاء من العرب لا تعدو نحو ألف كلمة (١).

ووضع بعضهم علامات عامة يتميز بها كثير من الكلمات الدخيلة . ومن هذه العلامات أن تكون الكلمة مخالفة للأوزان العربية (إبريسم ، خراسان ، آمين ، جبريل ...) ؛ وأن تكون فاؤها نوناً وعينها راء (نرجس ، نرد ، نرجيل ، نورج ...) ؛ وأن تنتهي بدال فزاي (مهندز وقد قلبت زاياه سيناً في تعريبها) ؛ وأن تشتمل على الجيم والصاد (حص ، صنج ، صولجان ...) أو على الجيم والقاف (المنجنيق ، الجوقه ، الجوالق وهي وعاء ، الجرذقة وهي اسم للرجيف ، الجرموق وهو مايلبس فوق الخف ، الجوسق وهو القصر ، جلق وهو موضع بالشام ...) ؛ وأن تكون رباعية أو خماسية مجردة من حروف الذلاقة التي يجمعها قولك « مر بنفل » (جوسق ...) .

ومن أشهر المفردات التي انتقلت من الفارسية إلى العربية في عصور الاحتجاج أسماء بعض الآنية والمعادن والأحجار الكريمة وألوان الخبز والطهى والأفاوية والرياحين والطيب والمنتجات الزراعية والصناعية والشئون الحربية التي اشتهر بها الفرس : مثل الكوز والإبريق والطشت أو الطست والخوان والطبق والقصة والسُّكَّرَجَة ... (من أسماء الآنية) ؛ والسمور والخز والإبريسم والديباج والسندس والاستبرق ... (من أسماء الأقمشة) ؛ والياقوت والفيروزج والبلشور ... (من أسماء الجواهر) ؛ والسמיד والكعك والجردق ... (من ألوان الخبز) ؛ والفالوزج ... (من الحلوى) ؛ والدارصيني والفلفل والكمرويا والقرقة والزنجبيل والخلنجان ... (من الأفاوية) ؛ والنرجس والورد والبنفسج والسوسن والياسمين والجلمنار ... (من الرياحين) ؛ والمنسك والعنبر والكافور والصندل والقرنفل والجوز واللوز ... (من الطيب ومنتجات الزراعة) ؛ والدولاب والميزاب ... (من منتجات الصناعة) ؛ والخندق والعسكر (من الشئون الحربية) .

ومن أشهر ما انتقل إلى العربية في عصور الاحتجاج من اليونانية عن طريق مباشر أو عن طريق السريانية أسماء بعض آلات الرصد والجراحة وبعض مصطلحات الطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية وأسماء بعض المعادن والوظائف والمنشآت المعمارية وأدوات البناء والموازين والأمتعة ... كلقهرس (وهو أجود أنواع النحاس) والبطريق والقيطون (وهو البيت الشتوى) والقنطرة والفردوس (البستان) والقراميد (الآجر)

والقسطاس (الميزان) والقنطار والبطاقة والسجنجل (المرأة) والاسطرلاب والشقّرس والقولنج (مرضان) والترياق (دواء السموم) ... وهلم جرا .

ومن أشهر ما عرب في عصور الاحتجاج من السريانية والعبرية : اليم والطور والربانيون وطه وإبراهيم وإسماعيل وشراحيل وشرحبيل والسموعل وعاديا . . .
ومن أشهر ما عرب في عصور الاحتجاج من الحبشية : المشكاة والكفل والهرج والمنبر والأرائك (١) ..

هذا ، ولا خلاف بين العلماء في جواز استعمال المعرب ، وهو ما استعمله فصحاء العرب من كلمات دخيلة . وقد ورد كثير من الألفاظ المعربة في القرآن الكريم نفسه وفي أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام (٢) .

أما ما استخدمه المولدون في مختلف العصور وما أدخله بعض الباحثين في العصر الحاضر أو يرى إدخاله في اللغة العربية من كلمات أجنبية تتعلق بالمخترعات أو بالمصطلحات العلمية والفنية ، فقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية عدم جواز استعماله « لأن في العربية غنية عنه ، ولأن في بطون معجماتها مئات الألوف من الكلمات المهجورة ، الحسنة النغم والجرس ، الكثيرة الاشتقاق ، مما يصلح أن يوضع للمسميات الحديثة بدون حدوث اشتراك ، لأن بعضها من مراقد الإهمال والنسيان يصيرها كأنها موضوعة وضعاً جديداً » (٣) . وقد عني المجمع بتطبيق قراره هذا فوضع عدداً كبيراً من الأسماء العربية لمسميات حديثة جرت العادة باستخدام كلمات أجنبية في التعبير عنها (٤) . غير أنه قد احتاط للحالة التي قد تدعو فيها ضرورة قاهرة إلى استخدام لفظ أعجمي في الشؤون العلمية والفنية ويتعذر إيجاد لفظ عربي يحل محله ، فأجاز في هذه الحالة فقط

(١) لاستيعاب معظم الكلمات التي انتقلت إلى العربية من مختلف اللغات يرجع إلى الكتابين المذكورين في التعليق الثالث بصفحة ١٧٩ وإلى فقه اللغة للثعالبى ٣١٤ — ٣١٩ وإلى الجزء الأول من المزهر للسيوطى صفحات ١٣٠ — ١٥٢ .

(٢) مما ورد في القرآن الكريم من الفارسية : سجيل واستبرق ؛ ومن الرومية : الصراط والقسطاس والفردوس وشيطان وإبليس ؛ ومن الحبشية : أرائك وكفأين ؛ ومن السريانية والعبرية : اليم والطور والقوم وطه والربانيون . وقد وضع الشيخ همزة فتح الله رسالة خاصة في المعرب من القرآن الكريم .

(٣) انظر الاحتجاج لقرارات المجمع اللغوى لأستاذنا المغفور له الأستاذ الشيخ أحمد الإسكندري بصفحتي ٢٠١ ، ٢٠٢ من الجزء الأول من مجلة المجمع .

(٤) انظر مثلاً الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٨ — ١٣٨ وخاصة ١١١ — ١٣٨ ؛ والجزء الثاني ٦٣ — ١٩٥ ؛ والجزء الثالث ٣٥ — ١٩١ ؛ والجزء الرابع ٨ — ١٦٦ .

استخدام اللفظ الأعجمي بعد صقله بالأساليب الصوتية العربية ، وإليك نص قراره بهذا الصدد :

« يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريضهم » (١) .

وقد شرح المغفور له أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندري هذا القرار بما يفيد قصر الرخصة التي يتضمنها على حالات الضرورة التي أشرنا إليها ، حيث يقول :

« فعبارة القرار تقتضي إجازة استعمال بعض الأعجمي في فصيح الكلام ، وتقييده بلفظ « بعض » دون جنس الألفاظ يفيد أن المراد الألفاظ الفنية والعلمية التي يعجز عن إيجاد مقابل لها لا الأدبية ولا الألفاظ ذات المعاني العادية التي يتشدد بها مستعجمة زماننا من أبناء العرب » (٢) .

(٢٩) المولد في اللغة العربية

يريدون باللفظ المولد ما استعمله المولدون على غير استعمال الفصحاء من العرب . ويقصدون بفصحاء العرب عرب البدو بالجزيرة العربية إلى أواسط القرن الرابع الهجري ، وعرب الأمصار في هذه الجزيرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، وبالمولدين من عدا هؤلاء ممن نشئوا في البلاد الناطقة بالعربية .

والألفاظ المولدة على أنواع أربعة :

(النوع الأول) ما استعمله المولدون من مفردات أعجمية لم يعربها فصحاء العرب . وقد تقدم الكلام على هذا النوع وحكم استعماله في الفقرة السابقة .

(والنوع الثاني) ما نقله المولدون بطريق التجوز أو الاشتقاق من معناه الوضعي اللغوي الذي عرف به في الجاهلية وصدر الإسلام إلى معنى آخر تعورف إما بين عامة الناس أو بين خاصة منهم كالنحويين والعروصيين والفقهاء والحاسيين والمهندسين والأطباء وغيرهم .

« وهذا النقل جار على أسلوب القياس العربي . فهو عربي مبين ، وهو عمدة الصناع والمؤلفين والمترجمين وواضعي العلوم . ومنه ومن العربي الأصل تكون اللسان العربي

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع ص ٣٣ وصفحات ١٩٩ — ٢٠٢ .

(٢) الجزء الأول من مجلة المجمع ص ٢٠٢ .

الفصيح: لسان القراءة والكتابة والتعليم والإدارة»^(١)، كما شرحنا ذلك في الفقرة الخاصة بالمجاز والكنية والنقل^(٢).

(والنوع الثالث) ما حرف على السنة المولدين من مفردات اللغة العربية تحريفاً يتعلق بالأصوات أو بالدلالة أو بهما معاً، ولا يمكن تخريجه على أصل من أصول اللغة الفصيحة. وهذا ما يسمى أحياناً بالعامى، وأحياناً باللدارج.

(والنوع الرابع) ما جرى على السنة المولدين من المفردات التي ليس لها أصل معروف في اللغة العربية ولا في اللغات الأجنبية كالحنشطة والحفلة والشربة... وما إلى ذلك.

وقد أصدر مجمع فؤاد الأول للغة العربية قراراً يحظر استخدام النوعين الأخيرين في فصيح الكلام^(٣).

(٣٠) تعريب الأساليب^(٤)

لم يقتصر أثر احتكاك اللغة العربية باللغات الأجنبية على انتقال مفردات أجنبية إليها على النحو الذي شرحناه في الفقرتين السابقتين، بل كان من نتائجه كذلك أن انتقل إليها بعض أساليب من هذه اللغات. ودخول الأساليب الأعجمية في اللغة العربية قديم يتصل بالعهد الجاهلي. وربما وجد له شواهد في شعر عدى بن زيد العبادي الذي تربى في بلاط الأكاسرة، وله شعر كثير مملوء بالكلمات الأعجمية، فيبعد أن لا يكون في شعره أساليب أعجمية أيضاً. وكذا يقال في شعر الأعشى، وغيره من الشعراء الذين خالطوا الأعاجم وتأثروا بثقافتهم.

ولكن هذا النوع من التعريب على قدمه لم ينشط إلا في العهد الإسلامي، منذ حمل راية الكتابة فيه عبد الحميد الكاتب، ثم تكاثرت ونما في العصر العباسي على يد ابن المقفع ومن تابعه من الكتاب، حتى كانت نهضتنا الحديثة فرجع ميزانه وطغى طوفانه.

(١) مجلة المجمع اللغوي الجزء الأول ص ٢٠٣.

(٢) انظر آخر ص ١٦٨ وتوابعها.

(٣) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٣، ٣٤، ٢٠٣، ٢٠٤.

(٤) لخصنا في هذه الفقرة ما ورد في مقال نفيس في هذا الموضوع للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية. وقد حافظنا على نصوص المقال في كثير من المواطن. ولسكننا أضفنا إليه بعض زيادات هامة. (انظر المقال المشار إليه في الجزء الأول من مجلة المجمع صفحة ٣٣٢ وتوابعها).

ومعظم الأساليب الأجنبية التي دخلت اللغة العربية في الجاهلية وصدر الإسلام وعصرى بنى أمية وبنى العباس قد انتقل إليها من اللغة الفارسية . أما الأساليب التي تجرى على أقلام كتابنا في العصور الحاضرة فقد انتقل معظمها من اللغات الأوروبية الحديثة ، ولا سيما الفرنسية والإنجليزية .

هذا ، ويتناول البحث في هذا الموضوع الوجوه الآتية :

١ — قد يقع التوارد بين لغتنا ولغة غيرنا في الأساليب ، فلدينا طائفة من الأساليب العربية الأصيلة نرى مثلها في كلام الأعاجم . وتكون هناك قرائن تدل على أن لا تواطؤ ولا علاقة بينهما . وأن كلا منهما نشأ في لغته وبيئته من دون أن يتأثر بالآخر ، ويكون السبب في ذلك أن منشأ الأسلوبين والباعث عليهما واحد في اللغتين : كأن يكون طبيعياً في البشر على اختلاف أجناسهم وثقافتهم . فمن سرح الدابة مثلاً بعد أن كان يقودها بزمامها لا يدع الزمام على الأرض ، بل يطرحه عادة على عنقها أو كتفها . العرب يفعلون ذلك في مطاياهم ، والإفرنج يفعلونه في دوابهم . ثم إن كلا الفريقين من دون أن يتأثر بالآخر نقل استعمال تسريح الدابة إلى معنى تسريح الشخص الذي يهمل أمره وترك له حريته يتصرف كما يشاء . فقالت العرب : « ألقيت حبل فلان على غاربه » ؛ وقال الفرنسيون *Laisser à quelqu'un la bride sur le cou* . ونحن نقول في وصف الرجل بالغيظ : « صرف أسنانه » و « حرق الأروم » أي حك أسنانه بعضها بعض ؛ وهم يقولون *Grincer les dents* . ونحن نقول في التنويه بالحب القديم : « ما الحب إلا للحبيب الأول » وهم يقولون : *L'homme revient toujours à ses premières amours* . ونحن نقول في طلب شدة الانتباه « افتح أذنيك » ؛ وهم يقولون *Ouvrez les oreilles* . ونحن نقول : « خاتته قواه » ؛ وهم يقولون *Les forces le trahirent* . ونحن نستعمل أكل اللحم أو تمزيقه بالأسنان للدلالة على الغيبة وذكر الآخر بالسوء ؛ وهم يقولون في نفس المعنى *Dechirer à belles dents* . ونحن نقول « شرب الكأس حتى الثمالة » للتعبير عن تجرع الغصص حتى نهايتها ؛ وهم يقولون في نفس المعنى *Boire la calice jusqu'à la lie* . ونحن نقول في التعبير عن السلاطة : « فلان ذرب اللسان » أي مشحوده ؛ وهم يقولون *Avoir la langue bieu affilée* ... إلى غير ذلك من التعابير التي تولدت في اللغتين بالاستقلال من دون أن تستعير إحداها من الأخرى .

٢ — تسرب إلى لغتنا في العهد الأخير بعض أساليب أعجمية كان الظاهر من

حالتها أنها لا يعرفها العرب ، ولكن قديدي مدع عروبتها ورجعها إلى عرق في الأساليب العربية .

فمن ذلك مثلاً استخدامنا فعل عاد يعود في التعبير عن نفي أمر مع الإشارة إلى أنه كان موجوداً قبل ذلك كقولنا « فلان لم يعد يقدر على المشي » ، أو « لم يعد صديقاً لي » ، بمعنى أنه كان يقدر قبل ذلك على المشي ثم انقطعت قدرته ، وكان صديقاً لي ثم انقطعت صداقته . فهذا الأسلوب على شاكلة أسلوب النفي الفرنسي الذي تستخدم فيه أداة plus . . . ne (il ne peut plus marcher ; il n'est plus mon ami) . غير أنه ليس أسلوباً إنجليزياً محضاً . إذ قد ورد في فصيح الآثار العربية استعمال فعل « رجع » في النفي للدلالة على المعنى الذي نحن بصددده . فقول الحديث : « لا ترجعوا بعدى كفاراً » معناه بعد أن كنتم مسلمين ، ومن الواضح أن « عاد » من أخوات « رجع » . على أنه ورد استعمال « عاد » نفسه في تراكيب قريبة من التراكيب التي نستخدمه فيها وللدلالة على معنى قريب من المعنى الذي نقصده . فقول الرسول عليه السلام لمعاذ : « أعدت فتناً يا معاذ ؟ » معناه بعد أن لم تكن كذلك . ومن المقرر أن الاستفهام أخو النفي وأنه يجوز فيه معظم ما يجوز في النفي .

ومن ذلك أيضاً قولنا « تبادلاً التحيات » و « تبادلاً الشتائم » و « تبادلاً بعض الكلمات » على غرار قول الفرنجة Échanger des paroles . غير أنه ليس أسلوباً إنجليزياً محضاً . لأن فعل التبادل فصيح ، وهو مستعمل في كلام البلغاء بصدد التبادل الحسي ، فيقال : « تبادلاً ثوبيهما » . واستخدامه في الأمور المعنوية هو استعمال مجازي جاء على سنن العرب في استخدام المجاز . على أن العرب قد استخدموا في الأمور المعنوية فعلاً من أخوات « تبادل » وهو « تقارض » فيقولون « تقارضا الشئاء وتقارضا المديح » . وياليت المترجمين الأولين استعملوا فعل « تقارض » مكان « تبادل » ، ولو فعلوا لكانوا وقعوا على نفس اللفظ العربي المستعمل في هذا المقام .

ومن ذلك أيضاً قولنا « بكى بدموع حارة » على غرار قول الفرنجة Pleurer à chaudes larmes غير أن هذا الأسلوب ليس إنجليزياً محضاً . فالعرب ، وإن لم يصفوا الدموع بالحرارة ، فإنهم وصفوها بمبرادف الحرارة أعني السخونة والإحراق ، إذ هم يتخللون أن دمع الحزن سخين ودمع الفرح بارد . فإذا دعوا لأحد بالمسرة قالوا « أقر الله

عينه « و « فلان قرير العين » ، وإذا دعوا بالمساءة قالوا « أسخن الله عينه » و « عين سخينة » .
والفرق بين العرب والأفرنج أن الأولين ينسبون السخونة إلى العين نفسها ، والأفرنج ينسبون الحرارة إلى دموعها .

ومن ذلك أيضا قولنا : « سافرت برغم المطر » أو « بالرغم من المطر » كما يقول
الفرنجة *malgré, en dépit* . فقبل أن يترجم المترجمون هذه الكلمة الفرنسية بكلمة
« رغم » العربية ، كانت « رغم » مستعملة في فصيح الكلام العربي ، إذ يقولون
« فعلت كذا على الرغم من فلان » و « برغم منه » . وكثيراً ما استعمل العرب كلمة
« رغم » مع الأنف ، فيقولون « على رغم أنفه » و « رغم أنف فلان » . ولعل الفرق
بين الاستعمالين العربي والإفرنجي أن العرب يستعملون الرغم مع الأشخاص فيقولون
« برغمي » و « برغم فلان » ؛ أما الإفرنج فيستعملونه مع غير الأشخاص أيضا ، إذ يقولون
مثلاً « زرتك برغم المطر » .

ومن ذلك أيضا قولنا « أثر عليه » كما يقولون الفرنجة *influer sur* ؛ فإن « أثر » وإن
كان يتعدى في العربية بـ « لا بعلى » ، إلا أنه من الممكن أن يقال إنه في هذا التركيب
مضمن معنى فعل يتعدى بعلى نحو تسلط أو تغلب ، وإن التضمنين قياسي كما قرر ذلك
بجمع فؤاد الأول للغة العربية (١) .

وما قيل في التراكيب السابقة يقال مثله في نحو : « قرأت المتنبي » و « بالنظر إلى
كذا » *à l'égard de, vue que* و « في الوقت نفسه » *en même temps* و « سهر
على كذا » *veiller à* و « فلان يعمل ضد فلان » *contre lui* و « هذه مسألة جوهرية »
essentielle و « قتل الوقت » *tuer le temps* . . . وما إلى ذلك من الأساليب التي انتقلت
إلى أقلامنا في العصر الحديث من اللغات الأجنبية ، ولكن يمكن ادعاء عروبته ووجود
نظائر لها في الأساليب العربية ، وإن كانت هذه النظائر غير مطابقة لها كل المطابقة ،
أو لم يستعملها الفصحاء استغناء عنها بغيرها ، أو استعملوها قليلاً .

٣ — وبجانب هذا وذاك تسرب إلى أقلامنا أساليب لانزاع في عجمتها ، إذ لا توجد

(١) الحق أن استعمال فعل « أثر » في هذا المقام ليس كثيراً في كلام فصحاء العرب ، وإنما الفصح
أو الأفصح استعمال فعل « حاك يحيك » مكان « أثر يؤثر » . وهاك هذا الشاهد وهو قوله صلى الله
عليه وسلم : « البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك » . قال لسان العرب : « أى أثر في نفسك »
ثم قال « فلان ما يحيك فيه الملام إذا لم يؤثر فيه » .

لها نظائر في الأساليب الفصيحة ، وذلك مثل قولنا : « عاش ستة عشر ربيعاً »
 il ne voit « فلان لا يرى أبعد من أرنبه أنفه » و « il a vecu seize printemps
 plus loin que le bout de son nez » « فلان يلعب بالنار » (أى يتعرض للخطر)
 Jouer avec le feu و « لا جديد تحت الشمس » rien de nouveau sous le soleil
 و « أعطاه صوته في الانتخابات » donner sa voix و « قبض على دفة الحكومة » .
 Le commerce fleurissait « ازدهرت التجارة » و « tenir le gouvernail de l' État .
 و « ساد الجهل أو الفوضى » regner و « فلان لعب دوراً » أو « مثل دوراً هاماً في هذا
 الشأن » Jouer un rôle و « فلان رجل الساعة » l' homme de l' heure و « توترت
 العلاقات بين الحكومتين » rapports tendus و « هذا حجر عثرة في سبيل كذا »
 pierre d'achoppement و « إلى الملتقى » Au revoir و « فلان يصيد في الماء العكر »
 pêcher en eau trouble و « فعل كذا بصفته حاكماً » en sa qualité de ، و « معرفة
 سطحية » superficielle ، و « كلمة شكر بريئة » innocent ، و « حرق بخور الشتاء بين
 يديه » encenser ، و « ذهب ضحية مبدئه » sacrifier, sacrifice و « صب عليه
 جام غضبه » ... الخ .

وغنى عن البيان أن هذه الأساليب ، وإن لم ينطق بها العرب ، جارية على سنن
 كلامهم في المجاز والكنائية ؛ وقد علمت أنه قد انعقد إجماع الثقات من العلماء على قياسية
 المجاز والكنائية (١) . فلا بأس من استخدام مثل هذه الأساليب في اللغة العربية متى
 تحققت العلاقات والشروط التي جرت عادة العرب أن يعتمدوا عليها ويراعوها في تعبيرهم
 المجازى والكنائى ، ومتى كانت متلائمة مع الذوق العربى السليم ومستمدة عناصرها من
 أمور مألوفة في البيئات العربية (٢) . ولكن متى وجد لتعبير منها نظير في كلام الفصحاء
 من العرب كان الأفضل والأصح العدول عنه إلى ما يماثله في كلامهم .

٤ — غير أن كثيراً من الكتاب في العصر الحاضر ، وخاصة المؤلفين في العلوم
 وبعض محررى الصحف ممن لم تستحكم مرتبتهم في اللغة العربية ، تؤدى بهم ترجمة
 الأساليب الإفرنجية أو محاكاتها إلى الخروج عما يسير عليه الأسلوب العربى في ترتيب
 عناصر الجملة ، وربطها بعضها ببعض ، وتنسيق أجزاء العبارة .. وما إلى ذلك . فيأتون
 بعبارات مفككة ركيكة ، عربية المفردات ولكنها أعجمية التركيب والنظم ، لا تكاد

(١) أنظر ص ١٧٠ .

(٢) أنظر ص ١٧١ .

تبين عن المعاني التي يقصدونها . فهذا النوع من تعريب الأساليب إن صح تسميته كذلك ، هو الذي ينبغي أن نقاومه جهدا ونعمل على القضاء عليه .

(٣١) متون اللغة العربية

تكلمنا بتفصيل فيما سبق عن مفردات اللغة العربية وغزارتها ، وكثرة مترادفاتھا واختلاف الآراء بصددھا ، وعرضنا بهذه المناسبة للمناهج التي كان يسير عليها أصحاب المعجمات ، ومبلغ تحريم الدقة فيما يجمعون ، وتحاشيهم الأخذ عن تشوب عربيته أية شائبة ، واقتصارهم على ما ورد في العصور التي كان فيها اللسان العربي سليما لم يصبه بعد تبليل أعجمي ولا انحراف عن أوضاع اللغة الفصحى (١) .

فلم يبق إذن في موضوع متون اللغة العربية إلا الكلام عن أقسامها ، وطريقة كل منها في ترتيب مواده ، وما يوجه إليها من مأخذ . وهذا هو ما سنعرض له في الكلمة التالية :

تنقسم متون اللغة العربية ثلاثة أقسام :

١ - رسائل في طوائف خاصة من الألفاظ أو المعاني : ككتاب أبي حنيفة في الأنواء والنبات ؛ وكتب يعقوب في النبات ، والأصوات ، والفرق ؛ وكتب أبي حاتم في الأزمئة ، والحشرات ، والطير ؛ وكتب الأصمعي في الدارات ، والسلاح ، والإبل ، والخيول ، والشاء ، وأسماء الوحوش ، والنبات ، والشجر ، والنخل ، والسكرم ، والمشارك اللفظي ؛ وكتب أبي زيد في المطر ، واللبأ (٢) واللبن ، والغرائز ، والجرائم ، والمشارك اللفظي ؛ وكتب ابن قتيبة في الرجل ، والمنزل ، واللبأ واللبن ؛ وكتب ابن دريد في صفات السرج ، واللجام ، والسحاب ، والغيث ؛ وكتاب الفيروز ابادي في المترادف (الروض المألوف فيما له اسمان إلى ألوف) ؛ وكتابي ابن خالويه في أسماء الأسد وأسماء الحية ؛ وكتاب أبي هلال العسكري في الألفاظ التي تطلق على بقايا الأشياء (المعجم في بقية الأشياء) ؛ والكتب التي ألفت في الأضداد (الألفاظ التي يطلق كل منها على الشيء وضده) لقطرب والحسن بن محمد بن الحسن الصغاني وابن السكيت وأبي بكر بن الأنباري وأبي البركات بن الأنباري وعبدالله بن محمد الشَّوْزَي وابن الدهان وابن درستويه ؛ والمعجمات الفلسفية والعلمية وما إليها ككشف اصطلاحات الفنون

(١) أنظر صفحات ١٠٧ - ١١٢ وآخر ص ١٧٤ .

(٢) اللبأ وزان غنأ أول اللبن عند الولادة .

للتهانوى والتعريفات للجرجاني والسكيات لأبي البقاء... وهلم جرا (١). وهذا النوع من المعجمات كان أسبق في الظهور من النوعين الآتين. فقد ظهر بعض كتب منه في فاتحة العصر العباسي.

٢ - معجمات جامعة ترمى إلى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعاني. فترتب المعاني بطريقة خاصة وتذكر الألفاظ التي تقال للتعبير عن كل معنى منها. فتجد أبوابها مرتبة على نحو هذا الوضع: خلق الإنسان، الحمل والولادة، الرضاع والطفام، الغذاء السلي للولد، أسنان الأولاد وتسميتها في المراحل المختلفة، شخص الإنسان وقامته وصورته، صفات الرأس، قلة الشعر وتفرقه في الرأس... وهلم جرا. وتذكر في كل باب المفردات التي تعبر عن موضوعه مرتبة ترتيباً خاصاً ومبينة مدلولاتها ومواطن استعمال كل منها.

فهذا القسم من المعجمات يرجع إليه من يعرف معنى ما ويرغب في الوقوف على الألفاظ الموضوعة له.

ومن أشهر ما ألف من معجمات هذا القسم خمسة كتب: أحدها «كتاب الألفاظ» لابن السكيت (١٨٦ - ٢٤٤ هـ). وهذا هو أقدم ما ألف من هذا النوع (٢)؛ وثانيها «الألفاظ الكتابية» للهمداني (المتوفى سنة ٣٢٧ هـ)؛ وثالثها «مبادئ اللغة» للأسكافي (المتوفى سنة ٤٢١ هـ)؛ ورابعها «فقه اللغة» للثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) في مجلد واحد صغير (٣)؛ وخامسها «المختص» لابن سيده (أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي

(١) من هذا النوع كذلك بعض كتب ألفت حديثاً ككتاب «نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد» للشيخ إبراهيم اليازجي اللبناني؛ و«تهذيب الألفاظ العامية» للأستاذ محمد علي الدسوقي؛ و«التذكرة في فقه اللغة» (في بعض مفردات تتعلق بالحيوان والنبات والأزهار وأدوات الزراعة والصناعة المختلفة) للأستاذ محمد عبد الجواد.

(٢) هو العلامة أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت توفي عام ٢٤٤ أو ٢٤٦ هـ في خلافة المتوكل. وقد راجع كتاب «الألفاظ» وتقدم شرح شواهد وكملها وعلق عليه الخطيب التبريزي شارح ديوان الحماسة، وضمن هذا كله كتاباً سماه «كنز الحفاظ في تهذيب الألفاظ» أي في تهذيب كتاب «الألفاظ» لابن السكيت. وقد عثر بمكتبة ليدن على نسخة خطية من هذا الكتاب الأخير فأشرف على طبعها المطبعة الكاثوليكية ببيروت جماعة من الآباء اليسوعيين على رأسهم الأب لويس شيخو، بعد أن أضافوا إليها كثيراً من التعليقات اللغوية الهامة وذيّلوها بشروح وإصلاحات وفوائد وفهارس كبيرة القيمة.

(٣) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي. ولد في نيسابور عام ٣٥٠ هـ وتوفي عام ٤٢٩ هـ. وله مؤلفات كثيرة قيمة في مختلف فروع العلوم اللسانية. - وفي تسمية كتابه هذا بفقه اللغة شيء =

المتوفى سنة ٥٨هـ) في سبعة عشر جزءاً ، وهو أدقها دراسة ، وأحسنها تنسيقاً ، وأكثرها استيعاباً لمسائل البحث (١) .

٣ — معجمات جامعة ترمى إلى شرح معانى المفردات ، فترتب الكلمات ترتيباً خاصاً ليسهل على من يريد الوقوف على معنى أى كلمة الرجوع إليها فى مواطنها . فهذا القسم من المعجمات ، على عكس القسم السابق . يحتاج إليه من يعرف اللفظ ويرغب فى الوقوف على مدلوله .

وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل هو الخليل بن أحمد (١٠٠ — ١٧٤ هـ) فقد وضع كتابه « العين (٢) » ، ورتب كلماته حسب ترتيبها فى مخارج أول حروفها ، مبتدئاً بأقصى الحلق ، (ولذلك بدأه بحرف العين الذى سمي الكتاب باسمه) ومتتياً بالشفتين (٣) . غير أنه يظهر أن المنون قد عاجلته قبل إتمامه ، فأكملة جماعة بعد وفاته بأكثر من نصف قرن (٤) .

وقد نهج الخليل فى جمع مواد معجمه منهجاً خاصاً . فما كان يقتصر على شرح ما تفرع من المادة على طريق الاشتقاق العام (٥) ، بل كان يذكر كذلك فى كل أصل ما تفرع عنه على طريق الاشتقاق الكبير (٦) . فيتكلم مثلاً عن ضام وضمى ومضى

== كثير من التجوز ، وذلك أنه ليس فيه ما يصح تسميته بفقه اللغة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة إلا نحو خمس عشرة صفحة (الباب التاسع والعشرون) ، أما ما عدا ذلك فتن لغة مرتب حسب فصول المعانى . (١) من هذا النوع كذلك بعض كتب ألفت حديثاً ككتاب « الإفصاح فى فقه اللغة » للأستاذين عبد الفتاح الصعيدى وحسين يوسف موسى .

(٢) يشك بعض الباحثين من المستشرقين على الأخص فى صحة نسبة هذا الكتاب إلى الخليل . (٣) فترتيب حروفه على الوجه الآتى : ع ، ح ، هـ ، خ ، غ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ض ، ص ، س ، ز ، ط ، د ، ت ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و ، ا ، ي . — وقد ورد فى دائرة المعارف الإسلامية « أن الخليل اتبع فى ترتيب معجمه طريقة النحاة السنسكريتيين فى ترتيب حروف لغتهم . فإن حروف السنسكريتيين تبدأ بأحرف الحلق وتنتهى بالأحرف الشفوية . وهو قد رتب « العين » على الحروف مبتدئاً بحروف الحلق فاللسان فالأسنان فالشفيتين » . — وقد اتخذ بعض الباحثين من المستشرقين على الأخص من هذا التطابق وسيلة للشك فى صحة نسبة الكتاب إلى الخليل . ولا يخفى أن ظاهرة كهذه ليس فيها ما ينهض دليلاً على ما يزعمون .

(٤) لم يظهر هذا الكتاب إلا حوالى سنة ٢٥٠ هـ . وتأخر ظهوره إلى هذا الحد كان من الأمور التى اعتمد عليها من أنسكرو صحة نسبته إلى الخليل . ولا يخفى ما فى حججهم هذه من الوهن ؛ لأن وفاة المؤلف قبل إتمام كتابه ، وتكاملته وظهوره من بعده على أيدي تلاميذه من الحوادث الكثيرة الوقوع .

(٥) أنظر ص ١٤٣ — ١٤٥ .

(٦) أنظر صفحات ١٤٥ — ١٤٧ .

وضم وأمض وأضم في موضع واحد . وهذا يؤيد ما أشرنا إليه فيما سبق من أن الخليل ابن أحمد قد فطن ، من قبل الفارسي وابن جني ، إلى موضوع الاشتقاق الكبير ، وهو دلالة الحروف في لفظ ما على أصل معنوي واحد كيفما اختلف ترتيبها (١) .

ثم ظهر معجم « الجهرة » (جهرة الكلام) لابن دريد (أبي بكر محمد بن الحسن ابن دريد ٢٢٣ - ٣٢١ هـ) وقد جمع مواد من كتاب العين ومن كتب أخرى للأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما . وابتدأه بالثنائي من الألفاظ : أب ، أت ، أث ... - بت ، بث ، بج ... إلى آخر الحروف . وانتقل من الثنائي إلى الثلاثي ثم الرباعي ثم ملحق الرباعي وكذا الخماسي والسداسي وملحقتهما . وجمع النوارد في باب مفرد . واصطنع طريقة الخليل في جمع فروع المادة . فذكر في كل أصل ثلاثي ما تفرع عنه على طريق الاشتقاق الكبير (٢) . وألف القالي البغدادي (المتوفى في سنة ٣٥٦ هـ) كتابه « البارع » ، وزاد فيه على ما جاء في كتاب العين للخليل .

وألف الأزهرى (أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر ٢٨٢ - ٣٧٠) كتابه « التهذيب » (تهذيب اللغة) في عشرة مجلدات ، ونهج في ترتيب مواد وجمع فروع كل مادة منها منهج الخليل في كتاب العين .

واختصر أبو بكر الزبيدي من علماء الأندلس (المتوفى في سنة ٣٧٩ هـ) كتاب العين للخليل ، وسمى مختصره هذا « استدراك الغلط الواقع في كتاب العين » (٣) .

وألف صاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ) معجمه « المحيط » في سبع مجلدات ؛ كما اختصر كتاب الجهرة لابن دريد في مؤلف سماه « الجوهرة » .

وألف الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ٣٢٣ - ٣٩٣ هـ) معجمه « تاج اللغة وصحاح العربية » (المشهور بالصحاح) في جزئين جمع فيهما أربعين ألف مادة تلقى معظمها من أفواه الأعراب مشافهة في بطن جزيرتهم . ورتب كلماته حسب ترتيب أواخرها في حروف الهجاء ، وقسمه إلى سبعة وعشرين بابا جمع في كل باب منها الكلمات المنتهية بحرف معين من الحروف الهجائية ، مبتدئا بالكلمات المنتهية بالهمزة ومختتما بالكلمات المنتهية بالواو أو الياء . وقسم كل باب إلى فصول جمع في كل

(١) أنظر التعليق الأول ص ١٤٧ .

(٢) عن حديثاً تصحيح هذا المعجم الأستاذ كرنكو Krenkow الانكليزي وعارضه بسبع نسخ .

(٣) وهذا المختصر خير من الأصل وأقرب منه مأخذاً . وكان جماعة من أهل الغيرة على العربية قد

شرعوا في طبعه بمدينة بغداد قبيل الحرب العظمى ، ولكنهم انقطعوا عن مواصلة العمل .

فصل منها الكلمات المفتحة بحرف معين من حروف الهجاء مبتدئاً بالكلمات المفتحة بالهمزة ومنتها بالكلمات المفتحة بالياء . ورتب كلمات الفصل الواحد حسب ترتيب عين الكلمة في حروف الهجاء . فلبحث عن كلمة « كتب » مثلاً يرجع إليها في فصل الكاف من الباب الثاني من الكتاب (وهو باب الباء) حيث توجد بعد الكلمات التي عينها همزة والتي عينها باء . ويعتمد هذا الترتيب على الحروف الأصلية وحدها ، فلا يقام وزن للحروف المزيدة ولا للحروف التي استبدل بها غيرها وفقاً لقاعدة من القواعد الصرفية . فلبحث عن « مسجد » يرجع إليها في « سجد » وعن « قال » يرجع إليها في « قول » . — وينتهي الجزء الأول من هذا المعجم بباب العين المهملة ، ويفتح الجزء الثاني بباب الغين المعجمة .

وليس لطريقة « الصحاح » في ترتيب الكلمات مزية ظاهرة غير التسهيل على طالبي القوافي والأسجاع ؛ لأن الكلمات المتحدة في آخر حروفها تجمع بحسبها في باب واحد . ولكن مزيته هذه ليست شيئاً مذكوراً بجانب ما تشتمل عليه من تعقيد ومجانبة للأوضاع الطبيعية . ومع ذلك فقد انتهجها كثير من أصحاب المعجمات من بعده . ولم يتبع الجوهري طريقة الخليل في جمع التراكيب المختلفة للمادة في موضع واحد (ضام ، ضمي ، مضى ، ضم ، أمض ، أضْم ...) ؛ بل تكلم عن كل تركيب على حدة في موضعه حسب الطريقة التي سار عليها في ترتيب الكلمات . ومعجم « الصحاح » من أهم المراجع وأشهرها في العصر الحاضر ، وأكثرها استيعاباً لمفردات اللغة .

ومع ما امتاز به من الدقة وتحري وجوه الحق ، وقوة المصادر التي اعتمد عليها وصدقها واقتصاره على اللغات الصحيحة الفصيحة الثابتة بالرواية ، فإن بعض الناقدين قد أخذ عليه كثيراً من الأخطاء في تفسير الكلمات وكثيراً من مظاهر التصحيف في رسمها (١) .

وفي نفس العصر الذي ألف فيه معجم الصحاح ، ألف ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني ٣٢٩ — ٣٩٥ . وهو أستاذ صاحب بن عباد) (٢)

(١) من هؤلاء الناقدين الفيروزابادي . وقد تصدى كثير من الباحثين للرد على ناقديه والدفاع عنه وألفوا في ذلك كتباً خاصة .

(٢) انظر ترجمة لابن فارس وتعريفاً بمؤلف آخر من أنفس مؤلفاته « الصاحي في فقه اللغة » بالفقرة العاشرة من التمهيد بكتابنا « علم اللغة » .

معجمه « المجل » ورتب كلماته حسب ترتيب أوائلها في حروف الهجاء .

ثم ألف ابن سيدة (أبو الحسن على بن إسماعيل الضرير الأندلسي المعروف بابن سيدة المرسي) نسبة إلى مرسية بالأندلس المتوفى سنة ٤٥٨ هـ وهو مؤلف كتاب المخصص الشهير المتقدم ذكره في القسم الثاني من المعجمات (١) معجمه « المحكم والمحيط الأعظم » أو « المحكم في لغة العرب ، وجمل من غريب الكتاب والحديث وفنون من النحو والأدب » . وقد سار في ترتيب مواده وجمع فروع كل مادة منها على غرار الخليل في عينه والأزهري في تهذيبه (٢) وعرض فيه لكثير من قواعد الصرف المتعلقة بالقلب والإبدال والتصغير والنسب والإدغام والجمع وأسماء الجموع والإمالة وأبنية الأفعال والمصادر... وهلم جرا .

ثم ألف الزمخشري (جاز الله محمود بن عمر الزمخشري ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) معجمه « أساس البلاغة » ، ورتب كلماته حسب ترتيب أوائلها في حروف الهجاء مبتدئاً بالهمزة ومنتهياً بالياء . وقد نهج الزمخشري في شرح الكلمات منهجاً خاصاً به ، فهو لا يفسر الكلمة بل يشير إلى مواطن استعمالها يذكرها في عبارات مؤلفة أو مأثورة من فصيح الكلام العربي شعره ونثره ، ويترك للقارئ استخلاص معانيها المختلفة من سياق العبارات التي ترد فيها . وعنى بناحية هامة أغفلها معظم أصحاب المعجمات من قبله ومن بعده ، وهي التفرقة بين المعاني الحقيقية للكلمة ومعانيها المجازية ، فيبدأ المادة بذكر معانيها الحقيقية ويختتمها ببيان الشائع من معانيها المجازية . - وقد طبع « أساس البلاغة » في جزئين ينتهي أولهما بآخر حرف الشين . - وهو من أشهر المراجع اللغوية وأكثرها تداولاً في العصر الحاضر .

ومع ما امتاز به هذا المعجم من الدقة ، وحسن الترتيب ، وسلامة المنهج ، وإرشاده إلى مواطن استعمال الكلمات ، وجمعه بين متن اللغة العربية وأدبها ، فإن بعض الناقدين قد أخذ عليه إغفاله لكثير من المواد ، وخطأه في تفسير بعض الكلمات ، وعدم دقته أحياناً في التفرقة بين معاني الكلمة الحقيقية ومعانيها المجازية ، وتركه كثيراً من غريب الكلمات التي ترد في عباراته وشواهد بدون شرح ، وهذا يؤدي في الغالب إلى غموض معنى الكلمة التي هو بصدد تفسيرها .

(١) أنظر آخر ص ١٨٩ .

(٢) غير أنه وضع حروفه الثلاثة الأخيرة على هذا الترتيب : الألف فالياء فالواو ، على حين أن الأزهري رتبها في التهذيب على هذا الوضع : الواو فالألف فالياء .

ثم ألف ابن الأثير (مجد الدين ٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) معجمه «النهاية» وسار في ترتيب كلماته على غرار الزمخشري .

ثم ألف الصغاني (رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوى العمرى الصغاني ٥٧٧ - ٦٥٠ هـ) معجمه «تكملة الصحاح» (وهو أكبر حجما من الصحاح نفسه) و «العباب» وسار فيهما على طريقة الجوهري في ترتيب الكلمات . غير أنه قد جرت عادته في «العباب» أن يذكر في آخر كل مادة ما يدل عليه تركيبها من معنى عام تدرج تحته معاني ما تفرع منها على طريق الاشتقاق العام والاشتقاق الكبير .

ثم ألف ابن منظور المصري (جمال الدين محمد بن جلال الدين بن مكرم الأنصارى الخزر جى الأفريقى المصرى المعروف بابن منظور ٦٣٠ - ٧١١ هـ) أكبر معجم من هذا النوع، وسماه «لسان العرب» . وجمع فيه ماورد في معظم المعجمات التى ظهرت من قبله . فقد ذكر أنه استمد مادته من كتب «التهذيب» للأزهري و «المحكم» لابن سيده و «الصحاح» للجوهري وحواشى الصحاح و «الجمهرة» لابن دريد و «النهاية» لابن الأثير ، و «أمالى ابن برى» . فبلغ عدد مواده زهاء ٨٠ ألف مادة . وهذا العدد لم يجتمع مثله فى أى معجم آخر من قبله ولا من بعده . ورتب كلماته حسب ترتيب أواخرها فى حروف الهجاء ، متبعا فى ذلك منهج الصحاح السابق ذكره (١) . ويمتاز لسان العرب بالدقة فى تحرى الحقيقة ، والتفصيل فى شرح الكلمات والتوسع فى الاستشهاد على المعانى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأشعار العرب وأمثالهم وخطبهم ، فهو بهذا دائرة معارف وليس معجما لغويا خسب .

ومن أجل ذلك اتسع نطاقه وكبر حجمه ، حتى وقع فى طبعته الأخيرة (وهى طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ هـ) فى عشرين جزءاً من الأجزاء الضخمة (٢) .

ويبدأ جزؤه الثانى بكلمة «صأب» أى بفصل الصاد من باب الباء ، والثالث بكلمة «لبث» ، والرابع بكلمة «صبنخ» ، والخامس بكلمة «أخذ» ، والسادس بكلمة «سأر» ، والسابع بكلمة «هأر» ، والثامن بكلمة «عبس» ، والتاسع بكلمة «خرض» ، والعاشر بكلمة «زبع» ، والحادى عشر بكلمة «دأف» ، والثانى عشر بكلمة «زبق» ، والثالث

(١) أظن آخر من ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) فهو فى الحجم نحو خمسة أمثال «القاموس المحيط» الذى سأتى ذكره ، مع أن عدد مواده لا تزيد على عدد مواد القاموس المحيط إلا بمقدار الثلث .

عشر بكلمة «أبل» ؛ والرابع عشر بكلمة «غتل» ؛ والخامس عشر بكلمة «حبرم» ؛
والسادس عشر بكلمة «لأم» ؛ والسابع عشر بكلمة «دين» ؛ والثامن عشر بكلمة
«أبي» ؛ والتاسع عشر بكلمة «رأى» ؛ والعشرون بكلمة «فأى» .

ومع أن هذا المعجم منقطع النظير في دقة الشرح والتوسع في إيراد الشواهد
واستيعاب مادة اللغة ، فقد أخذ عليه الناقدون مأخذ كثيرة أهمها أنه كثيراً ما تبدو فيه
مظاهر الاضطراب والتناقض لنقله عن كتب متعددة مختلفة الآراء ، بدون أن يحاول
التوفيق بين آرائها أو تمييز غثها من سمينها .

وبعد ذلك بقليل ظهر كتاب «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» للفيومي
(أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠هـ) . وقد فرغ من تأليفه سنة
٧٣٤ هـ . وهو معجم للكلمات الواردة في كتاب الشرح الكبير للإمام الرافعي (وهو
شرح لكتاب «الوجيز» في فروع الفقه على مذهب الشافعي لحجة الإسلام الغزالي) .
ولكنه لم يقتصر على ذلك بل أضاف إليه «زيادات من لغة غيره ومن الألفاظ
المشتبهات والمتماثلات ومن إعراب الشواهد وبيان معانيها ، مما تدعو إليه حاجة الأديب
الماهر»^(١) . وقد رتب كلماته حسب ترتيب أوائلها في حروف الهجاء . فقسمه إلى
سبعة وعشرين كتاباً آخرها كتاب الواو ، وأضاف إليها بابين أحدهما «باب لا»
وثانيهما «باب الياء» ، وذيله بخاتمة درس فيها بعض قواعد صرفية تتعلق بالفعل
المهموز الآخر وما تسير عليه العرب في تحقيق همزته أو تخفيفها ، والثلاثي اللازم
وتعديته بالهمزة وبالتضعيف وحرف الجر ، وأبنية الأفعال واختصاص بعض أوزانها
في الدلالة على أمور خاصة ، والمشتقات ، والجمع ، وصيغة فُعَال وفُعَالَة ومعانيها ،
وما يذكر من الأعضاء وما يؤنث ، وما يفيد النسب ... وهلم جرا .

وقد طبع هذا المعجم في المطبعة الأميرية بالقاهرة في مجلد واحد منقسم إلى جزئين
يقع كل منهما في نحو خمسمائة صفحة من الحجم المتوسط ، ويبدأ ثانيهما بكتاب الضاد .
وهو من أكثر المعجمات تداولاً وذيو عا في العصر الحاضر . — ومع أنه درس بعض
المفردات دراسة لا بأس بها ، فقد أغفل عدداً كبيراً من المواد ، وقصر في دراسة
بعضها ، ووجه قسطاً كبيراً من عنايته إلى المصطلحات الفقهية ، لأنه في الأصل معجم
للكلمات الواردة في كتاب فقهي .

ثم ظهر كتاب « مختار الصحاح » للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي . وقد اختصر فيه معجم « الصحاح » للجوهري مقتصراً « على ما لا بد لكل عالم فقيه أو حافظ أو محدث أو أديب من معرفته وحفظه ، لكثرة استعماله وجريانه على الألسن ... خصوصاً ألفاظ القرآن العزيز والأحاديث النبوية » ، وحذف منه « عويص اللغة وغيرها ، طلباً للاختصار وتسهيلاً للحفظ . وضم إليه فوائد كثيرة من تهذيب الأزهري وغيره من أصول اللغة الموثوق بها ومن تحصيله الخاص » (١) . وفرغ من تأليفه سنة ٧٦٠ هـ . وكان ترتيبه في المبدأ كترتيب الصحاح ، ولكن وزارة المعارف المصرية أمرت بتغيير وضعه وجعله مرتباً حسب أوائل الكلمات ، وحذفت منه ما لا يليق بالنشء قراءته ، وعهدت إلى الأستاذ محمود بك خاطر بأمر تنظيمه على هذا النسق وإلى المغفور له العلامة الشيخ حمزة فتح الله بالإشراف على مراجعته وتصحيحه . وظهرت أول طبعة منه على هذه الصورة سنة ١٩٠٥ م .

وهو معجم صغير موجز متداول بين أيدي الطلبة وعامة المثقفين في مختلف البلاد العربية .

وفي نفس هذا العصر ظهر كتاب « القاموس المحيط » للفيروزابادي (أبو طاهر محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزابادي الشيرازي ٧٢٩ - ٨١٧ هـ) . وقد ذكر الفيروزابادي في سبب تأليفه هذا الكتاب أنه رأى أن المعجمات التي وضعت في عصره ليست جامعة لفصيح اللغة وشواردها ، وليست مبسوبة بسطاً وافية ، وأن « صحاح » الجوهري الذي شاع في زمنه ، واعتمد عليه المدرسون ، قد فاتته نصف اللغة أو أكثر ، وأن خير الكتب التي ألقت من قبل كتابان هما : « المحكم » لابن سيده و « العباب » للصغاني ، وأن أحدهما لا يغني عن الآخر ، وهما لا يغنيان عما عداهما . لذلك شرع في وضع كتاب واسع يجمع ما ورد في هذين الكتابين ويكمل ما فاتهما . وسماه « اللامع المعلم العباب الجامع بين المحكم والعباب » . ولما رأى أن هذا الكتاب سيبلغ ستين سفرأ ، وأن الطلاب سيعجزون عن تحصيله ، وطلب إليه وضع كتاب موجز ، اختصره في سفرين اثنين ، فجعل كل ثلاثين سفرأ من الكتاب الأصلي في سفر واحد . وسمى هذا المختصر « القاموس المحيط » . وقد ضمنه خلاصة المحكم والعباب وزيادات أخرى من غيرهما ومن تحصيله ، فبلغت مواده ٦٠ ألف مادة . ورتب كلماته

حسب ترتيب أواخرها في حروف الهجاء ، متبعاً في ذلك منهج الجوهرى في « الصحاح » وابن منظور في « لسان العرب » ، ولم يخالفهما إلا في تقديم الواو على الهاء والطبعة المتداولة في العصر الحاضر من « القاموس المحيط » تقع في أربعة أجزاء ؛ يتبدى ثانيهما بكلمة « حبر » أى بفصل الحاء من باب الراء ؛ وثالثها بكلمة « أمع » أى بفصل الهمزة من باب العين ؛ ورابعها بكلمة « صؤل » أى بفصل الصاد من باب اللام .

وقد دعت شدة الرغبة في الإيجاز إلى اتخاذ طريقة خاصة في إيراد معاني الكلمة واصطناع بعض رموز في التفسير . فمن ذلك أنه يحرص على ألا يفسر الكلمة في معنى من معانيها بأكثر من كلمة واحدة ؛ وأنه لا يكرر الكلمة عند ذكر معانيها المختلفة بل يكتفي بذكر بعض متعلقاتها (نَفَحَ الطَّيْبُ كَمْنَعٍ فَاحٍ نَفْحًا وَنُفْحًا بِالضَّمِّ وَنَفْحَانَا وَالرَّيْحُ هُبَّتْ وَالْعَرَقُ نَزَى مِنْهُ الدَّمُ وَالشَّيْءُ بِسَيْفِهِ تَنَاوَلَهُ وَفَلَانَا بِشَيْءٍ أَعْطَاهُ وَاللِّمَّةُ حَرَكُهَا . . .) وانتَفَحَ به اعتراض له وإلى موضع كذا انقلب . . .) ؛ وأنه يميز الياء من الواوى بوضع حرف واو أو ياء قبل الكلمة (ى مضى ، و رجا) ؛ وأنه يكتفي في بيان مؤنث الاسم أو الوصف بذكر علامة التأنيث بدون تكرار الكلمة (« وهى بهاء » ، للإشارة إلى أنها تؤنث بالتاء) ؛ وأنه يرمز بحرف م لكلمة معروف ، وبحرف ع لكلمة موضع ، وبحرف د لكلمة بلد ، وبحرف ة لكلمة قرية ، وبحرف ج لكلمة جمع ، وبحرفي جج لكلمة جمع الجمع .

ومما يمتاز به القاموس المحيط أنه يعرض لأسماء الأعلام من الأناسى والأمكنة وغيرهما وبعض العقاقير الطبية وخواصها .

وقد ألقت عدة كتب في شرح القاموس المحيط ، من أهمها وأشهرها « تاج العروس في شرح القاموس » للسيد مرتضى الحسينى المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ . وقد طبع هذا الشرح بمصر في عشرة مجلدات ضخام ظهرت في سنتى ١٣١٦ ، ١٣١٧ هـ .

ولم يحظ أى معجم آخر في العصر الحاضر بما حظى به « القاموس المحيط » من سعة الانتشار ، وكثرة التداول ، والاعتماد عليه ، والاستشهاد بما ورد فيه ، حتى أنه لا تخلو منه مكتبة أديب أو عالم ، وحتى أن اسمه (القاموس) أصبح بمنزلة اسم جنس يطلق على كل معجم .

غير أنه قد أخذت عليه عدة مآخذ ، منها أن شدة حرصه على الإيجاز كثيراً ما

توقعه في الغموض والإبهام، فتصبح عباراته من قبيل الإشارات البرقية؛ وأنه يغفل شرح كثير من الكلمات الغريبة الغامضة مكتفياً بأن يضع بعدها حرف م للإشارة إلى أنها معروفة؛ وأنه يشتمل على كثير من الأوهام التاريخية والخرافات؛ وأنه كثيراً ما يشرح كلا المترادفين بالآخر بدون توضيح المعنى الذي يدلان عليه؛ وأنه لا يميز بين الفصيح والغريب والمهملة؛ وأنه كثيراً ما يخطئ الجوهرى ويكون هو المخطئ^(١)؛ وأنه قد وقع في عدة أخطاء في شرحه للكلمات الدالة على الحيوانات والنباتات؛ وأنه يسرد معاني الكلمة بعضها تلو بعض بدون ذكر شواهد تبين وجوه استعمالها وتوضح مدلولاتها. — وقد ألفت كتب خاصة في بيان هذه المآخذ وغيرها، من أشهرها وأحدثها كتاب «الجاسوس على القاموس» لأحمد فارس الشدياق اللبناني.



وهذا النوع من المعجمات قليل الفائدة للباحث في فقه اللغة. وذلك أن مؤلفيها قد وجهوا كل عنايتهم إلى ذكر معاني الكلمات والاستشهاد عليها أحياناً بالقرآن والحديث والمأثور من كلام العرب؛ ولكنهم أغفلوا إغفالا تاماً تعقب معاني كل كلمة في مراحل حياتها، وشرح تطور مدلولها في مختلف العصور، وبيان الأصول التي انحدرت منها... وما إلى ذلك من البحوث القيمة التي تشغل الآن أكبر حيز في المعاجم الإفرنجية الحديثة، وتهم كثيراً الباحثين في فقه اللغة.

هذا إلى أن معظم هذه المعجمات لا يسير على نظام ثابت في ترتيب معاني الكلمة وتنظيم طوائفها، فيخلط بين الحقيقي منها والمجازي^(٢)، وبين القديم والجديد، كما يخلط بين معانيها في مختلف اللهجات العربية؛ ومن ثم جاءت مضللة في كثير من المواطن. وقد اشتملت، فضلاً عن هذا كله، على كلمات كثيرة كانت مهجورة في الاستعمال ومستبدلاً بها كلمات أخرى، وعلى عدد كبير من المفردات المولدة والمشكوك في عريبتها، وحرفت فيها كلمات كثيرة عن أوضاعها. ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة: منها أن جامعي المعجمات قد أخذوا أحياناً عن أشعار جاهلية ثبت فيما بعد أنها موضوعة؛ ومنها أنهم كانوا ينقلون أحياناً عن الكتب، فحدث من جراء ذلك تصحيف في كثير

(١) كتب بعض المؤلفين كتباً خاصة في المفاضلة بينهما والانتصار لأحدهما على الآخر.

(٢) يستثنى من ذلك «أساس البلاغة» للزمخشري (انظر ص ١٩٣). على أنه قد وقع في هذا الكتاب نفسه أخطاء كثيرة بصدد التفرقة بين المعاني الحقيقية والمجازية.

من الكلمات، لأن الرسم في عصورهم كان مجرداً من الإيجام والشكل، فكان من الممكن أحيانا قراءة الكلمة الواحدة على عدة وجوه.

وليس المآخذ السابقة مقصورة على هذا النوع من المعجمات، بل يوجه كثير منها كذلك إلى النوعين الآخرين: المعجمات الخاصة^(١) ومعجمات المعاني^(٢).



هذا، وقد ألّف بعض علماء هذا العصر الحاضر معجمات حديثة لا تكاد تمتاز عن المعجمات القديمة إلا في حسن التنسيق، ونظام الترتيب، واستخدام بعض وسائل الإيضاح كرسوم ما تدل عليه الكلمات من حيوان أو نبات أو جماد، وتعرضها أحيانا لبعض المصطلحات الحديثة في العلوم والفنون والصناعات... وما إلى ذلك. ومن أشهر هذه الطائفة كتاب «محيط المحيط في اللغة واصطلاحات العلوم» للعلم بطرس البستاني، وقد فرغ من تأليفه سنة ١٨٦٩ م؛ و«أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد» في ثلاثة مجلدات لسعيد الشرتوني اللبناني الماروني؛ و«المنجد» للأب لويس معلوف اليسوعي (وهو معجم مدرسي صغير)؛ و«معجم الطالب في المأفوس من متن اللغة العربية والاصطلاحات العلمية والعصرية» للعلم جرجس همام الشويري اللبناني، وقد طبع في لبنان سنة ١٩٠٧ م؛ و«البستان» لعبد الله البستاني^(٣).

(٣٢) كفاية اللغة العربية

إن فيما تقدم ذكره بصدد خواص اللغة العربية،^(٤) ودقة قواعدها،^(٥) وغزارة مفرداتها^(٦)، وخصب مناهجها في الاشتقاق^(٧)، وقياسية أوزانها واختصاص كثير من هذه الأوزان بالدلالة على معان معينة^(٨)، وسعة صدرها حيال التعريب والمجاز

(١) انظر ص ١٨٨.

(٢) انظر ص ١٨٩.

(٣) انظر في موضوع المعجمات مقالا نفيسا لصديقنا الأستاذ محب الدين الخطيب بمؤلفه «الحميقة» صفحات ٨٢ - ١١٨ من الجزء الثاني.

(٤) انظر ص ١٠١.

(٥) انظر صفحة ١٠٢.

(٦) انظر صفحتي ١٠٧ و ١٠٨.

(٧) انظر صفحات ١٤٣ - ١٤٩.

(٨) انظر آخر ص ١٥١ - ١٥٧.

والكنية والنقل (١)، وشدة حرصها على جمال الأسلوب وبلاغة العبارة، وتوخيلها الوصول إلى الغرض من أقرب الطرق وأكثرها ملاءمة لمقتضيات الأحوال (٢) ... إن في ذلك كله وما إليه لأوضح دليل على أنها من أعظم اللغات كفاية، وأكثرها مرونة، وأقدرها على التعبير عن مختلف فنون القول.

وقد انتقل العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام، ومن النطاق العربي الضيق الذي امتازت به مدينتهم في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس، فلم تعجز لغتهم عن مواجهة هذه الشؤون الجديدة، ولم تضيق ذرعا بالتعبير عن أية ناحية منها؛ بل اتسعت للعلوم والفنون على اختلاف أنواعها، وللحضارة على كثرة مظاهرها؛ فنهضت بالمواد الشرعية واللغوية والطبيعية والرياضية وعلوم النفس والاجتماع، وصارت لسان الفلسفة والسياسة والقصص والصناعة والفن ومختلف ضروب المعاملات: وبالجملة لم تقف أمام أية شعبة من شعب العلم أو الحضارة وقفة المتعثر الحائر، بل كان لها من قوة حيويتها، وعظيم مرونتها، وغزارة ثروتها، وسلامة أسسها، ما أتاح لها الخوض في مختلف مناحي القول، والتعبير عن شتى مظاهر التفكير.

ولا يعوز اللغة العربية في العصر الحاضر إلا أن تخصص ألفاظ من مفرداتها للدلالة على مستحدثات العلوم والفنون. ولن يرهقنا هذا من أمرنا عسرا؛ لأن في بطون معجمات هذه اللغة مئات الألوف من الكلمات المهجورة والمستعملة، مما يصلح أن يوضع لهذه المسميات الحديثة. ولنا بهذا الصدد أسوة حسنة فيما فعله العرب أنفسهم في صدر الإسلام والعصر العباسي. وهذه هي إحدى الغايات الجليلة التي يعمل على تحقيقها «مجمع فؤاد الأول للغة العربية».

(٣٣) مجمع فؤاد الأول للغة العربية

في الثالث عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٢ (١٤ شعبان سنة ١٣٥١)، في عهد المغفور له صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر، صدر مرسوم بإنشاء «مجمع اللغة

(١) انظر صفحة ١٦٥ وتوابعها.

(٢) انظر ص ١٦٨ وصفحات ١٧٢ - ١٧٤.

العربية الملكية . وقد اشتمل هذا المرسوم على عشرين مادة ، ننقل منها فيما يلي ما يتصل بأعمال المجمع وأغراضه ونظام تكوينه :

مادة ١ - ينشأ معهد باسم « معهد اللغة العربية الملكية » يكون تابعاً لوزارة المعارف العمومية ، ويكون مركزه مدينة القاهرة .

مادة ٢ - أغراض المجمع هي :

(١) المحافظة على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر ؛ وذلك بأن يحدد في معاجم أو تفاسير خاصة ، - أو بغير ذلك من الطرق ، ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب .

(ب) أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها .

(ج) أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

(د) أن يبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة العربية مما يعهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العمومية .

مادة ٣ - يصدر المجمع مجلة تنشر فيما تنشر أبحاثه التاريخية ، وقوائم الألفاظ والتراكيب التي يرى استعمالها أو تجنبها ، وتتقبل مناقشات الجمهور واقتراحاته . وينشر على الطريقة العلمية من النصوص القديمة ما يراه لازماً لأعمال المعجم ودراسات فقه اللغة .

مادة ٤ - يؤلف المجمع من عشرين عضواً عاملاً ، يختارون من غير تقييد بالجنسية ، من بين العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية ، أو بأبحاثهم في فقه هذه اللغة أو لهجاتها . ويعين العلماء العاملون لأول مرة بمرسوم ، بناء على عرض وزير المعارف العمومية . وإذا خلا محل من أحد الأعضاء ، اقترح المجمع اسم العضو الجديد بأغلبية ثلثي أعضائه العاملين . ويجب أن يصحب الاقتراح بتقرير مفصل لمؤهلاته العلمية . ويعين العضو الجديد بمرسوم بناء على عرض وزير المعارف العمومية .

مادة ٨ - للمجمع أن يمنح لقب « عضو مراسل » لكل شخص مصري أو أجنبي يرى في استمرار معونته فائدة كبرى ، ويكون تعيين الأعضاء المراسلين من وزير المعارف العمومية . وليس لهم عدد محدود .

مادة ٩ — يدعى المجمع كل سنة للانعقاد مدة شهر على الأقل في الشتاء أو الربيع ، للنظر في المسائل المنوطة بالمجمع كله ، ومنها إصدار القرارات ، واختيار رئيس المجمع وأعضائه

ويعقد المجمع في دور انعقاده عشرين جلسة على الأقل ، ويتداول الرأي في الأعمال التي أعدت منذ دورته الأخيرة . وتجب المبادرة بإبلاغ هذه الأعمال إلى الأعضاء العاملين ، ليتسنى لكل منهم درسها قبل دور الانعقاد .

مادة ١٠ — للمجمع أن يعهد في إعداد كل فرع من فروع الأعمال الموكولة إليه إلى لجنة ينتخبها من بين أعضائه العاملين .

ولهذه اللجان أن تعقد اجتماعاتها في غير المدة المحددة للاجتماعات العامة .

مادة ١١ — يجوز أن يدعى لحضور اجتماعات اللجان والجلسات العامة أشخاص من غير الأعضاء ممن يرى ضرورة مراجعتهم ومعاونتهم في أعمال المجمع وهؤلاء يكون رأيهم استشارياً .

مادة ١٧ — تتخذ وزارة المعارف العمومية كل الوسائل التي تكفل اتباع قرارات المجمع في أمر اللغة العربية وألفاظها وتراكيبها ، وذلك بإذاعتها إذاعة واسعة وباستعمالها بوجه خاص في مصالح الحكومة ، وفي التعليم والكتب الدراسية المقررة .

مادة ١٨ — يضع المجمع لائحته الداخلية ، وتعرض لتصديق وزير المعارف العمومية (١) .

وقد وضع المجمع في دور انعقاده الأول لائحته الداخلية في خمس وثلاثين مادة ننقل منها فيما يلي ما يوضح أغراضه ومظاهر نشاطه :

مادة ١ — على المجمع أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، ملائمة لحاجات الحياة في هذا العصر . ولتحقيق ذلك له أن ينظر في قواعد اللغة ، فيستخير — إذا دعت الضرورة — من آراء أئمتها ما يوسع دائرة أقيستها ، لتكون أداة سهلة للتعبير عن المقاصد العلمية وغير العلمية .

مادة ٢ — للمجمع أن يستبدل بالكلمات العامية والأعجمية التي لم تعرب ، غيرها من الألفاظ العربية . وذلك بأن يبحث أولاً عن ألفاظ عربية لها في مظاهرها . فإذا لم

يجد بعد البحث أسماء عربية لها ، وضع أسماء جديدة بطرق الوضع المعروفة : من اشتقاق أو مجاز أو غير ذلك . فإذا لم يوفق في هذا التجأ إلى التعريب مع المحافظة على حروف اللغة وأوزانها بقدر الطاقة .

مادة ٣ — يقوم المجمع بوضع معجمات صغيرة لمصطلحات العلوم والفنون وغيرها تنشر تدريجاً ، ويوضع معجم واسع يجمع شوارد اللغة وغيرها ، ويبين أطوار كلماتها كما ينشر تفاسير وقوائم لكلمات وأساليب فاسدة يجب تجنبها .

ويقوم بمبحث على اللهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .
مادة ٤ — يصدر المجمع مجلة لنشر ما يقره من البحوث اللغوية ونتائجها ، والألفاظ والتراكيب التي يرى استعمالها أو تجنبها . وتؤلف لجنة من الأعضاء العاملين لتحرير المجلة ، يرأسها كاتب السر . وتنشر المجلة ، إلى جانب ماسبق ، النصوص القديمة ، ودراسات فقه اللغة ، وما يرد من الأعضاء وغيرهم مما يتصل بأغراض المجمع وتقره لجنته .

مادة ٢٧ — يؤلف المجمع من أعضاءائه العاملين في كل دور من أدوار الانعقاد اللجان التي يعهد إليها في بحث أعماله . وتتألف اللجنة من عضوين فأكثر .

مادة ٢٨ — اللجان التي تتألف من الأعضاء المقيمين بمصر توالى اجتماعاتها في غير مدة انعقاد المجمع . أما الأعضاء غير المقيمين بمصر فينجز كل منهم وحده أو مع غيره من الأعضاء العمل الذي يكله المجمع إليه .

مادة ٣٠ — تضع كل لجنة أو عضو يعمل وحده تقريراً لما تم من الأعمال يقدمه للرئيس لتوزيعه على الأعضاء قبل عرضه على المجمع بوقت كاف (١) .

ووفقاً للمادة العاشرة من مرسوم إنشائه وللمادة السابعة والعشرين من لائحته الداخلية اتخذ المجمع في دور انعقاده الأول قراراً بتأليف لجانه وبيان اختصاصها وأعضائها . وفيما يلي ملخص هذا القرار (٢) .

ألفت لجان المجمع في دور الانعقاد الأول كما يأتي :

١ — لجنة الرياضيات . وتبحث في مصطلحات الحساب والهندسة بأنواعها والجبر وعلم الآلات والحيل (الميكانيكا) والفلك ... وما إلى ذلك .

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٢٢—٢٦ .

(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحة ٢٩ وتوابعها .

٢ — لجنة العلوم الطبيعية . وتبحث في مصطلحات الطبيعة بأقسامها والكيمياء بأنواعه .

٣ — لجنة علوم الحياة والطب . وتبحث في مصطلحات المواليد الثلاثة ، ووظائف الأعضاء وما إليها ، وفي الطب بأنواعه .

٤ — لجنة العلوم الاجتماعية والفلسفية . وتبحث في مصطلحات العلوم الاجتماعية كالحقوق والاقتصاد والسياسة والإدارة ووصف الشعوب ، والعلوم الفلسفية كعلوم النفس والمنطق والأخلاق والتصوف والإلهيات والدينيات .

٥ — لجنة الآداب والفنون الجميلة . وتبحث في مصطلحات التاريخ والجغرافيا وما يتعلق بالمدينة ومسالكها والمنزل وأجزائه وأدواته ونحو ذلك ، ومصطلحات الصناعات والحرف وما إليها ، ومصطلحات الفنون الجميلة مثل الرسم ، والتصوير والنحت ، ونقر الخشب ، والموسيقى بأنواعه وآلاته وأجزاء آلاته ، والتمثيل والخيالة والشعر . كما تعمل على تصحيح الألفاظ والأساليب التي يُغلط فيها .

٦ — لجنة المعجم . وتقوم بوضع المعجمات التي أشير إليها في الفقرتين الأولى والثانية من المادة الثانية من مرسوم إنشاء المجمع ، وفي المادة الثالثة من لائحته الداخلية .

٧ — لجنة اللهجات . وتبحث في دراسة علمية للجهات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

٨ — لجنة المجلة . وتشرف على تحرير المجلة المشار إليها في المادة الثالثة من مرسوم إنشاء المجمع وفي المادة الرابعة من لائحته الداخلية .

٩ — لجنة خزانة الكتب .

١٠ — لجنة الميزانية .

١١ — لجنة الأصول العامة . وتبحث في قواعد اللغة العربية ، وتخير من آراء أئمتها ما يوسع دائرة أقيستها لتكون أداة سهلة للتعبير عن المقاصد العلمية وغير العلمية .



فأعمال المجمع الأساسية ترجع إذن إلى خمس طوائف :

(أحداها) وضع أسماء عربية لمصطلحات العلوم والفنون والشؤون العامة ، وتصحيح الألفاظ والأساليب التي تنحرف فيها الألسنة والأقلام عن الأوضاع العربية الفصيحة . ولهذه الغاية أنشئت لجان الرياضيات ، والعلوم الطبيعية ، وعلوم الحياة والطب ، والعلوم

الاجتماعية والفلسفية ، والآداب والفنون الجميلة .

وقد قطع المجمع في هذا السبيل مرحلة كبيرة ، فأقر مئات من الأسماء العربية في مختلف هذه الشئون ، ونشرت هذه الأسماء في القسم الرسمي من مجلته ، كما نشر بها أسماء وتحقيقات أخرى كثيرة من هذا النوع اقترحها بعض أعضائه أو لجانه أو بعض الباحثين من غير أعضائه ولم تقرها هيئة المجمع بعد (١) .
ومع ذلك لا تزال أمامه مراحل طويلة في هذا السبيل ، كما أنه في حاجة إلى اتخاذ الوسائل الفعالة لتعميم ما يقره بهذا الصدد ، وضمان تداوله واستقراره ، وتمكينه من الألسنة والأقلام .

و (ثانيها) وضع معجمات مهندبة للغة العربية . ولهذه الغاية أنشئت لجنة المعجم . وقد قدم إلى المجمع بهذا الصدد اقتراحات كثيرة أقر منها ما يلي :
١ - « أن يطبع معجم الأستاذ فيشر (٢) (وهو أحد أعضاء المجمع) وأن يتولى هو تصحيحه بمصر ، على أن يحل حضرته ما يرد إليه من استدراكات حضرات الأعضاء محل النظر والتقدير ، وأن يعاونه من حضرات أعضاء المجمع من يتفق الرئيس معهم ، ومعهم المراقب الإداري ، الذي يكون له ، مع الأستاذ فيشر ، الإشراف على من يعين من الموظفين لهذا العمل (٣) . »

وقد حال انقطاع الأستاذ فيشر عن أعمال المجمع بسبب الحرب الحاضرة وجنسيته الألمانية دون متابعة العمل في هذا المعجم .

٢ - « البدء في عمل معجم علمي صغير للتعليم الثانوي في الأقطار العربية ، وذلك بأن يعين معالي الرئيس موظفين مختصين في العلوم (الطبيعية والكيميائية والرياضية وعلوم الحياة) مع إجادة اللغة العربية للقيام بعمل هذا المعجم وما يحتاج إليه من رسوم .

(١) انظر الجزء الأول صفحات : ٣٨ — ١٧٠ ، ٣٩٤ — ٣٩٩ ؛ والجزء الثاني صفحات : ٦٣ — ١٩٥ ، ٢٥٦ — ٣٠٤ ؛ والجزء الثالث صفحات ٣٥ — ١٩١ ، ٢٥٤ — ٢٨٩ ، ٣٠٢ — ٣١١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ؛ والجزء الرابع صفحات ٨ — ١٧ ، ٢٢ — ٣٠ ، ٣٩ — ١٢٣ ، ١٤١ — ١٦٦ ، ٢١١ — ٢٢٤ ، ٢٧٥ — ٢٩٣ ، ٣١٦ — ٣٢٧ .

(٢) قدم الأستاذ الدكتور فيشر الألماني إلى المجمع بعض جذاذات من معجمه هذا . وقد ظهر من بحث هذه النماذج أن مؤلفها قد عني بتأدية هامة أغفلها أصحاب المعجمات من قبله ، وهي تعقب الكلمة في مختلف العصور والأمكنة وبيان ما اعتورها من تطور في مدلولها وأصواتها ، وأنه بذلك سيسد فراغا كبيرا في متون اللغة العربية (انظر فقرة متون اللغة العربية صفحتي ١٩٨ و ١٩٩) .

(٣) انظر الجزء الثالث من المجلة ص ٣٢ .

ويرى المجمع بعد تعيين هؤلاء الموظفين أن يراجعوا معجماً علمياً صغيراً أوروبياً، وأن يستخرجوا منه جميع الكلمات العلمية الضرورية لطلاب التعليم الثانوي، وأن يشرعوا في تقسيم العمل بينهم، ثم ترجمة الاصطلاحات والتعريفات مع وضع الكلمة اللاتينية أو اليونانية إذا كان الاصطلاح من هاتين اللغتين، أو الإنجليزية والفرنسية معاً، ويضاف إلى كل مادة الاصطلاح المستعمل في بلاد الشرق الأخرى، كسوريا والعراق والمغرب. وكلما أنجز الموظفون قسماً، أرسل إلى كل عضو من حضرات أعضاء المجمع بالخارج ومصر، ليبدى ما يعين له من الملاحظات أو الاصطلاحات أفراداً ولجاناً، ويرسل بها إلى المجمع، ثم تطبع هذه الملاحظات جميعاً، وتعرض على المجمع عند انعقاده، لإصدار قراراته فيها (١).

٣ - تأليف «معجم لغوى وسيط سهل التناول، ميسر الترتيب، مصور، بحيث يتناول من المصطلحات العلمية الصحيحة، ما يتعلق بالأسباب الدائرة بين الناس». وقد قرر المجمع «الشروع في اتخاذ الأسباب للقيام بهذا العمل وأن يعهد إلى لجنة بالشروع في تحقيقه، مع رجاء حضرات أعضاء المجمع أن يقدموا اقتراحاتهم في شأن هذا المعجم لرياسة المجمع ليطلع عليها حضرات أعضاء تلك اللجنة للاستعانة بهم في وضع مشروعاتهم على أكمل وجه ممكن» (٢).

ولم يظهر إلى الآن أى معجم من هذين المعجمين الأخيرين.

(ثالثها) البحث في قواعد اللغة العربية، وتحرير أصولها الصرفية وغيرها والعمل على توسيع دائرة أقيستها لتكون أداة سهلة للتعبير. ولهذه الغاية أنشئت «لجنة الأصول العامة».

وقد أصدر المجمع بهذا الصدد قرارات هامة وثيقة الصلة بمحور فقه اللغة العربية. ولذلك دعت الحالة إلى دراسة بعض هذه القرارات أو الإشارة إليها في كثير من فصول هذا الكتاب (٣). وسندكر فيما يلي أهم ما لم تدع مناسبة لذكره منها فيما سبق:

١ - «قرار التضمين: التضمين أن يؤدي فعل أو ما في معناه في التعبير مؤدى فعل آخر أو ما في معناه، فيعطى حكمه في التعدية وال لزوم. ومجمع اللغة العربية المملوك يرى أنه قياسى لا سماعى، بشروط ثلاثة: الأول تحقق المناسبة بين الفعلين؛ والثاني

(١) انظر الجزء الثالث من مجلة المجمع صفحتى ٣٢، ٣٣.

(٢) انظر الجزء الثالث من مجلة المجمع ص ٣٤.

(٣) انظر صفحات ١٤٤، ١٤٥، ١٥١، ١٥٧ والقرارات المذكورة في فقرتى الدخيل والمولد.

وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس ؛ والثالث ملائمة التضمنين للذوق العربي . - ويوصى المجمع ألا يلجأ إلى التضمنين إلا لغرض بلاغي^(١) .

٢ - « قرار النسبة إلى جمع التكسير : المذهب البصري في النسب إلى جمع التكسير أن يرد إلى واحد ، ثم ينسب إلى هذا الواحد . ويرى المجمع أن ينسب إلى لفظ الجمع عند الحاجة كإرادة التمييز أو نحو ذلك^(٢) . »

٣ - « قرار جمع الكلمات التي لم تسمع جموعها : يرى المجمع أن الكلمة التي لم يسمع لها جمع في اللغة يختار لها صيغة جمع القلة الذي يطرد في وزنها ، وإذا وجد لها صيغتان لجمع الكثرة مع التساوي في القوة اختياراً معاً . وعند التفاوت في القوة يختار جمع واحد هو أقواها ، ويكتفى بجمع واحد في المصطلحات العلمية أيأ كان^(٣) . »

(ورابعها) تنظيم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية . ول هذه الغاية أنشئت لجنة للهجات .

ولم ينشر بعد في صورة رسمية أى بحث من بحوث هذه اللجنة^(٤) .

(وخامستها) إصدار مجلة يسجل فيها ما تقره هيئة المجمع بصدد الشؤون السابقة وينشر فيها كذلك ما يقترحه الأعضاء وغيرهم وما يقومون به من بحوث في مختلف نواحي اللغة العربية . وقد أنشئ للإشراف على تحرير هذه المجلة لجنة خاصة (لجنة المجلة) تتألف من بعض أعضاء المجمع .

وقد صدر من هذه المجلة بضعة أجزاء يشتمل كل جزء منها على قسمين : قسم رسمي يتضمن قرارات المجمع في الشؤون السابقة وشرح هذه القرارات والاحتجاج لها ؛ وقسم غير رسمي يتضمن ما يقدمه الأعضاء وغيرهم من اقتراحات وينشرونه من بحوث . وقد ظهر بهذا القسم الأخير في فقه اللغة العربية ومقنها وأدبها مقالات قيمة أشرنا إلى

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٣ ، ١٨٠ - ١٩٩ .

(٢) انظر الجزء الثاني من مجلة المجمع صفحات ٣٥ ، ٤٥ ، ٥٠ .

(٣) انظر الجزء الرابع من مجلة المجمع ص ١ و صفحة ١٧٤ وتوابعها .

(٤) نشر لبعض أعضاء المجمع وغيرهم في القسم غير الرسمي من المجلة بعض مقالات في هذه الناحية من أهمها : « اللهجة العربية العامية » (للأستاذ عيسى اسكندر المعلوف عضو المجمع : الجزء الأول ٣٥٠ - ٣٦٨ والجزء الثالث ٣٤٩ - ٣٧١) ؛ و « دراسة في اللهجة المصرية » (للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع : الجزء الثالث ص ٢٩٠ - ٣٠١) ؛ و « اللهجة العامية في لبنان وسورية » (للأستاذ عيسى اسكندر المعلوف عضو المجمع : الجزء الرابع ص ٢٩٤ - ٣١٥) .

بعضها في كثير من فصول هذا الكتاب (١).

وفي عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول سمي هذا المجمع باسم « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » تخليداً لذكري منشئ العظيم ، وزيد عدد أعضائه من المصريين زيادة كبيرة ، فاستكمل بذلك عدته ، وزادت قدرته على تحقيق ما علق به من آمال (٢).

انتهت طبعته الثانية في : رجب سنة ١٣٦٣ هـ .
يولية سنة ١٩٤٤ م .

(١) انظر التعليق الثاني بصفحة ١٦٥ . والتعليقات الواردة في فقرات : الحجاز والكتابة والنقل ؛ والدخيل والعرب والمولد ، وتعريب الأساليب . والتعليقات الواردة في هذه الفقرة بصدد اللهجات العامية . ومن أهم المقالات التي لم تدع مناسبة للإشارة إليها فيما سبق ؛ « الترادف » للأستاذ علي الجارم بك عضو المجمع (الجزء الأول ص ٣٠٣ وتوابعها) ؛ و « تيسير لهجاء العربي » للمغفور له الأستاذ الشيخ أحمد الاسكندري (الجزء الأول ص ٣٦٩ وتوابعها) ؛ « بحث في علم الاشتقاق » لعبد الله أفندي أمين (الجزء الأول ص ٣٨١ وتوابعها) ؛ و « سبيل الاشتقاق بين القياس والسماع » للمغفور له الأستاذ الشيخ حسين والي (الجزء الثاني ص ١٩٥ وتوابعها) ؛ و « الاشتقاق الكبير » للأستاذ الشيخ ابراهيم حمروش (الجزء الثاني ص ٢٤٥ وتوابعها) ؛ و « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » للأستاذ ليمان (الجزء الثالث ص ٢٤٧ وتوابعها) ؛ و « بعض اصطلاحات يونانية في اللغة العربية » للأستاذ بندلي جوزي بجامعة باكو (الجزء الثالث ص ٣٣٠ وتوابعها) ؛ و « المصادر التي لا أفعال لها » للأستاذ علي الجارم بك (الجزء الرابع ص ٢٢٥ وتوابعها) ؛ و « المترادف في اللغة العربية » للشيخ محمد الطاهر شيخ الإسلام في تونس (الجزء الرابع ص ٢٤١ وتوابعها) ؛ و « بحث في الطرق التي سلكها العرب عند اشتقاقهم الأفعال من أسماء الأعيان » للأستاذ عبد الله أمين (الجزء الرابع ص ٣٢٨ وتوابعها) .

(٢) انتهت وزارة المعارف من إعداد مشروع قانون بإنشاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية بدلا من المرسوم الخاص به . ويرجع الحكمه في إصدار القانون الخاص بالمجمع إلى جعله مؤسسة مستقلة ذات شخصية معنوية . وينص المشروع على بقاء أغراض المجمع على ما كانت عليه مع إضافة مهمة جديدة هي تشجيع الإنتاج الأدبي العربي الحديث وإقامة المسابقات الأدبية وتقدير الجوائز لها . وقد حدد عدد أعضاء المجمع بثلاثين لا يزيد الأجانب منهم على عشرة . ونص المشروع على أن يكون لوزير المعارف حق تعيين رئيس للمجمع من بين ثلاثة يرشحهم أعضاؤه لمدة ثلاث سنوات ، ويتخب له وكيل مصري لمدة سنة . وقد منح وزير المعارف وحده سلطة إصدار القرارات التي تمس مادة اللغة العربية وجوهرها . (انظر عدد ٤٧١ السنة العاشرة ١٣/٧/٤٢ ص ٧١٢ من مجلة الرسالة) .

أهم المراجع (١)

أولا - أهم المراجع العربية

- ١ - ابن الأثير (المبارك بن محمد بن محمد الجزرى) النهاية فى غريب الحديث. مطبوع
- ٢ - ابن الجوزى (أبو الفرج) غريب الحديث (وهو أحد مصادر كتاب الغريبين للهروى المذكور برقم ٨٩)
- ٣ - ابن الخراط (عبد الحق الأشبيلى) معجم غريب القرآن والحديث فى ٢٥ جزءاً
- ٤ - ابن السكيت (يعقوب الجهمى) كتاب الألفاظ
- ٥ - ابن جنى (أبو الفتح عثمان) الخصائص
- ٦ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) المقدمة
- ٧ - ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم) وفيات الأعيان
- ٨ - ابن دريد (محمد بن الحسن) جمهرة الكلام . طبع فى الهند
- ٩ - ابن دريد الملاحن (فى الكلمات التى تنصرف إلى معنى ولها فى اللغة معنى آخر أرادها المتكلم)
- ١٠ - ابن رشيق (أبو على الحسن بن رشيق القيروانى) العمدة فى صناعة الشعر ونقده
- ١١ - ابن سلام (أبو عبد الله محمد بن سلام) طبقات الشعراء
- ١٢ - ابن سيده (على بن إسماعيل) المخصص
- ١٣ - ابن سيده (على بن إسماعيل) المحكم . منه أجزاء بدار الكتب المصرية رقم ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٤ لغة
- ١٤ - ابن سينا (الرئيس أبو على الحسين) أسباب حدوث الحروف . مطبوع
- ١٥ - ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) العقد الفريد
- ١٦ - ابن فارس (أبو الحسين أحمد) الصحاحى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها

(١) لم تقتصر فى هذا البيان على الكتب التى رجعنا إليها ، بل ذكرنا أهم المراجع فى موضوعنا وما يتصل به . وقد استعنا فى هذا الباب بمديقتنا الأستاذ الفاضل محب الدين الخطيب .

- ١٧ - ابن فارس (أبو الحسين أحمد) المجلد (معجم لغوى) طبع الجزء الأول منه
- ١٨ - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) غريب القرآن . منه نسخة بدار السكتب الظاهرية بدمشق رقم ٢٣ لغة
- ١٩ - ابن قتيبة مشكل القرآن . منه نسخة فى مكتبة كوبرى بالقسطنطينية وأخرى بمكتبة ليدن
- ٢٠ - ابن قتيبة إصلاح غريب أبى عبيد (المذكور برقم ٢٦)
- ٢١ - ابن قتيبة أدب الكتائب
- ٢٢ - ابن مطرف الكتانى كتاب القرطين (جمع فيه بين كتابى ابن قتيبة : غريب اللغة ومشكل القرآن) منه نسخة نفيسة بالخزانة التيمورية رقم ٥٩ لغة
- ٢٣ - ابن منظور (جمال الدين بن مكرم) لسان العرب
- ٢٤ - ابن هشام (عبد الملك الحميرى المعافى) السيرة النبوية
- ٢٥ - أبو البقاء (الحسينى الكفوى) السكيات
- ٢٦ - أبو عبيد (القاسم بن سلام) الغريب المصنف . منه نسخة بدار السكتب المصرية رقم ١٢١ لغة
- ٢٧ - أبو عبيدة (معمر بن المثنى) غريب الحديث والأثر
- ٢٨ - أحمد تيمور باشا معجم اللغة العامية مع تذييل فى الأمثال العامية (مخطوط بالخزانة التيمورية) وقد نشر بعض نماذج منه بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، فى المجلد السادس
- ٢٩ - أحمد عيسى (الدكتور) التهذيب فى أصول التعريب
- ٣٠ - الأزهرى (محمد بن أحمد بن الأزهر) تهذيب اللغة . منه نسخة بدار السكتب المصرية رقم ٩ لغة
- ٣١ - الأسكافى (محمد بن عبد الله) مبادئ اللغة
- ٣٢ - الأصفهاني (أبو الفرج على بن الحسين) كتاب الأغاني
- ٣٣ - الأصمعى (عبد الملك بن قريش) غريب الحديث (أنظر كذلك رسائله فى طوائف خاصة من الألفاظ والمعانى بصفحة ١٨٨)
- ٣٤ - الأنبارى (أبو بكر محمد بن القاسم) كتاب الأضداد

- ٣٥ - البستاني (بطرس) محيط المحيط
- ٣٦ - البستاني (بطرس) قطر المحيط
- ٣٧ - البستاني (بطرس) دائرة المعارف
- ٣٨ - البستاني (عبد الله) البستان
- ٣٩ - البغدادي (عبد القادر) خزانة الأدب
- ٤٠ - التبريزي (يحيى بن علي) تهذيب كتاب الألفاظ لابن السكيت (المذكور برقم ٤)
- ٤١ - التهانوي (محمد علي بن علي) كشف اصطلاحات الفنون
- ٤٢ - الشبلي (تمام بن غالب) المواعظ (معجم لغوي)
- ٤٣ - الثعالبي (أبو منصور عبد الله بن محمد) فقه اللغة
- ٤٤ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين
- ٤٥ - الجرجاني (علي بن محمد) التعريفات
- ٤٦ - الجزائري (الشيخ طاهر) التقريب إلى أصول التعريب
- ٤٧ - الجزائري شرح مقدمة الكافي في اللغة
- ٤٨ - الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد) المعرب من الكلام الأعجمي .
طبعته أخيراً « دار الكتب المصرية » في مجلد يقع في ٤٥٦ صفحة من القطع
الكبير مع بعض شروح وتعليقات للأستاذ أحمد محمد شاكر ومقدمة للدكتور
عبد الوهاب عزام
- ٤٩ - الجوهرى (إسماعيل بن حماد) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)
- ٥٠ - الحربى (إبراهيم بن إسحاق) غريب الحديث
- ٥١ - الحريرى (القاسم بن علي) درة الغواص في أوهم الخواص
- ٥٢ - الحفاجى (شهاب الدين أحمد بن محمد) شفاء العليل فيما ورد في كلام العرب
من الدخيل
- ٥٣ - الخليل بن أحمد العين
- ٥٤ - الدسوقي تهذيب الألفاظ العامية
- ٥٥ - الرازى (محمد بن أبى بكر بن عبد القادر) مختار الصحاح
- ٥٦ - الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد بن الفضل) مفردات غريب اللغة
- ٥٧ - الزبيدى (أبو بكر) مختصر العين

- ٥٨ - الزمخشري (أبو القاسم محمود) أساس البلاغة
- ٥٩ - الزمخشري الفائق في غريب اللغة
- ٦٠ - السجستاني (سهل بن محمد) غريب القرآن
- ٦١ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) المزهري في علوم اللغة وأنواعها
- ٦٢ - الشدياق (أحمد فارس) سر الليال في القلب والإبدال
- ٦٣ - الشدياق الجاسوس على القاموس
- ٦٤ - الشرتوني (سعيد) أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد
- ٦٥ - الشيباني (إسحاق بن مراد) كتاب الجيم (معجم لغوي)
- ٦٦ - صاحب بن عباد المحيط (معجم لغوي) في دار الكتب المصرية رقم ٤٢ لغة الجزء الثالث منه
- ٦٧ - الصغاني (الحسن بن محمد) العباب (معجم لغوي) الجزء الأول منه بدار الكتب المصرية رقم ١٤١ لغة
- ٦٨ - الصغاني التكملة والذيل والصلة (تكملة الصحاح)
- ٦٩ - الصغاني مجمع البحرين منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٣ لغة
- ٧٠ - العسكري (أبو هلال) المعجم في بقية الأشياء
- ٧١ - العسكري كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر
- ٧٢ - الفارابي (إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم) الجامع لديوان الأدب بدار الكتب المصرية رقم ٢٥ لغة
- ٧٣ - الفتني (محمد طاهر بن علي الصديق الهندي) مجمع بحار الأنوار مطبوع بالهند
- ٧٤ - الفيروزابادي (محمد بن يعقوب) الروض المألوف فيما له اسمان إلى ألوف
- ٧٥ - الفيروزابادي القاموس المحيط
- ٧٦ - الفيومي (أحمد بن محمد بن علي المقرئ) المصباح المنير
- ٧٧ - القالي (أبو علي) الأملاني وذيل الأملاني والنوادر
- ٧٨ - القالي البارع في اللغة
- ٧٩ - القزاز (محمد بن جعفر التيمي) الجامع (معجم لغوي)
- ٨٠ - الكرمل (انستاس) مجلة لغة العرب

- ٨١ - المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) كتاب الكامل في اللغة والأدب
- ٨٢ - المبرد غريب الحديث
- ٨٣ - المبرد ما اتفق لفظه واختلف معناه من كتاب الله عز وجل
- ٨٤ - المديني (محمد بن أبي بكر الأصفهاني) استدراك ما فات الهروي في الغريبين (المذكور تحت رقم ٨٩)
- ٨٥ - المطرزي المغرب (معجم لغوى) طبع في الهند
- ٨٦ - النجفي مجمع البحرين ومطلع النيرين . معجم لغوى مطبوع
- ٨٧ - النضر بن شميل غريب الحديث
- ٨٨ - النووى (محي الدين) تهذيب الأسماء واللغات . مطبوع
- ٨٩ - الهروي (أبو عبيد أحمد بن محمد) كتاب الغريبين
- ٩٠ - الهمداني (عبد الرحمن بن عيسى) الألفاظ الكتابية
- ٩١ - اليازجى (إبراهيم) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد
- ٩٢ - اليازجى مجلة الضياء
- ٩٣ - ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى) غريب الحديث
- ٩٤ - ثعلب الفصيح
- ٩٥ - جرجى زيدان الفلسفة اللغوية
- ٩٦ - جرجى زيدان تاريخ اللغة العربية
- ٩٧ - جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية
- ٩٨ - حفى ناصف تاريخ الأدب
- ٩٩ - حمزة فتح الله العرب من ألفاظ القرآن الكريم
- ١٠٠ - حمزة فتح الله المواهب الفتحية
- ١٠١ - طه حسين الأدب الجاهلى
- ١٠٢ - على العناني ومحمد عطية الإبراشى وليون محرز كتاب الأساس فى الأمم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية وآدابها
- ١٠٣ - على العناني ومحمد عطية الإبراشى وليون محرز كتاب المفصل فى قواعد اللغة السريانية وآدابها والموازنة بين اللغات السامية
- ١٠٤ - على عبد الواحد وفى علم اللغة
- ١٠٥ - قطرب (محمد بن المستنير) غريب الحديث

- ١٠٦ — مجلة الزهراء لمنشئها الأستاذ محب الدين الخطيب
- ١٠٧ — مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق
- ١٠٨ — مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية
- ١٠٩ — محب الدين الخطيب اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب
- ١١٠ — محب الدين الخطيب الحديقة
- ١١١ — مرتضى الزبيدي تاج العروس في شرح القاموس
- ١١٢ — معلوف (الأب لويس) المنجد (معجم لغوى)
- ١١٣ — مؤرج السدوسي غريب القرآن
- ١١٤ — نشوان الحميرى شمس العلوم (معجم لغوى وبحوث فى اللغة والأدب) الجزء الأول منه بدار الكتب المصرية رقم ٣٠ لغة ومنه نسخة فى طنطا
- ١١٥ — همام (جرجس الشويرى) معجم الطالب
- ١١٦ — ولفسنس. (الدكتور اسرائيل) تاريخ اللغات السامية
- ١١٧ — ياقوت معجم الأدباء

ثانيا — أهم المراجع الإفرنجية

1. Bauer — Leander : Historische Gram. d'Hebräischen Sprache.
2. Brockelmann : Grundriss der vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen.
3. Brockelmann : Précis de Linguistique Sémitique « trad. fr. ».
4. Chabot : Les Langues Araméennes.
5. Clodd : Story of the Alphabet « New york ».
6. Cooke : North semitic inscriptions.
7. Cowley : The Origin of the Semitic alphabet (ext. The Journal of egyptian archaeology.
8. Darmesteter : La Vie des Mots.
9. Dauzat : La Philosophie du Langage.
10. Dauzat : La Vie du Langage.
11. Delitzsch : Assyrische Grammatik.
12. De Sacy : Grammaire Arabe.

13. Dillmann : Grammatik der äthiopischen Sprache.
14. Dussaud ; Les Arabes en Syrie Avant l'Islam.
15. Encyclopédie de l'Islam.
16. Gardiner (Allan H.) The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet.
17. Giese : Untersuchungen über die addâd auf grund von Stellen in Allarabischen Dichtern.
18. Guidi : Della Sede dei popoli sem.
19. Hermann — Paul : Etudes sur les changements phonétiques.
20. Jahn : Die Mehri Sprache. . .
21. King : Assyrian Language....
22. Larousse du 20ème Siècle.
23. Littman : Nabatean Inscriptions
24. Littman : Thamudenische Inschriften.
25. Littman : Semitic Inscriptions.
26. Littman : Safa Inschriften.
27. Meillet : Comment les mots changent de sens (dans l'Année Sociologique, T—IX, P. P. 3—33).
28. Meillet : Linguistique Historique et Linguistique générale.
29. Meillet et Cohen (groupe de linguistes sous la direction de Meillet et Cohen) : Les Langues du Monde.
30. Noldek : Die Semitischen Sprachen.
31. Praetorius : Die Amharisch Sprache.
32. Redslob : Die Arabischen Wörter mit entgegengesetzten Bedeutungen.
33. Renan : Histoire générale des Langues Sémitiques.
34. Renan : L'Origine du Langage.
35. Rousselot : Les Modifications Phonétiques du Langage.
36. Sottas (Henri) Une Nouvelle théorie sur L'origine égyptienne de l'alphabet sémitique.
37. Vannier : L'Esprit et les Mœurs d'une nation d'après sa Langue.
38. Wright : Lectures on the comparative grammar of the Semitic Languages.
39. Zimmern : Vergleichend Grammatik der Semitischen Sprachen.

What is this?! Do you expect us to believe that you used all these sources

فهرس

(الصفحة)	(الموضوع)
٣	مقدمة
١٩ - ٤	تمهيد في الشعوب السامية ولغاتها
٥ ، ٤	(١) الشعوب السامية
٦ ، ٥	(٢) اللغات السامية
٦	(٣) دراسة اللغات السامية
٧ ، ٦	(٤) انحدار الأمم الناطقة باللغات السامية من أصل واحد
١١ - ٧	(٥) الموطن الأول للشعب السامى
١٢ ، ١١	(٦) أقدم لغة سامية
١٧ - ١٢	(٧) خصائص اللغات السامية وصفاتها المشتركة
١٧	(٨) وجوه الخلاف بين اللغات السامية
١٩ - ١٧	(٩) صلة اللغات السامية باللغات الحامية
٢٦ - ٢٠	الفصل الأول: اللغات الأكادية
٢٢ - ٢٠	(١) نشأتها وانتشارها
٢٣ ، ٢٢	(٢) خصائصها ومدى تأثيرها بلغات السكان الأصليين
٢٤	(٣) رسم اللغات الأكادية
٢٥	(٤) اللهجات الأكادية
٢٦	(٥) مراحل اللغة الأكادية
٤٢ - ٢٧	الفصل الثانى: اللغات الكنعانية
٢٧	(١) الشعوب الكنعانية
٣٠ - ٢٧	(٢) اختراع الكنعانيين الرسم السامى

(الموضوع)

(الصفحة)

٣٢ ، ٣١	٣	اللغة السكنعانية الأولى وما تفرع منها
٣٤ — ٣٢	٤	اللغة الفينيقية واللهجة البونية
٣٢		اللغة الفينيقية الأصلية
٣٣		اللهجة البونية
٣٤ ، ٣٣		نهاية اللغة الفينيقية واللهجة البونية
٤٢ — ٣٤	٥	اللغة العبرية
٣٦ — ٣٤		أهميتها والمتكلمون بها وصلتها باللغات السكنعانية الأخرى
٣٨ — ٣٦		المراجع التي وصلت إلينا اللغة العبرية عن طريقها
٤١ — ٣٨		مراحل اللغة العبرية
٤٢ ، ٤١		رسم اللغة العبرية

٥٤-٤٣ الفصل الثالث : اللغات الآرامية

٤٥ — ٤٣	١	نشأة الآرامية وانتشارها
٤٧ — ٤٥	٢	اللهجات الآرامية
٥٣ — ٤٨	٣	الآثار التي وصلت إلينا عن الآرامية
٥٤ ، ٥٣	٤	نهاية الآرامية

٦٦-٥٥ الفصل الرابع : اللغات اليمنية القديمة

٥٧ — ٥٥	١	نشأتها ومنزلتها من الفصيلة السامية وصلتها باللغة العربية
٦٠ — ٥٧	٢	أدوارها وأقسامها
٦٠	٣	الرسم اليمني
٦٦ — ٦٠	٤	نهاية اللغات اليمنية القديمة

٧٣-٦٧ الفصل الخامس : اللغات الحبشية السامية

٦٨ ، ٦٧	١	نشأتها وخواصها
---------	---	----------------

(الموضوع)	(الصفحة)
(٢) الرسم الحبشي	٦٨ ، ٦٩
(٣) أقسام اللغات الحبشية السامية وخصائص كل قسم وأهم آثاره	٦٩ - ٧٣
الفصل السادس : اللغة العربية	٧٤ - ٢٠٨
(١) شعبتها ومنزلتها من اللغات السامية	٧٤
(٢) نشأتها وأقسامها	٧٤ ، ٧٥
(٣) العربية البائدة أو عربية النقوش	٧٥ - ٨٢
(٤) العربية الباقية	٨٢ ، ٨٣
(٥) صراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لهجة قريش	٨٣ - ٨٦
(٦) القرآن والأدب الجاهلي ومجيئهما بلغة قريش	٨٦ - ٨٨
(٧) نهضة لغة قريش وعوامل هذه النهضة	٨٨ - ٩١
(٨) أثر القرآن والحديث والإسلام في اللغة العربية	٩١ - ٩٣
(٩) اللهجات العربية بعد تغلب لغة قريش	٩٣ - ٩٧
(١٠) احتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها وصراعها معها وآثار ذلك	٩٧ - ١٠١
(١١) خصائص اللغة العربية	١٠١ ، ١٠٢
(١٢) قواعد اللغة العربية : الإعراب واختلاف الآراء بصده	١٠٢ - ١٠٧
(١٣) مفردات اللغة العربية : كثرتها ومترادفاتها واختلاف الآراء بصدها	١٠٧ - ١١٢
(١٤) اللهجات العامية الحديثة : عوامل تطورها وصفاتها المشتركة	١١٢ - ١٢٥
(١٥) طوائف اللهجات العامية ومبلغ بعد كل منها عن الفصحى	١٢٥ - ١٢٧
(١٦) لغة الكتابة العربية في العصر الحاضر	١٢٧ ، ١٢٨
(١٧) اللهجة المالطية	١٢٨ ، ١٢٩
(١٨) الرسم العربي : تاريخه ومراحله	١٢٩ - ١٣٤
(١٩) صعوبة القراءة العربية ووجوه إصلاح الرسم	١٣٤ - ١٣٨
(٢٠) مخارج الأصوات العربية وصفاتها	١٣٨ - ١٤٠
(٢١) العلاقة بين أصوات الكلمات العربية ومعانيها ؛ محاكاة الأصوات ؛ الاشتقاق وأنواعه	١٤٠ - ١٤٩
(٢٢) النحت في اللغة العربية	١٤٩ - ١٥١
(٢٣) اختصاص بعض الأوزان العربية بالدلالة على أمور خاصة	١٥١ - ١٥٧

(الموضوع)	(الصفحة)
٢٤) الاشتراك اللفظي في اللغة العربية	١٥٧ - ١٦٠
٢٥) التضاد في اللغة العربية	١٦٠ - ١٦٥
٢٦) المجاز والسكنايه والنقل واستخدام الجمل في غير أبوابها في اللغة العربية	١٦٥ - ١٧١
٢٧) أساليب اللغة العربية واختلافها باختلاف الموضوعات، الخيال	
في العربية ومادته	١٧٢ - ١٧٤
٢٨) الدخيل - المعرب والأعجمي والمولد	١٧٤ - ١٨٢
٢٩) المولد في اللغة العربية	١٨٢ ، ١٨٣
٣٠) تعريب الأساليب	١٨٣ - ١٨٨
٣١) متون اللغة العربية	١٨٨ - ١٩٩
٣٢) كفاية اللغة العربية	١٩٩ ، ٢٠٠
٣٣) مجمع فؤاد الأول للغة العربية	٢٠٠ - ٢٠٨

أهم المراجع :

(أولاً) المراجع العربية	٢٠٩ - ٢١٤
(ثانياً) المراجع الإفرنجية	٢١٤ ، ٢١٥

استدراك

صفحة	سطر	خطأ مطبعي	صوابه
١٥	٢٦	بصدد هذه من ٢٣ الخاصة	بصدد هذه الخاصة
١٥	٢٨	كما سيأتى بيان ذلك فى الفصل الأول	كما سيأتى بيان ذلك فى الفصل الأول من ٢٣
٨٠	٢	وهرب من حجو	وهرب مزحجو
٨٠	السطر الأخير	انظر من آخر ٤٩	انظر آخر من ٤٩
١٠٣	السطر الأول	شعرا وخطابتها	شعرها وخطابتها
١١٢	١٤	فى مناقق واسعة	فى مناطق واسعة
١١٥	١٤	إلى حاف	إلى جاف
١١٩	١٨	(١)	(١)
١٥٥	٢٤	مذكروه وموثثة	مذكروه وموثثة
١٦٦	١٤	و « يفترش الغبراء »	« يفترش الغبراء »

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

